تفسير سورة سبأ

تفسير القرآن الكريم



الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً].

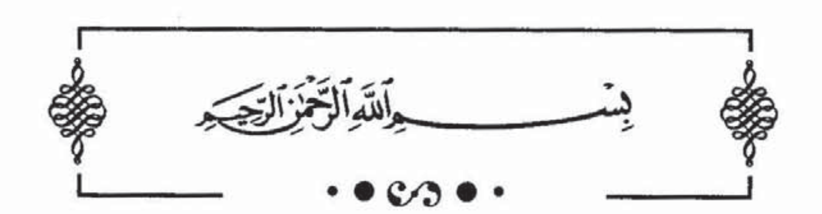
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ] المكِّيُّ على المشهور: هو الذي نزَل قبل الهِجرة، والمَدنيُّ ما نزَل بعد الهِجْرة، فيَعتَبِر الجمهور المَكِّيَّ والمَدنيَّ بالزمَن لا بالمكان، فما كان بعدَ الهِجْرة فهو مَدنيٌّ، وما كان قبلَها فهو مكِّيٌّ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾]؛ لا يُقبَل استِثْناءُ شيءٍ منَ السُّور المَكِّيَّة والمَدنيَّة إلَّا بدليل؛ أي أنَّه إذا كانت السُّورة مَكِّيَّة فجميع آياتها مَكِّيَّة إلَّا بدليل، وإذا كانت مَدنيَّة فجميع آياتها مَدنيَّة إلَّا بدليل، فاستِثْناء المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآيَةَ نَنظُر في مَوضِعها، إذا كان هناك دليلٌ يَدُلُّ على أنها نزَلَت في المدينة قبِلْناه وإلَّا فلا.

• • ۞ • •

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

•●◦●•

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. البَسمَلة: آيةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، يُؤتَى بها للفَصْل، أو يُؤتَى بها لبَدء السُّورة، إلَّا في (براءَة) فإنه ليس فيها بَسمَلةٌ؛ لأنها لم تَنزِلْ بَسمَلةٌ بينها وبين الأَنفال فتُرِكَت، والجارُّ والمَجرور مُتعلِّقٌ بمَحذوف؛ لأنَّ كل جارٍّ ومَجرور لا بُدَّ أنْ يَتعَلَّق بشيءٍ؛ إذ إنَّ الجارَّ والمَجرور مَعمول، وكل مَعمولٍ فلا بُدَّ له من عامِلٍ، وعليه فكلُّ جارٍّ ومَجرورٍ فإنَّه لا بُدَّ له من مُتعلَّقٍ؛ أي: مِن شيء يَتعلَّق به، وكذلك الظَّرْفُ، والمُتعلَّق: إمَّا أن يَكون فِعلًا أو ما بمَعنَى الفِعْل، وهنا نُقدِّر المُتعَلِّق فِعْلًا؛ لأنَّه الأصل في العمَل؛ ولذلك لا يَعمَل غيرُ الفِعْل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، وكلُّ شيءٍ لا يَتِمُّ عمَله إلَّا بشروط فإنَّ ذلك لأنَّ الأصل عدَمُ العَمل.

ولهذا غيرُ الأفعالِ كالأسماء والمَصادِرِ وشَبَهها لا تَعمَل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، أمَّا الفِعْل فيَعمَل بدون شُروط ونُقدِّره -أيِ: الفِعْل- مُتَأَخِّرًا عن الجارِّ والمَجرور لفائِدَتَيْن:

الفائِدة الأُولى: التَّيمُّن بالابتِداء بذِكْر اسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدة الثانية: الدَّلالة على الحَصْر.

فنُقدِّر العامِل مُتأخِّرًا نظَرًا لهاتين الفائِدتَيْن.

ونُقدِّره فِعْلًا خاصًّا، فنَقول مثَلًا عند ابتِداء القِراءة: التَّقديرُ: بسم الله أَقرَأُ، وعند الوضوء: التَّقديرُ: بسْمِ الله أَتوضَّأ، وعند الأكل: بِسْم الله آكُلُ، وهكذا، وإنها نُقدِّره خاصًّا لأنه أدَلُّ على المَقصود، ويَصِحُّ أن نُقدِّره عامًّا ونَقول: التَّقدير بِسْم الله أَبتَدِئُ أو بِسْم الله أَبدَأُ؛ ولكن الخاصَّ أَوْلى.

فصار عندنا ثلاثة أمور: لا بُدَّ مِنْ مُتعَلَّق مُتأَخِّر خاصٍّ، وتَقدَّم التعليل.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ، ويَكون المَعنى: بكُلِّ اسْمٍ من أسماء الله تعالى أَبتَدِئ، وناسَب ذِكْر ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ دون غيرهما من الأَسْماء لأنها -أي: البَسمَلة- يُؤتَى بها للاستِعانة، وأَنسَبُ ما يَكون للاستِعانة هي الرحمة؛ فلهذا أُتبعَ لفظُ الجلالةِ بهذَيْن الاسْمَيْن الكريمين.

قوله تعالى: ﴿اللَّهِ﴾ أَصلُه الإِلهُ، هذا أَصَحُّ ما قيل فيه، وحُذِفت الهَمْزة لكَثْرة الاستِعمال؛ كما حُذِفَت الهَمزة من (الناس) وأصلُها (أُناس) وحُذِفت الهَمزة من (شَر) ومن (خَيْر) وأصلُها (أَشَرُّ) و(أَخْيَر).

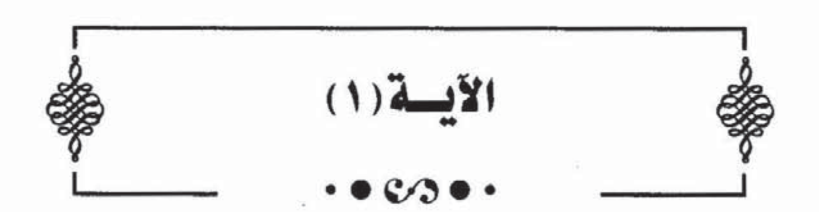
وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ اسْمٌ مِن أَسماء الله تعالى دالٌّ على سَعة رَحْمته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فَعْلان يَدُلُّ على السَّعـة والامتِلاء؛ وانظُرْ ذلك في كلِـمة (غَضبان) و(نَدمان) و(سَكران) و(عَطشان) و(رَيَّان) وما أَشبَهَها؛ تَجِدْ أنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على السَّعة والامتِلاء.

ولهذا قال بعضُ السلَف رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ رحمةٌ عامَّة لجميع الخَلْق، وأمَّا ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهي: دالَّة على الفِعْل أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرحَم برَحْمته الواسِعة.

فـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على الفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرْحوم.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة وهي اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الرَّحمةِ الواسِعة.

• • ۞ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

•• ◦◦ ••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَالمُرَادُ بِهِ الثَّنَاءُ بِمَضْمُونِهِ مِنْ ثُبُوتِ الحَمْدِ؛ وَهُوَ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ للهِ تَعالَى].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: (أل) يَقول العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنها للاسْتِغراق؛ أي: كلُّ حَمْدٍ، و(أل) الَّتي للاستِغراق هي التي يَحِل محَلَّها (كلُّ) مِثْل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] أي: كلُّ إنسان لَفِي خُسْر، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أي: كلُّ إنسان؛ فمَعناها: أنَّ كلَّ حَمْدٍ فهو لله تعالى، واللَّام هنا للاستِحْقاق والاختِصاص؛ للاستِحْقاق لأنَّه لا أحَدَ يَستَحِقُّ أن يُحمَد لِذاته إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والاختِصاص لأنَّ الحَمْد المُستَغرِق لكُلِّ المَحامِد لا يَكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حَمِدَ تَعالى نَفْسَه بِذَلِكَ] يَعني: حَمِدَ الله تعالى نَفْسَه بهذا الوصفِ الذي هو الحَمْد [والمُراد به الثَّناء بمَضمونه من ثُبوت الحَمْد]؛ يَعنِي: ليس هذا تَجديدًا لحَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه ثَناءٌ على الله تعالى بمَضمون الحَمْد [وَهُوَ الوَصْفُ بِالْجَمِيلِ للهِ تَعالَى]، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوَصْف بالكَمال لكان أعَمَّ، فالحَمْدُ وَصْفُ المَحمود بالكَمال، هذا الحَمدُ، فإن كُرِّر وَصْفه بالكَمال صار ثَناءً؛

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فيُجيب الله: حمِدني عَبْدي. فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] يُجيب الله تعالى: أَثنى عليَّ عبدي[1]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمَد على ما له من الكمال الذاتيِّ، والكمال المُتعدِّي للغير، أي: على كَماله بذاته وعلى كماله بفِعْله وإحسانه عَزَّوَجَلَّ فيُحمَد على الأَمْرين جميعًا، أمَّا غيره فلا يُحمَد إلَّا على فِعْله إنْ كان فِعْله ممَّا يُحمَد عليه، أمَّا حَمْدٌ للذات نفسِها فهذا لا يَكون إلَّا لله تعالى.

فمثَلًا إذا حَمِدْنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما لَه من صِفات الكَمال؛ كالسَّمْع والبصَر والعِلْم والقُدْرة والعظَمة وما أَشبَهها، فهذا حَمْدٌ على الكمال الذاتيِّ، وإذا حَمِدْنا الله تعالى على ما لَه من الإحسان والإنعام فهو حَمْدٌ على الكَمال المُتعدِّي، فإذا حَمِدْناه عَزَّوَجَلَّ على إنزال الغَيْث وإنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل ودَفْع الضَّرَر فهذا حَمْد على الكَمال المُتعدِّي.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وخَلْقًا] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليل للحَمْد؛ لأنَّ هذا الوَصْفَ يَدُلُّ على العِلِّيَّة؛ أي: يَحمَد الله تعالى نَفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لما في السَّموات وما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَشمَل العُقَلاء وغيرَ العُقَلاء؛ ولهذا أَتى بـ﴿مَا﴾ لأَجْل أن يَشمَل هؤلاءِ وهؤلاءِ؛ وإنما غُلِّبَ غيرُ العُقَلاء؛ لأنَّهم أكثَرُ من حيثُ النَّوْع، أمَّا مِن حيث العَدَد فإنَّ في ذلك شَكًّا؛ لأنَّ الملائِكة عليهم الصلاة والسلام لا شَكَّ أنهم من العُقَـلاء، وهم لا يُحصيهم إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ «مَا مِنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ»[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سماءٍ، وجُمِعت لأنها مُتعَدِّدة، فهي سَبْع سمَواتٍ، كلُّ واحِدةٍ فوق الأُخرى، وهي مَأخوذة من السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ والرِّفْعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أُفرِدَت، لكنَّ المُراد بها الجِنْس فتَشمَل الأَرَضين السَّبْعَ؛ لأن الأَرَضين سَبْع بصريح السُّنَّة، وسَبْع بظاهِر القُرآن، فهي سَبْع بصريح السُّنَّة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٢]، وبظاهِر القُرآن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإن المِثْليَّة هنا قطعًا ليست بالصِّفة فتكون بالعَدَد.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وَخَلْقًا]، يَعنِي: أنه هو الذي خلقَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو المالِكُ لها المُدبِّر، ولو قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتَدبيرًا) لكان أَبْيَنَ، وإن كانت كلِمة [مُلْكًا] تَتضَمَّن التدبير.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له ما في السَّمَوات والأرض خَلْقًا فلم يَخلُقْها إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، ومُلْكًا فلا مالِكَ لها إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، وتَدبيرًا فلا تَدبيرَ لأَحَدٍ فيها على وجه الإطلاق إلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كالدُّنْيا يَحمَده أَوْلياؤُه إذا دخَلوا الجَنَّة].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا**»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ هنا خَصَّ الحَمْد في الآخِرة مع أنه محمودٌ في الدُّنيا والآخِرة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ ثانية: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص:٧٠]، لكنَّه ذَكَر ذلك؛ لأنَّ ظُهور حَمْده في الآخِرة أَبيَنُ وأَوْضَحُ، فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِر حَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَكفُر به، ولا يَرَى إلَّا أنَّ هذه الدُّنيا طبيعة تَتَفاعَل بذاتها وليس لها مُدبِّر، ومَنِ اعتَقَد هذا الاعتِقادَ فهل يُمكِن أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؟ أبدًا! لا يُمكِن حتى لو رَأَى الخَيْر واندِفاع الشَّرِّ فإنَّه لا يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا يُقِرُّ به، لكِن في الآخِرة لا يُمكِن لأحَدٍ إلَّا أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ، فالحَمْد في الآخِرة لله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّه أيضًا في الآخِرة لا أحَدَ يُحمَد إلَّا النادِر، قال الله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، أمَّا بقية الناس ممَّن لم يَحمَدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهم ليس لهم حَمْد في الآخِرة، فأنت في الدُّنيا تَحمَد من يُحسِن إليك لكن في الآخِرة لا تَحمَد صديقَكَ ولا صاحِبَكَ، اللهمَّ إلَّا أن يَكون ذلك بعد دُخول الجَنَّة فرُبَّما.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ كالدُّنْيا]، يَعنِي: كما أنَّ له الحَمْدُ في الدنيا، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التَّقدير يَقول: إنه حُذِف الشِّقُّ الآخَر لدَلالة السِّياقِ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، يَعنِي: والبَرْدَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَحْمَدُهُ أَوْلِيَاؤُهُ إِذَا دَخَلُوا الجَنَّةَ]؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر:٧٤]، ولكِنَّ الصحيحَ أنَّه يَحمَد حتى على جزائه الكافِرين؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخِر سُورة الزُّمَر لما ذكَر سَوْق أهل النار إلى النار وأهل الجَنَّة إلى الجَنَّة، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، فإن الله تعالى يُحْمَد على كَمال عَدْله وكَمال فَضْله، ومُجازاته لأهل النار من بابِ العَدْل فيُحمَد عليه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ]، وهذا فيه قُصور؛ لأنَّه حَكيمٌ في شَرْعه وفِعْله أيضًا؛ الذي هو القَدَر، فليسَتِ الحِكْمة خاصَّةً بالفِعْل، بل حتى في الشَّرْع الذي يَكون بكلامه فإن الشَّرْع هو الوحيُ وهو كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس فِعْلًا له، بل هو كلامه، وكذلك فِعْله وهو حَكيم فيه، والحِكْمة مَأخوذة من الإِحْكـام وهو الإِتْقان؛ ولهذا يُقال في تَفسيرها: إنَّها وَضْع الشيءِ مَوضِعَه، وهذا هو الإِتْقان، ولكِنْ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ له مَعْنيان: الحاكمِ والمُحكِم؛ لأنَّها مَأخوذةٌ مِنَ الحُكْم ومن الإِحْكام، وأنَّ حُكْم الله تعالى نَوْعان: حُكْم شَرْعيٌّ وحُكْم كَوْنيٌّ، وأنَّ الحِكْمة نوعان أيضًا: صُورية وغائِيَّة.

فالصُّورية: بمَعنى أن كون هذا الشيءِ على هذا الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة.

والغائِيَّة: بأن الغاية من هذا الشيءِ حِكْمةٌ يُحمَد الله تعالى عليها.

فمَثَلًا كونُ الصـلاة على هذا الوجهِ والصيـام على هذا الوجهِ والوضوءِ على هذا الوجهِ؛ هذه في الأُمور الشَّرْعية، وكذلك في الأُمور الكَوْنيَّة؛ كون خِلْقة الإنسان على هذا الوجهِ والشمسِ والقمرِ وما أَشبَـه ذلك؛ هذه حِكْمة صُوريَّة، بمَعـنَى: كونُ الشَّيْءِ على هذه الصورةِ المُعيَّنة هذا لا شَكَّ أنه مُوافِقٌ للحِكْمة، ثُمَّ الغاية من ذلك الشيءِ حِكْمةٌ أُخرى.

وتكون هذه الحِكْمةُ الصُّوريةُ والغائِيَّة في الشَّرْع وفي القَدَر، وإذا ضَرَبت اثنَيْنِ في اثنَيْنِ تَكون أربعةً:

١- حِكْمة غائِيَّة في الشَّرْع. ٢- حِكْمة صُورية في الشَّرْع.

٣- حِكْمةٌ غائِيَّةٌ في القَدَر.   ٤- حِكْمة صُورية في القَدَر.

وكُلُّ ذلك ثابِت لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا آمَن الإنسان بهذا اطمَأَنَّ إلى أحكام الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، ولم يَنقَدِح في ذِهْنه أيُّ اعتِراض؛ لأنَّه يَعلَم أنَّ هذا صادِرٌ عن حِكْمـة، وإذا عَلِم أنَّه صادِرٌ عن حِكْمة فإنه لا يَبـقَى في قلبه شَكٌّ من أنَّ هذا هو عيْنُ الصواب، وهو الذي تَقتَضيه الحِكْمة؛ وبهذا يَطمَئِنُّ الإنسـان إلى شريعة الله تعالى، ويَطمَئِنُّ الإنسان أيضًا إلى قدَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَعلَم أن هذا هو الصوابُ الذي لا يَجوز غيرُه.

و(حَكِيمٌ) بمعنى حاكم فهو إذا صيغة مبالغة (فعيل)، وإذا كان (حكيم) من أحكم فهو بمعنى محكم وفعيل تأتي بمعنى مفعل ومنه قول الشاعر[1]:

أَمِـنْ رَيْحانَـةَ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ   يُـؤَرِّقُني وَأَصْـحَابِي هُجُـوعُ

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِخَلْقِهِ]، و(الخبير) معناها: ذو الخِبْرة وهي العِلْم ببواطِن الأُمور، ومنه سُمِّي الزارع خبيرًا؛ لأنَّه يَستُر الحَبَّ بالحَرْث، وهل يُنافي ذلك العِلْمَ بظواهِر الأمور؟ لا، بل إنَّه يُؤيِّده لأنَّ الذي يَعلَم ببواطن الأمور من بابِ أَوْلى أن يَعلَم بظواهِرِها، والحِكْمة دائِمًا يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بالعِزة وبالعِلْم، وهنا قُرِنت بالعِلْم الذي يَتضمَّنه الخِبْرة وإنما يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بذلك ليَتبيَّن أنَّ حِكْمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَبنيَّة على عِلْمه وأنَّه إذا تَراءَى لك أن هذا الشيءَ ليس بحِكْمة فذلك لنُقْصان عِلْمك، وإلَّا ولو كان عندك عِلْمٌ وفَهْمٌ لعَرَفت أنَّ الحِكْمة فيما شرَعَه الله عَزَّوَجَلَّ وفيما قدَّره.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبوتُ الحمد الكامِل لله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخِرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الحَمْدَ الذي ثبَت له هو أَهْل له؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ اللَّام -كما تَقدَّم- للاستِحْقاق والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ثناء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نَفْسه لأَجْل مَصلَحة العِباد؛ لأننا نحن لا نَستَطيع أنَّ نُثنِيَ على الله أو نُحصِيَ ثَناءً عليه؛ فإذا حَمِد الله نَفْسَه فهذا من مَصلَحَتِنا؛ لأنَّه يُعلِّمنا عَزَّوَجَلَّ كيف نَحمَده، وكيف نُثنِي عليه؛ وهو أهلٌ لأن يَمدَح نَفْسَه عَزَّوَجَلَّ ويُثنِيَ عليها لَمصلَحة عِباده، وإلَّا فهو في غِنًى عن كونه يُظْهِر لنا من صِفات الكَمال ما يُظْهِر، ولكن هذا من أَجْل مَصلَحَتنا.

وهذه الفائِدةُ قد تكون مَبنِيَّة على سُؤال مُقدَّر: كيف يُثنِي الله تعالى على نَفْسه؟ وهل مَدْح الشَّخْص نَفْسَه يُعتبَر مَنقَبةً أم لا؟

فالجوابُ: أن يُقال: إنَّ الله تعالى يَمدَح نَفْسَه لا لحاجته إلى أن نُثنِيَ عليه أو أَنْ نَعرِف كماله؛ لأنَّه الكامِلُ، لكن من أَجْل مَصلَحَتِنا، إذ إننا لا نُحصِي ثَناءً عليه، ولا نَعرِف ماذا نُثني به عليه إلَّا عن طريق وَحْيه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عموم مُلْك الله تعالى؛ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حَمِد نَفْسَه على عُموم مُلْكه، وقد يَحمَد نَفْسَه على فِعْله مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وقد يَحمَد نَفْسه على شَرْعه، مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾... ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ؛ يَعنِي: أَكثَرُ من واحِدة؛ لقَوْله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومِن أَدِلَّة أُخرى قد ثَبَت أنها سَبْع، وكذلك الأَرْض.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظهور كَمال الله عَزَّوَجَلَّ يوم القِيامة؛ أَظهَرَ ممَّا يَكون في الدُّنيا؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فالمُلْك عامٌّ، وظهور الحَمْد جَلِيًّا واضِحًا يَكون في الآخِرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ثُبوت البَعْث؛ لقوله تَعالى: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

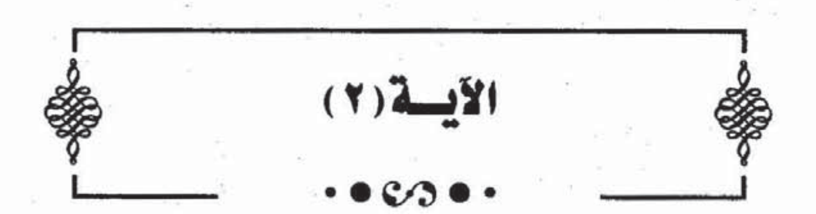
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عُموم عِلْم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ يُؤخَذ مِن قَوْله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ وما جاء مِن التَّفصيل بعدها؛ لأنَّ الخَبير هو العالِم بالبَواطِن، والعالِم بالبَواطِن عالِم بالظَّواهِر.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات هَذَيْن الِاسْمَين الكَريمين لله عَزَّوَجَلَّ، وهُما: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات حُكْم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الكَونيِّ والشَّرْعيِّ، وإثباتُ حِكْمته المُتعَلِّقة بالكون والمُتعَلِّقة بالشَّرْع.

ويَتفرَّع على هذه القاعِدةِ وجوبُ التَّسليمِ لقَضائه الكونيِّ والشَّرْعيِّ بحيثُ لا نُورِد أيَّ اعتِراضٍ؛ حتى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكْمة فإنَّه يَجِب أن نَتَّهِم عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبَت أنه عَزَّوَجَلَّ حكيم في الحُكْمين الكونيِّ والشَّرْعيِّ لزِمَ من ذلك التَّسليمُ للقَضاء الكونيِّ والشَّرْعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكْمة، لكِنَّ هذه الحِكْمةَ قد تَخفَى علينا.

• • ۞ • •



ثُمَّ فصَّل شيئًا من عِلْمه:

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢].

•••

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كَمَاءٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَبَاتٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ لَهُمْ] هذا من باب التَّفصيل.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَا﴾ اسم مَوصول يُفيد العُموم، و﴿يَلِجُ﴾ بمَعنى: يَدخُل، فكُلُّ ما يَدخل في الأرض فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلَمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَمَاءٍ] الماء يَدخُل إلى الأَرض ويَخرُج منها، فإذا أَنزَل الله عَزَّوَجَلَّ الماء من السَّماء أَدخَله في الأرض يَنابيعَ، وإذا أَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَخرُج خرَج بآلة أو بغير آلة.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَغَيْرِهِ] كالأموات وغيرهم؛ كالأَشياء التي لها جُحور في الأرض، والنَّبات أيضًا وبُذورها أيضًا، كلُّها داخِلة في الأرض.

المُهِمُّ: أن ما يَلِج في الأرض لا يُحصَى أَصنافه فضلًا عن أفراده وهو واسعٌ

جِدًّا، والله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمه حتى الذَّرَّة التي تَدخُل في جُحْرها يَعلَمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنبَاتٍ وَغَيْرِهِ] فالنَّباتُ واضِح؛ و[غَيْرِهِ] كالماء والمعادِن والحَيوانات التي تَنتَشِر في الأرض، ومن ذلك الإنسانُ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] إِخْراج وإِدْخال، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ] كيف يَنزِل من السماء الرِّزْق؟ هل تَبقَى في البيت كلَّ يَوْم ويَأتيك التَّمْر والثِّياب ويَنزِل من السماء؟

الجوابُ: لا ولكن الرِّزْق يَكون بالمَطَر مثلًا، يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المَطَر فتُنبِت الأرضُ؛ ويَخرُج منها الماء والمَرعَى، قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٣٢]، وغير ذلك أيضًا: يَنزِل أَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، وتَنزِل أيضًا الملائِكة، وتَنزِل الشُّهُب تُرمَى بها الشياطينُ، وأشياءُ كثيرةٌ من هذا، الله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمها.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ]؛ هنا (يَعْرُج) بمَعنى يَصعَد و(يَعرُج) تُعدىَّ بـ(إلى) كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وهنا قال: (يَعرُجُ فيها) والنَّحويُّون اختَلَفوا في مِثْل هذا؛ فمِنهم مَن قال: إنَّ الحَرْف بمَعنًى يُناسِب الفِعْل؛ يَعنِي: أَنْ يُجعَل حرفٌ بمَعنَى حرفٍ آخَرَ يُناسِب الفِعْل؛ فمَثَلًا يَقول: (في) بمَعنَى (إلى)، ومِنهم مَن يَقول: بلِ الحَرْف باقٍ على

مَعناه الأصل، ويُضَمَّنُ الفِعْلُ مَعنًى يُناسِب ذلك الحَرْفَ، وهذا مَذهَب البصريين فيقولُ: ﴿يَعْرُجُ﴾ مُضَمَّنٌ مع مَعناه الظاهِر -وهو العُروج- معنى الدُّخول؛ يَعنِي: يَعرُج فيَدخُل فيها، ليس المُرادُ ما يَعرُج فقط ولا يَدخُل، وسَبَق لنا في مُقدِّمة التفسير لشيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذا المَذهَبَ هو المَذهَبُ الصحيح المحقَّقُ؛ وهو أن نُضمِّن الفِعْل معنًى يُناسِب الحرف؛ لأنَّ هذا التَّضمين يجعَل للفِعْل معنيَيْنِ: أحدُهما: المعنى الظاهِرُ من اللَّفْظ، والثاني: المَعنَى الذي تَضمَّنه؛ ليُناسِب الحَرْف الذي تَعلَّق به.

ويَظهَر لك ذلك جَلِيًّا في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، ومَعلومٌ أننا لا نَشرَب بالعَيْن إذ ليست بآلة للشُّرْب، ويَرَى بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن نَجعَل الباء بمَعنى (مِنْ) أي: يَشرب منها؛ ويَرَى آخَرون أننا نُضمِّن (يَشرَب) مَعنى (يَروَى) فإذا ضمَّنَّا نَستَفيد فائِدتَيْن:

الأُولى: الشُّرْب.

والثانية: والرِّيُّ.

ولكن إذا قُلْنا: إنَّ الباء بمَعنى (مِنْ) لم نَستَفِد هذه الفائِدةَ.

فالمُهِمُّ: أن المَذهَب الصحيح هو أننا نُضمِّن الفِعْل مَعنًى يُناسِبُ الحَرْف، ولا نَجْعَل الحَرْف بمَعنَى حَرْفٍ آخَرَ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لَهُمْ] وهذا أيضًا من التَّخصيص بلا دليلٍ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لم يَذكُر مُتعلَّقها، والمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: [بِأَوْلِيَائِهِ]

فعليه يَكون أعداؤُه لا رحمةَ لهم على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أيضًا لأَوْليائه؛ فأَعداؤُه لا مَغفِرةَ لهم، ولكنَّ الصحيح: العُموم؛ لأنَّ هذين الِاسْمَيْن مُطلَقان فيَبقَيان على إطلاقهما؛ فهو رحيم حتى بأعدائه، فالكافِر قد أَعطاه الله تعالى صِحَّة ورِزْقًا من اللِّباس والطَّعام والشَّراب والمَسكَن والزوجة والأَهْل، وكلُّ هذا رحمةٌ، لكنها رحمةٌ عامَّةٌ، يَعنِي: أنها لا تَكون خاصَّةً كرَحْمة المُؤمِنين.

والمَغفِرة أيضًا يَستَحِقُّها مَن تاب من عَداوته لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا تاب فهو وَلِيٌّ من أَوْلياء الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يَكون في الإنسان عَداوة ووِلايةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، وهم مُستَحِقُّون لمَغفِرة الله عَزَّوَجَلَّ.

إذَنْ: فكَلِمة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ عامَّةٌ؛ لأنَّها تَختَصُّ بالفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرحوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من الأساليب البلاغية: الإجمالَ ثُمَّ التَّفصيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ إلى آخِره، وفائِدة هذه الطريقةِ البَلاغية هي: أن الشيءَ إذا جاء مُجمَلًا تَشوَّفَتِ النُّفوس إلى تَفصيله، فجاء التَّفصيلُ وارِدًا على نُفوسٍ تَتطَلَّع إليه، فإذا ورَد التَّفصيلُ إلى نُفوس تَتطَلَّع إليه كان أَوْقعَ في النَّفْس وأَرسَخَ في القَلْب.

فلو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحةَ شيءٌ عَظيم ما دَرَيْتَ؟ البارِحة الساعة الواحِدة من الليل حدَث أمر عظيم؛ ما عَلِمْت؟! فتَتَشَوَّف إلى هذا وتَتطَلَّع إلى هذا الشيءِ العَظيم.

لكن لو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحة مثلًا أن رُمِيَ بنَجْم فاستَنار نورًا عظيمًا، على

كلِّ حال تَقبَل هذا الخبَرَ، لكن ليس كالأَوَّل؛ لأنك في الأَوَّل ستَقول: ما هذا الشيءُ العظيمُ؟ تَقول: شيء عظيم، ما هذا الشيءُ؟! أَخبِرْني ما هذا الشيءَ؟ حتى يَرِدَ على قَلْبك وقد تَشَوَّفْت إليه كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمام تَصرُّف الله عَزَّوَجَلَّ في مَخلوقاته؛ هذا يَلِج، وهذا يَدخُل، وهذا يَنزِل، وهذا يَعرُج؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: من فَوائِدها -وهي فائِدة بَلاغِيَّة-: البَداءةُ بما يُماسُّ الإنسانَ وإن كان غيرُه أشرَفَ منه؛ لأنه تَحدَّث عمَّا يَلِجُ في الأرض وما يَخرُج منها قبل التَّحدُّث عمَّا يَنزِل من السَّماء وما يَعرُج فيها، وهذه الفائِدةُ بِناءً على أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، وهل هذا مُسلَّمٌ؟

الجوابُ: هذا فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وفيه جدَلٌ كثير، منهم مَن يَرَى أنَّ السماء أَشرَفُ ويَقول: إنَّ السماءَ لو لم يَكُن فيها إلَّا المَلائِكةُ المُقرَّبون، وهي جهة عُلُوٍّ والسَّماء فيها أيضًا الله عَزَّوَجَلَّ فوقَها، ومنهم مَن يَرَى أن الأرض أَشرَفُ ويَقول: لأنَّها خُلِق منها أَفضَلُ المَخلوقات وهمُ الأَنبياءُ والرُّسُل، فهي أَشرَفُ.

وهذا النِّزاعُ وإن كان نِزاعًا قد يُقال: إنه مِنْ فُضول العِلْم، لكنه على كلِّ حال في أوَّلِ وَهْلة يَرَى الإنسان أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، ولكن ذُكِرَتِ الأرضُ هنا لأنها تُماسُّنا أكثَرَ ونَعرِف عنها أكثَرَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الرحمة والمَغفِرة لله عَزَّوَجَلَّ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وهنا قدَّم (الرَّحيم) على (الغفور)، وإن كان الأكثَرُ في القرآن تَقديمَ (الغَفور) على (الرَّحيم)؛ لِما يَكون في السماء والأرض مِنَ المَصالِح والمَنافِع، والمَصالِح

والمَنافِع من آثار الرحمة، ودفعُ المَصائِب من آثار المَغفِرة؛ لأنَّ المَغفِرة: مَحْوُ الذَّنْب الذي تَزول فيه المكروهات، والرحمة: حُصول الخير.

والرحمة عند أهل السُّنَّة والجماعة: صِفة من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ، حقيقةٌ ثابِتةٌ له، وعند الأَشاعِرة يَقولون: الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإِحْسان، فيُفسِّرونها بالشيء المَفعول لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يَعنِي: بالنِّعَم أو بإِرادة النِّعَم؛ لأنهم يُقِرُّون بصِفة الإرادة؛ فيُفسِّرون الرحمة بإرادة الإِنْعام والإحسان، أو بالإِنْعام والإحسان نَفْسه.

ولكِنَّ القَوْل الصوابَ المَقطوع به هو أنْ تُجرَى نُصوص الكِتاب والسُّنَّة فيما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته على ظاهِرها، فلا نَحتاج أن نَقول: (اللائِق بالله) إلَّا على سبيل الإيضاح فَقَطْ؛ لأننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ ظاهِرها لائِقٌ بالله تعالى، وليس ظاهِرُها كما يَقول أهل التعطيل: التشبيهُ! لأنَّه لو كان ظاهِرُ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصِفاته التَّشبيهَ أو التَّمثيلَ لكان ظاهِرُ القُرآن والسُّنَّة في هذا البابِ هو الكُفرَ؛ لأنَّ مَن شبَّهَ الله تعالى بخَلْقه فقد كفَرَ، حيث كذَّب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ومحالٌ أن يَكون ظاهِرُ الحَقِّ باطِلًا وكُفْرًا.

ولهذا إذا قُلْنا: إنَّ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصفاته تُجرَى على ظاهِرها اللائِق بالله تعالى؛ فهذا مِن باب الإيضاح، وإلَّا فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين -الذي هو عندنا أَيقَنُ من الشمس-: أنَّ ظاهِرَها هو ما يَليق بالله تعالى، فلا حاجةَ إلى التَّقييد به، لكنَّنا قد نُقيِّده على سبيل الإيضاح فَقَطْ.

و(الرَّحمة) هل هي صِفةُ كَمالٍ من حيثُ هي؟ بقَطْع النَّظَر عن مَوصُوفها أو صِفةُ نَقْص؟

الجوابُ: هي صِفة كَمالٍ في الواقِع، حتَّى الرَّحمة في المخلُوق صِفة كمالٍ له، وعجبًا مِن هؤلاءِ الذِين يُنكرونها ويَقولون: إنَّ الرَّحمة تدلُّ على رِقَّةٍ ولِينٍ ومَا أشبَه ذَلِك، ونَقول: الرِّقَّة واللِّين في مَوضعِها كمالٌ، والغِلظة والشِّدة في مَوضعِها كمالٌ، وفي ذَلِك يَقول المتنبيُّ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى[1]

النَّدَى: العَطاء والبَذْل، وهو حِكْمة؛ يَقول: وَضْع النَّدى في مَوضِع السَّيْف مُضِرٌّ بالعُلا والأَخْلاق؛ لأنَّ الذي يَستَحِقُّ السَّيْف أَحسَن ما نَضَع له السيفُ؛ فلو أنَّ مُجرِمًا مُفسِد في الأرض أَمسَكْناه وقَدَرْنا عليه نَقول له: (هذه الفِلَّة لكَ، وهذه السَّيَّارةُ لكَ، وهذا المُستَوْدَعُ المَملوء بالخَزائِن الذهَب والفِضَّة لكَ؛ لأنك مُجرِم)؛ هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: لَيسَت حِكْمةً.

(كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى)، وإنسان صاحِب خَيْر وإحسان ومُستَحِقٌّ لأن يُكرَم، فجِيءَ به ووضَعْناه على نِطَع القَتْل؛ قلنا: سنَقتُلُك الآنَ؛ لأنَّك مُحسِن. هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: ليست بحِكْمة.

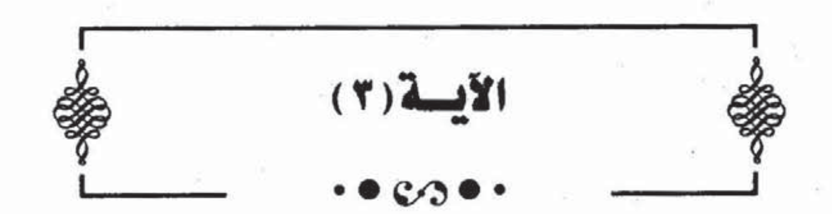
فهذا البَيْتُ من أَعظَمِ ما يَكون من أبيات الحِكْمة والمُتنبِّي مَعروف بأنه حَكيم الشُّعَراء.

فنَقول: إن الرَّحْمة صِفة كَمال من حيثُ هي هي، فإذا أُضيفَت إلى الله عَزَّوَجَلَّ صارت أَكمَلَ وأَكمَلَ.

• • ۞ • •

---

(١) الألفية (ص:٤٥).



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٣].

•• ●●

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بالله عَزَّوَجَلَّ وبقُدْرته وبحِكْمته، قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل قالوا هذا اللَّفظَ أَمْ قالوا مَعنَى هذا اللَّفظِ؟

الجوابُ: قالوا هذا اللَّفظَ؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما نُقِل عن الغير فإنَّه مَنقول بنَصِّه وفَصْله، فهُمْ قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، وقالوا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وتَنوَّعَت عِباراتُهم في إِنْكار القِيامة هم قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ يَعنِي: لا يُمكِن أن تَأتينا الساعة مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]، فكذَّبوا بذلك قولَ الله تعالى مُستَنِدين إلى استِبْعاد عُقولهم أن تَرجِع هذه العِظام النَّخِرة حتى تَعود إنسانًا حَيًّا، وما عِلموا أنَّ الذي بدَأَ الخَلْق قادِرٌ على إعادته؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، فشُبْهَتُهم إِذَنْ في هذا الإنكارِ هي: الاستِبْعاد فقط؛ هذه واحِدة.

ثانيًا: يَقولون إذا كنتم صادِقين في أننا سنُبعَث فأْتُوا بآبائِنا، ابعَثُوهم لنا، وهذا

تحدٍّ في غير مَوضِعه؛ لأنَّ الرُّسُل لم تَقُل لهم: إنكم تُبعَثون الآنَ. بل إذا انتهَت الخلائِقُ ومات الخَلْق كلُّهم بُعِثوا، فهذا التَّحدِّي في غير مَوضِعه، هذا التَّحدِّي في مَوضِعه لو كانَتِ الرُّسُل تَقول: إنَّ الناس سيُبعَث أوَّلُهم الآنَ معَ وجود آخِرهم صحَّ أَنْ يُقال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الدخان:٣٦] أمَا وقد قالوا: إنهم سيُبعَثون بعد أن يَفنَى الخَلْق كلُّه ممَّن سيُبعَث، فهذا ليس فيه التَّحدِّي.

إِذَنْ: شُبهَتُهم الاستِبْعاد، والتَّحدِّي في غير مَوضِعه حيث قالوا: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه يُؤتَى بها لإِبْطال النَّفْي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ أمَر الله عَزَّوَجَلَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَصدَع بخِلاف ما قالوا مُؤكِّدًا ذلك بالقَسَم واللَّام والنُّون، فـ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ جوابٌ: لإِبْطال النَّفيِ و(رَبِّي): قَسَم، واللام للتَّوكِيد، والنون أيضًا للتَّوكيد فالجُمْلة مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات.

وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أيِ: الساعةُ، وهذا أَحَد المَواضِع الثلاثة التي أَمَر الله به نَبيَّه أن يُقسِم عليها.

والمَوْضِع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

والمَوْضِع الثالِث: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وإنَّما أَمَر الله تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على ذلك؛ لأَهمِّيَّته وعِظَمه؛ ولأنَّه مُقتَضى البَلاغة؛ فإنَّ مُقتَضى البَلاغة أنَّ المُنكِر يُؤتَى له بالكَلام مُؤكَّدًا بمُؤكِّدٍ واحِد

أو اثنين أو ثلاثة حسبَ ما يَقتَضيه المَقال؛ ولأَهَمِّيَّة هذا المَوْضوعِ أَمَرَ الله نَبيَّه مُحمَّدًا ﷺ أن يُقسِم عليه.

فإن قُلتَ: ما فائِدةُ القَسَم أمام مَن يُنكِر، لأنَّ مَن أنكَرَكَ بدون قَسَم أنكَرَكَ مع القَسَم؟

فالجَوابُ: من وَجْهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن هذا هو مُقتَضى اللِّسان العَرَبيِّ، أن الأَخْبار تُؤكَّد بأنواع المُؤكِّدات.

الوجهُ الثاني: أن التَّأكيد يَدُلُّ على أن المُتكلِّم جازِم بهذا المُقسَم عليه جَزْمَه بما أَقسَم به؛ فكما أننا جازِمون بالله بوُجوده وكَماله، فنحن جازِمون أيضًا بما أَقسَم عليه وهو: إتيان الساعة.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بِالجَرِّ صِفةٌ، وَالرَّفْعِ خَبَرُ مُبْتَدَأ، وَفِي قِرَاءَةٍ: (عَلَّامِ) بِالجَرِّ] ففيها إِذَنْ: ثلاثُ قِراءات: ﴿عَٰلِمِ﴾ مَرفوعة ومجرورة، و(علَّام) مجرورة فَقَطْ.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ مُناسَبةُ ذِكْر هذه الصِّفةِ لإثبات القِيامة ظاهِر؛ لأنَّ قيام الساعة مِن عِلْم الغَيْب، والذي أَخبَر به هو (علَّام الغَيْب)، فإذا صدَر هذا الخَبَرُ من عالِمِ الغَيْب وجَبَ علينا قَبولُه؛ ولهذا الخَبَرُ عن المُستَقبَل إذا صدَر من جاهِلٍ لا يَدرِي فإننا نَرفُضه، وإذا صدَر من عالِمٍ فإننا نَقبَلُه.

وعِلْم الله تعالى الغَيْبَ أَمْرٌ معلوم حتى عند الكُفَّار، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخبِر بأَشياءَ ثُم تَقع ويُشاهِدونها، وهذا شيء لا يَمتَرون فيه؛ فلهذا وَصَفَ الله تعالى نَفْسَه

بهذه الصِّفةِ بعد إثبات إِتْيان الساعة؛ لأَنَّه أمرٌ معلومٌ عِنْدهم، فإذا صدَر هذا الخَبَرُ من عالمِ الغَيْب الذي يُقِرُّون بعِلْمه للغَيْب صار الخَبَرُ مُؤكَّدًا واقِعًا.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [بالجَرِّ صِفَةٌ] لـ(رَبِّ)؛ لأن (رَبِّ) مجرور فنَقول في إعرابه: الواو حَرْفُ قَسَم وجَرٍّ، (رَبِّي) مُقسَمٌ به مجرور بكَسْرة مُقدَّرة على ما قبل ياء المُتكلِّم منَع من ظُهورها اشتِغال المَحَلِّ بحرَكة المُناسَبة، فليسَتِ الكَسْرة هذه كَسرةَ الإِعْراب، وإنما قُلنا ذلك لأنه رُبَّما يَرِد علينا مِثْلُ قَوْلنا: (ربِّي الله) ليسَتْ مَجرورةً، وهذه الكَسرةُ من أَجْلِ المُناسَبة، فالكَسْرة إِذَنْ ثابِتة قبل أن يَدخُل حرفُ الجَرِّ؛ فلذلك تكون الكَسْرة الإِعْرابية مُقدَّرة على ما قَبلَ ياء المُتكلِّم.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ صِفة لـ(رَبِّ)؛ وصِفة المَجرور مجرور.

أمَّا بالرفع فيَكون خَبَرَ مُبتَدَإٍ؛ يَعنِي: (هو عالمِ الغَيْب) والجُمْلة كلُّها: إمَّا حال من (رَبِّ)، وإمَّا استِئْنافية لبيان اتِّصاف الله تعالى بهذا العِلْمِ.

و(الغَيْب): ما غاب عن الإنسان وهو أمرٌ نِسْبيٌّ، لكن الغَيْب المُطْلَق لا يَكون إلَّا لله، أَقولُ: (إن الغَيْب أَمْر نِسْبيٌّ)؛ لأَنَّه قد يَغيب عنك ما لا يَغيب عن غَيْرِك فصاحِب الدُّكَّان الذي عند المَسجِد الآنَ تَصرُّفه الذي يَتصَرَّفه الآنَ بالنسبة لنا غَيْب، لكن بالنِّسبة لَمِن عِنده شهادة، فالغَيْب أمرٌ نِسبيٌّ؛ ولذلك الخَبَرُ عن الشيء الواقِعِ هل يُعتبَر من الغَيْب الذي يَختَصُّ به الله تعالى؟

الجوابُ: لا؛ لأَنَّه يَعلَمه مَن وقَع عِنْده وحدَث عِنْده، لكن الغيب المُستَقبَل هذا هو الذي من خَصائِص عِلْم الله؛ ولهذا مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستقبَل صار مُكذِّبًا لقَوْل الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

ومَنِ ادَّعى عِلْم غَيبٍ واقِعٍ فهذا الغَيْبُ ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَعلَمه مَن شاهَدَه، ولا يَعلَمه مَن لم يُشاهِدْه؛ فغَيْب الله تعالى في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يَشمَل الأَمْرين أو يَشمَل المُستَقبَل فقط؟

الجوابُ: يَشمَل الأَمْرين؛ لأنَّ كُلَّ ما حدَث ولو في أزمانٍ بَعيدة جِدًّا فالله عالِمٌ به، وكل ما سيَحدُث فالله عالِمٌ به، فالغَيْب المُطلَق للواقِع والمُنتَظَر هذا من خصائِصِ عِلْم الله تعالى، والغَيْب المُقيَّد بالواقِع هذا ليس من خَصائِص عِلْم الله تعالى، بل هو حاصِلٌ لكل مَن شاهَدَه.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْهُ﴾] يَعنِي عن الله [﴿مِثْقَالُ﴾ وَزْنُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ إلى آخِره؛ صِفة من الصِّفات السَّلْبية، و﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ من الصِّفات الثُّبوتية، فالصِّفات الثُّبوتية -كما تَقرَّر- كلُّها صِفاتُ كَمالٍ، والصِّفات السَّلْبية تَأكيد لصِفاتِ الكَمال؛ لأنها تَتضمَّن صِفة الكَمال المَنفيَّ عنها هذا العَيْبُ، فالصِّفات السَّلْبية يَعنِي النَّفي تَأكيدٌ للكَمال؛ لأنها تَتضمَّن ثُبوت الصِّفات الكَمالية الخالية من هذه الصِّفةِ التي تُعتبَر صِفةَ نَقْص.

ولهذا ما من نَفْيٍ في صِفات الله إلَّا وهو مُتضمِّن لإثبات كَمال ضِدِّه، فمَثَلًا: إذا قلنا: لا يَعزُب عن عِلْم الله شَيءٌ فذلك لكَمال عِلْمه، وإذا قُلْنا: إنه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّة أيَّام ولم يَمَسَّه لُغُوب فذلك لكَمال قُدْرته، وعلى هذا فقِسْ.

فكُلُّ صِفات النَّفيِ المُضافة إلى الله يُراد بها إثباتُ كَمال الضِّدِّ؛ كأنه وصَفَ الله تعالى بالكَمال الخالي عن هذا النَّقْصِ.

وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها صِغار النَّمْل [أَصْغَرِ نَمْلَةٍ] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من النَّمْل ما هو صغير وما هو كبير، ونحن في عُرْفِنا على خِلاف ذلك، عندنا أن النَّملةَ نَوْع مُعيَّن من الذَّرِّ، وعندنا الذَّرَّة الصِّغار، وعندنا شيء يُسمُّونه نَمْلة؛ والنَّمْل مَعروف أنه الذي أَكبَرُ من الذَّرِّ قليلًا ودون القَعْرِ.

يَقولون: إن هذا القَعْرَ من أَعْنَدِ ما يَكون، يُضرَب بها المَثَلُ في العِناد؛ لأنك تُزَحْزِحها عنك، ولكنها ترجِع، ثُمَّ إذا أَمْسَكَتْ ثَوبَك أو جِلْدك ما يُمكِن أن تَنفَكَّ، تَنقَطِع ولا تَنفَكُّ -سُبحان الله تعالى-، ومن عِنادها أنها إذا أَمسَكَتْ في الثَّوْب يَعنِي: عَضَّتْه بقَرْنيها أو الجِلْد ما تَزَحْزَح أبدًا حتى تَنقَطِع، وفيها أيضًا يُسمُّونها عندنا القِعْس، ولكن هذه أنواع لجِنْس في الواقِع، وكلُّها تُسمَّى نَمْلًا، وكلُّها ذَرٌّ؛ ولهذا نَهيُ الرسول ﷺ عن قَتْل النَّمْل[1] يَشمَل هذا كلَّه.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن، وَهُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ] هل في هذا إثبات العِلْمِ، من قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾؟

الجوابُ: نَعَمْ فيه إثبات العِلْم؛ لأنَّه لا كِتابةَ إلَّا بعد العِلْم؛ فكِتابة المَجهول لا تُتصوَّر، فيَكون فيه فائِدة زائِدة على إثبات العِلْم؛ وهو أنَّ معلومَ الله مَكتوب في اللَّوح المَحفوظ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجَنَّة وما فيها شيءٌ واقِع يَختَصُّ بعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى، عن قتله، رقم (٣٢٢٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فنَقول له: بل نحن نَعـلَم الجَنَّة من وَجْهٍ ونَجهَلُـها من وَجْهٍ آخَرَ، فنَـعرِف الأسماء منها دون المُسمَّيات، فهذا عِلْمٌ وواقِع؛ فنَعرِف أن هناك جَنَّةً الآنَ ونارًا، وفيهما ما ذُكِر من النعيم أو من العَذاب لكن نَجهَل الحقيقة.

فلو أَخبَرَك إنسانٌ بخَبَرٍ واقِع في بلادِك مثَلًا، بل في بيتك الآنَ الذي أنت ما أنت فيه، فستَعرِف المَعنى لكن لا تَعرِف الحقيقة كما هي إلَّا إذا شاهَدْتَها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إنكار الكافِرين للبَعْث؛ لقولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنكار البَعْث كُفْرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فإن قُلتَ: ما وجهُ الدَّلالةِ؟

فالجوابُ: وَجْهُ الدَّلالة: أنه لو لا أنَّ لهذا الوَصْفِ تأثيرًا لما قاله الله تعالى بهذا الوَصْفِ، ولقال: (وقالوا لا تَأتِينا الساعةُ)، فلَمَّا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عُلِم أن هذا القَوْلَ لا يَصدُر إلَّا عن كافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَعظيم شَأْن القِيامة؛ لأَمْر الله تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على أنها ستَقَعُ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمال رحمة الله بعِباده، حيثُ أَخبَرَهم بالبَعْث وأَكَّده بالمُؤكِّدات اللَّفْظية والمَعْنوية والحِسِّيَّة أيضًا؛ لأنَّ الإيمان بالبَعْث هو الذي يَحمِل الإنسانَ على القِيام بطاعة الله؛ إذ لو لم يَكُن هناك بَعْثٌ ما عمِل الإنسان للآخِرة أبدًا.

فنَقول: إنَّ هذا دليلٌ على رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعِباد أن يُؤكِّد لهم البَعْث الذي يَكون فيه الجَزاء على العمَل مِن أَجل أن يَعملوا لهذا اليَوْمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الساعة مَوكولة إلى عِلْم الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾، فهي خبَرٌ من أَخْبار الله عَزَّوَجَلَّ الغَيْبِيَّة؛ التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا الله، والآياتُ في هذا المَعنَى -والأَحادِيثُ أيضًا- كثيرةٌ، فمَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِرٌ؛ لأنه مُكذِّب للقُرْآن والسُّنَّة وإجماع المُسلِمين.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: شُمول عِلْم الله تعالى لكُلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبات السَّمَواتِ، وأنها عِدَّة؛ لقوله تعالى: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، وهلِ الأَرْضُ كالسَّمَواتِ في العدد؟

الجوابُ: نعَمْ، كما تَدُلُّ عليه نُصوصٌ أُخرى غير هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هناك شيئًا أصغَرَ من الذَّرَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهو الواقِعُ؛ فإن في مَخلوقات الله ما لا تَكاد تَراه بعَيْنِك، ولا تَراه إلَّا بالمِجْهَر، ومع ذلك إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ -سبحان الله العظيمِ- في مِجْهَر مُكبِّر يُكبِّر الشيء مِليونَ مرَّةٍ، إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ الذي لا تَراه بعَيْنك تَجِدْ له جميع مَصالِحِه؛ أَيْدٍ، وأَرجُلٌ، وأَعينٌ، كل شيء؛ حتى الزَّغَب الذي على ظَهْره لِوِقايته تَجِده مَوجودًا، وهذا دليلٌ على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه لطيف خَبيرٌ سبحانه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اللَّوْح المَحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هذا اللَّوحَ كُتِب فيه مَقاديرُ كل شيء، الصغيرِ والكبيرِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذا الكِتابَ مُبِين؛ أي: مُفصَّلٌ لكل شيء؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ففي هذا اللَّوحِ المَحفوظِ كلُّ ما يَكون إلى يوم القِيامة، كما جاءَت بذلك السُّنَّة مُوضِّحةً هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إباحة القَسَم؛ بل وُجوبه إذا دعَتِ الحاجة إليه، نَأْخُذه من أَمْر الله نَبيَّه أنَّ يُقسِم على قِيام الساعة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ ولهذا نَجِد بعض الأئِمَّة رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذا ذكَروا حُكْم مَسألة من المَسائِل أحيانًا يُقسِمون عليها، وهذا يُوجَد في كلام الإمامِ أحمدَ(١) رَحِمَهُ اللَّهُ، ورُبَّما في كلام غَيْره، لكن لم نَطَّلِع عليه، لأنه أحيانًا يُسأَل هل تَقول بكذا وكذا؟ فيَقول: إِيْ والله. فيُقسِم على الشيء تَثْبيتًا له وتَأْييدًا، وإيحاءً بطُمَأْنينته إليه بالنِّسْبة للمُخاطَب.

وعلى هذا فيَجوز للمُفتِي أن يَحلِف على الحُكْم إذا دعَتِ الحاجة إلى ذلك، بل قد يَكون ذلك واجِبًا حَسْبما تَقتَضيه الحالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هل يُستَفاد من هذه الآيَةِ الكريمةِ أنَّ الخِطاب الخاصَّ بالرسول ﷺ يَشمَله هو والأُمَّةَ؟

الجوابُ: ليس فيها دَلالة ظاهِرة على هذا، ولكنه سبَق لنا: أن الخِطاب المُوجَّه إلى الرسول ﷺ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسْم الأَوَّل: فيه الدَّلالة الصريحة على أن المُراد به الأُمَّة؛ يَعنِي: مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: المسائل التي حلف عليها أحمد بن حنبل لابن أبي يعلى.

القِسْم الثاني: الدَّلالة الصريحة على أنه خاصٌّ بالرسول ﷺ.

القِسْم الثالِث: ما ليس فيه دَلالة ولا قَرِينة، فهذا مُختَلَف فيه عند أَهْل العِلْم، هل هذا الخِطاب المُوجَّه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَشمَل الأمَّة بمُقتَضى الصِّيغة أَمْ يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الأُسْوة.

ومِثال الذي فيه الدَّلالة على أنه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، فهذا بلا شَكٍّ خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومِثال ما قام به الدَّليلُ على العموم: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق:١] ففي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ دَلالة واضِحة على أن الخِطاب للرسول ﷺ مُرادٌ به الأُمَّة أيضًا، وما عَدا ذلك فهو كثير، فهل يَشمَل الأُمَّةَ الحُكْمُ بمُقتَضى الخِطاب، أو بمُقتَضى الأُسْوة؟

فمِنهم مَن يَقول: إنَّه يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الخِطاب لكنه وُجِّه للرسول ﷺ لأنَّه إمامُها، وأنَّ نَظيرَ ذلك أن تَقول لقائِد الجَيْش: اذهَبْ إلى الجَبْهة الفُلانية، فالمُراد اذهَبْ ومَن معَكَ ممَّن يَتبَعُك من الجُنود.

ومِنهم مَن يَقول: إنَّه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَشمَل الأُمَّة لكن الأُمَّة مأمورة بالتَّأسِّي به، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، والخِلاف في هذا قريب من اللَّفْظيِّ؛ للاتِّفاق على أنَّ هذا الحُكْم يَشمَل الأُمَّة.

إِذَنْ: لو سمِعْنا شخصًا يُنكِر الساعة؛ فهل نحن مَأمورون أن نَحلِف على ثُبوتها؟ نعَمْ، نحن مَأمورون بأن نَحلِف على ثُبوتها.

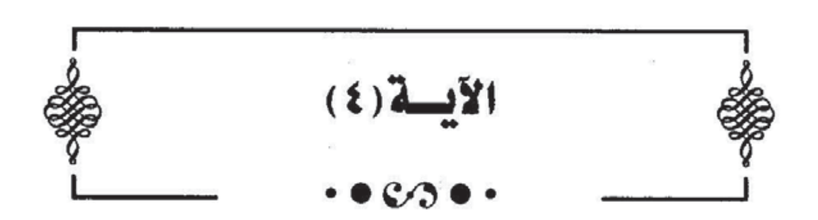
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَأكيد الحُكْم على حسب ما تَقتَضيه الحال، أو بعِبارة أَصَحَّ: تأكيد الخبَرِ على حسب ما تَقتَضِيه الحالُ.

وقد ذَكَر البلاغِيُّون أنَّ الخبَر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: إمَّا أن يُلقَى إلى خالِي الذِّهْن، أو إلى المُتَرَدِّد، أو إلى المُنكِر، فإن أُلقِيَ إلى خالي الذِّهْن؛ فإنه لا حاجةَ إلى تَأكيده، ولا يُمكِن أن يُؤكَّد حسب قَواعِد البلاغة إلَّا لنُكْتة، وإن أُلقِيَ إلى مُتَرَدِّد حَسُن تَوكيده ليَزول عنه هذا التَّردُّدُ والشَّكُّ، وإن أُلقِيَ إلى مُنكِر وجَبَ تَوْكيده، فالأَوَّلُ ابتِدائِيٌّ، والثاني طلَبيٌّ، والثالِث إنكارِيٌّ. وقد ذكَرْنا ذلك في (شرح البلاغة)(١).

وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فالخَبَر هنا نَوعُه إنْكارِيٌّ؛ لأَنَّه يُخاطَب به قومٌ مُنكِرون، فكان تَأكيدُه واجِبًا، وقد ذكَرْنا ذلك أثناء الشرح إيرادًا، وهو أنَّه إذا كان هؤلاء مُنكِرين فلا فائِدةَ من القَسَم لهم؛ لأنَّ المُنكِر للخبر سَواءٌ أَقسَمْتَ أم لم تُقسِم فلن يُصدِّقَك، وأَجَبْنا عن ذلك بأنَّ هذا هو مُقتَضى اللِّسان العرَبِيِّ، ويَدُلُّ على أن المُتكلِّم مُستَيْقِن من وقوع هذا الشيءِ كما استيَقَن من وجود المَحلوف به.

• • ۞ • •

(١) شرح البلاغة (ص:٦٨ وما بعدها).



الآية (٤)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سبأ:٤].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ لِّيَجْزِيَ ﴾ فِيهَا]، الضمير يَعود على الساعة.

وقوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ﴾ اللَّام هنا للتَّعليل، وقد علِمْنا من قَواعِد اللُّغة العربية أن حُروف الجَرِّ لا بُدَّ لها من مُتعلَّق، ومُتعلَّق هذه اللَّامِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: (لتأْتِينَّكم ليجزِيَ الذين) فهذه اللَّام للتعليل، وهي مُتعلِّقة بقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ و(يَجْزِيَ) بمَعنى: يُكافِئ أو يُثيب، والفاعِل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهَا] أشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [فِيهَا] إلى أن الجارَّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ لأنَّ الضمير (فِيهَا) يَعود على الساعةِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالقَلْب، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالجَوارِح، والإيمان إذا أُطلِق: شمِل أعمال الجَوارِح الظاهِرة، وكذلك العمَل إذا أُطلِق: يَشمَل الإيمان بالقَلْب؛ لأنَّ الإيمان بالقَلْب من أعمال القُلوب، فإذا قُرِنا جميعًا صار الإيمان في القَلْب والعمَل في الجَوارِح، فالإيمان سِرٌّ والعمَلُ عَلانية.

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا﴾ الإيمان في اللُّغة: التَّصديق، وفي الشَّرْع: التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان، وليس مُجرَّدَ تصديقٍ، بل هو التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان؛ القَبول في الأَخْبار، والإِذْعان في الطَّلَب، فيُقبَل -مثلًا-: ما أَخبَرَ الله تعالى به رسوله ﷺ، ويُقبَل: كونُ هذا الحُكْمِ فَرْضًا وكونُه تَطوُّعًا، وما أَشبَه ذلك، ويُذعَن لذلك؛ بمعنى: أنَّه يُتعبَّد لله تعالى بمُقتَضى ما آمَن به، وبمُقتَضى ما شَرَعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يَعنِي: عمِلوا الأعمالَ الصالِحاتِ، فتكون ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وَصْفًا لمَوْصوفٍ محذوف، وحَذْفُ المَنعوت جائِز إذا قامَتِ القَرينة عليه، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلّ [(١)]

ومِن حَذْفِ المَنعوت قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ [سبأ:١١] أي: دُروعًا سابِغاتٍ، فعَلى هذا تكون: ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ صِفةً لمَوْصوف محذوف؛ أي: الأَعْمال الصالِحات.

وما هي الأعمال الصالحات؟

الجوابُ: العمَلُ الصالِح؛ هو الذي جمَع بين أَمْرَيْن: الإخلاصُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمُتابَعةُ للرسول ﷺ، فإن فُقِد الأَوَّل لم يَكُن صالِحًا؛ وكان مَردودًا على العامِل؛ وإن فُقِد الثاني لم يَكُن صالِحًا، وكان مَردودًا على العامِل أيضًا.

والدليل في الأَوَّل قال الله تعالى في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، وفي الثاني قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2] أو: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[3].

فلا يُمكِن أن يَكون العمَل صالِحًا إلَّا بهذين الشَّرْطين: الإِخْلاص، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ولو أن رجُلًا أَحدَث بِدْعة من البِدَع يَتديَّن بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويَجِد مِن قَلْبه الاِطْمِئْنان إليها والخُشوع والبُكاء لكنها مُحدَثة في دِين الله تعالى هل تكون عمَلًا صالِحًا؟

الجوابُ: لا تكون، حتى وإن زُيِّن للإنسان هذا العمَلُ واطْمَأَنَّ إليه؛ فإنَّه ليس من العمَل الصالِح، فلا يَكون مَقبولًا ولا نافِعًا، بل يَأْثَم به الإنسان؛ لأنه من التَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه والتَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه نوعٌ من الاستِهْزاء بالله.

أرأَيْتَ لو أنكَ أَتيْتَ لَمِلك من المُلوك، وأَهدَيْتَ إليه قارورةً فِيها مَا يُسْتقذَر، فهل تَكون مُكرِمًا له؟

الجوابُ: لا تَكون مُكرِمًا له؛ لأنه يَكرَه هذا الشيءَ، وأَهْدِ إليه طِيبًا فلا بأسَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أمَّا أن تُهدِيَ إليه هذا الشيءَ تَتَقرَّب إليه بذلك فهذا ضِدٌّ ما تُريد وهو نَوْعٌ من الاستِهْزاء بهذا المُكرَم أو المُعظَّم.

إِذَنِ: الأَعْمالُ الصالِحاتُ؛ هي التي جَمَعت بين شَرْطين: الإخلاصُ لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ويُوجَد بعض الأَعمال ممَّا يُكرَه في الشَّرْع لكن الإنسان يَطمَئِنُّ إليه ويَرتاح له.

فنَقول: لا تَغترَّ بهذه الراحةِ وهذه الطُّمَأْنينةِ؛ فإنَّ ذلك مِن تَزيين الشَّيْطان، وعُبَّاد الأصنام الذين جعَلوها شُفَعاءَ لهم عند الله تعالى يَرتاحون لهذا، ويَرَوْن أنها واسِطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع ذلك فهي من الشِّرْك.

مِثالُ هذا: يُوجَد بعض الناس يُغمِض عَيْنَيْه في الصلاة؛ ويَقول: إنَّ ذلك أَدْعى للخُشوع، فهذا من تَزْيين الشَّيْطان؛ لأنَّ تَغميض العَيْن في الصلاة لغير سبَب مَكروهٌ وخِلافُ هَدْيِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لا يُغمِض عَيْنَيْه، ولكنه: إمَّا أن يَنظُر إلى مَوْضِع سُجوده أو إلى تِلقاءَ وَجْهه، أمَّا أنَّه يُغمِض عَيْنيه فهذا خِلاف السُّنَّة؛ ولهذا كرِهَه الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

نعَمْ، لو كان هناك سببٌ للتَّغميض كما لو كان أَمامَك شيء يُجهِر عَيْنيك، أو نُقوش تَشغَلُك فهنا التَّغميض لسبَبٍ، لا للتَّقرُّب به إلى الله تعالى، ولكن لدَفْع ما يُشوِّش عليك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه جُمْلة استِئْنافية لبيان جَزائهم؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبهَم فبيَّن هذا الجزاءَ بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، والإشارة في قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي مُبتَدَأ، و﴿لَهُم﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مُبتَدَأ مُؤخر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُملة الثانية من المُبتَدَأ والخبَر: خبَرُ المُبتَدَإِ الأوَّلِ، فعِندنا الآنَ مُبتَدآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتَدَأ و﴿لَهُم﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم لـ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، و﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُمْلة من المُبتَدَأ الثاني وخبَره في محَلِّ رَفْع خبَر المُبتَدَأ الأوَّل، والرابِط هو الضميرُ في ﴿لَهُم﴾؛ لأنَّه يَعود على المُشار إليه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البَعيد؛ تَنبيهًا على عُلوِّ مَرْتبتهم؛ لأنَّ هذا الصِّنفَ من الناس هو أَعلى طبَقات الناس: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ بها زوال المَكروه، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ به حُصول المَطلوب، (فلَهُمْ مَغفِرة) لذُنوبهم وخَطاياهم، فيَغفِر الله تعالى لهم الخَطايا والذُّنوب بأن يَتجاوَز عنهم، ويَستُرَها عليهم؛ لأنَّ المَغفِرة هي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، إذ إن اشتِقاقَها من المِغْفَر، وهو الذي يُلبَس على الرَّأْس عند الحَرْب؛ وفيه فائِدتان: سَتْر الرَّأْس؛ ووِقايته من السِّهام؛ فالمَغفِرة إِذَنْ فيها سَتْر الذُّنوب، والتَّجاوز عنها، وعدَمُ العُقوبة عليها.

وقوله تعـالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرِّزْق: بمَعنَى العَطاء، ومنه قـوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨]؛ أَيْ: أَعطُوهم، والكريم بمَعنَى الحَسَن في كَيْفيته وفي كِمِّيته، وقد أَشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى أنَّ حُسْن هذا الرِّزْق لا تَبْلُغه العُقول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]،

فثواب هؤلاءِ المُؤمنين العامِلين الصالحِاتِ أنْ تُغفر سَيِّئاتُهم وأن يُجازَوْن على عمَلهم الصالِح بالرِّزْق الكريم.

قُلْت: «الكريم هو الحَسَن في كِمِّيَّته وكَيْفيَّته»، فكِمِّيَّتُه لا تُحصَى ولا يفنَى ولا يَبِيد وكَيْفِيَّته أيضًا لا يُدرِكها القَلْب، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ ﴾ إلى آخِره؛ سبَق وقُلْنا: إن القُرآن مَثاني كما وصَفه الله تعالى به؛ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣]، و(مَثاني) هذه غير (المَثاني) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧]؛ لأن المُراد بالسَّبْع من المَثاني الفاتِحة، كما ثبَت ذلك عن النبيِّ ﷺ[1]، فالمَثانِي مَعناه: أنه تُثَنَّى فيه المَعاني؛ فغالِبًا إذا ذُكِر جزاءُ المُتَّقين ذُكِر جزاء الكافِرين، وإذا ذُكِر وَصْف الجَنَّة ذُكِر وَصْف النار، إذا ذُكِرت الأَوْصاف المَحبوبة إلى الله تعالى ذُكِرت الأَوْصاف المَكروهة إليه؛ لأنه لو ذُكِر المَطلوب فَقَطْ من أَوْصافٍ أو جَزاءٍ أَخَذَ الإنسان الرَّجاء حتى أَمِن مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن ذُكِر المَكروه من ذلك أَخذه القُنوط واليَأْس، فكان الله يَذكُر هذا ثُمَّ يَذكُر إلى جانبه الشيءَ الآخَرَ؛ حتى يَكون الإنسان سائِرًا إلى ربه بين الخَوْف والرَّجاء، لأن هذا هو الاعتِدال أن تَكون خائِفًا راجِيًا في سَيْرك إلى رَبِّك؛ لأنك إن غَلَّبت الرَّجاء كُنْت من الآمِنين مِكْرَ الله تعالى؛ لأنَّ مَن غلَّب الرَّجاء صار يَعمَل الذَّنب ويَقول: أَرجو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَغفِر لي. ويَتهاوَن بالواجِب ويَقول:

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤)، من حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَرجو الله تعالى أن يَغفِر لي، ومَن غَلَّب الخَوْف دخَل في القُنوط من رحمة الله.

وبَعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ خالَف في هذا، وقال: إنه يَنبَغي لك عند فِعْل الطاعة أن تُغلِّب الرَّجاء، لأنك قُمْت بما أُمِرْت فارْجُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثَوابه؛ لأنَّ هذا من باب إحسان الظَّنِّ بالله تعالى، وإذا كُنتَ في مَقام المَعصية فغَلِّبْ جانِب الخَوْف؛ لتَردَع نفسك عمَّا تريد أن تَفعَلَه من المَعْصية.

وأن بَعض العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ذهَب مَذهَبًا آخَرَ وقال: في حال المَرَض تُقدِّم جانِب الرَّجاء؛ لأنك الآنَ في مَقام الضَّعْف فتُغَلِّب جانب الرَّجاء وإحسان الظَّنِّ بالله، فلا تَموتَنَّ إلَّا وأنت تُحسِن الظَّنَّ برَبِّك عَزَّوَجَلَّ، وإذا كُنْت في حال الصِّحَّة فغَلِّب جانِب الخَوْف، والإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يَنبَغي أن يَكون خَوْفُه ورَجاؤُه واحِدًا فأيُّهما غَلَب هلَك صاحِبه[1].

والإنسان طبيب نفسه في الواقِع لا شكَّ أنَّك إذا رأَيْتَ نَفْسكَ تَميل إلى الباطِل فإنه يَجِب عليك أن تُخوِّفها بالله، ولا تُرجِّها؛ لأنك إن رَجَّيْتها في هذه الحالِ تُقدِم على المَعاصي.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ أفعال الله مُعلَّلة؛ بمَعنَى: أن لها عِلَّةً، يُؤخَذ من اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ لأنَّ اللَّام للتعليل، وهذا يُؤيِّد مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، الذين يَقولون: إنَّ أفعال الله تعالى مَقرونة بالحِكْمة. ومعلومٌ أن الجَهْمية -وكذلك بعض الأشاعِرة- يُنكِرون أن تَكون أَفعال الله تعالى لحِكْمة، ويَقولون: إن أَفعاله

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

لُمجرَّد المَشيئة. قالوا: لأنَّ الحِكْمة غرَض من الأَغْراض التي تَحمِل على الفِعْل والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنزَّهٌ عن الأَغْراض.

ونَقول لهم: إن هذا مُصادَمة للنُّصوص؛ ولو تَأمَّلْنا القُرآن لوَجَدْنا فيه آلاف الآيات تَدُلُّ على إثباتِ الحِكْمة لله، ثُمَّ الغرَض إن كان لَمصلَحة الغير فهو مَدْحٌ وثَناءٌ، وإن كان لحاجة المُتكلِّم ليس بها نَقْص في وَجْهٍ من الوجوه.

وقد سبَقَتِ القاعِدة الخَبيثة: الذين يَقولون: إن الله مُنَزَّهٌ عن الأَعْراض والأَغْراض والأَبْعاض، وهذا الكلام إذا سمِعْتَه تَقول: هذا كلامٌ طَيِّب!! وهم يَعنون بذلك نَفيَ أفعاله الاختِيارية؛ يَعنِي: أنه لا يَنزِل ولا يَأتي ولا يَتكَلَّم، وما إلى ذلك؛ لأنَّ هذه أعراضٌ تَحدُث وتَزول، أما عن الأبعاض فيَعنُون بذلك: نَفيَ الوجهِ واليَدين والعَيْنين وما أَشبَه ذلك؛ لأنَّ هذه أَبْعاض بالنِّسبة لنا؛ والأغراض يَعنون بذلك: نَفيَ الحِكْمة، والقُرآن يَرُدُّ قولهم هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضْلُ الإيمان والعمَل الصالِح، ووجهه: مِن تَرتُّب الثواب عليه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وما تَرتَّب عليه الثواب فهو فاضِلٌ ومَحمودٌ ومَطلوبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْق بين الإيمان والعمَل الصالِح عند الجَمْع بينهما؛ لأنه هنا ما قال: (الذين آمَنوا) فقط ولا (عَمِلوا الصالِحاتِ) فقط؛ بل جَمَع بينهما، وقد سَبَق لنا أنه إذا جُمِع بينهما صار الإيمان في القَلْب، والعمَل الصالِح في الجوارِح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى أن الإِيمان الذي في القَلْب فقَطْ لا يَكفِي عن العمَل الصالِح؛ لأنه رتَّب الجزاء على قِيام الوَصْفين بالفاعِل وهما الإيمان والعمَل الصالِح.

لكنِّي أَقولُ: إن الإيمان إذا كان صادِقًا فلا بُدَّ أن يَكون العمَل الصالِح؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ العمَل ليس مَقبولًا ولا محمودًا ولا مُثابًا عليه حتى يَكون صالِحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ومَتَى يَكون صالِحًا؟

الجوابُ: إذا جمَعَ شَرْطَيْن: الأول: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثاني: المُتابَعة لرسول الله ﷺ، فإِنْ فَقَد الإخلاص فليس بصالِح، وهو مَردودٌ على فاعِله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢)، وإِنْ فَقَد المُتابَعة؛ فهو أيضًا مَردود غيرُ مَقبول؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣).

ولا تَتَحقَّق المُتابَعة إلَّا بشروط سِتَّة: أن يَكون العمَلُ مُوافِقًا للشَّرْع في: سببه، وجِنْسه، وقَدْره، وكَيْفيَّته، وزمانه ومَكانه.

فلو أَحدَث الإنسان عِبادة لسبَبٍ غير شَرْعِيٍّ فهي مَردودة، فلو قال: كُلَّما سمِعْتُ نُباح الكِلاب صَلَّيْت ركعتين! فلا تُجزِئ ولا تُقبَل منه؛ لأنه علَّقها بسبَب لم يَكُن مَشروعًا ولم تكُن مَشروعة من أَجْله فلا تُقبَل.

ولو أن أحَدًا من الناس ضَحَّى بفَرَس وهي أُنثَى الخَيْل قال: عِنْدي شاة تُساوِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِئَتَيْ ريال، وعِندي فرَسٌ تُساوِي عِشرين ألفَ رِيالٍ سأُضحِّي بالفَرَس! فلا تُقبَل؛ لأنه مُخالِفٌ للشَّرْع في الجِنْس، إذ الأُضحِيَّة ما تَكون إلَّا من بَهيمة الأنعام، ولو أن أحَدًا تَعبَّد لله بعِبادة مُحدَّدة بقَدْر مُعيَّن فزاد في قَدْرها كما لو صلَّى سِتَّ صلَوات قال: إن المُدَّة بين العِشاء والفَجْر طويلة تَحتاج إلى زيادة الصلاة، والمُدَّة بين الفَجْر والظهر طويلة تَحتاج إلى زِيادة صلاة فيُصلِّي سَبْعَ مرَّات؛ فزاد القَدْر، أو لو صلَّى خَمْسًا في الرباعية أو ثلاثًا في الثُّنائية فإنها لا تُقبَل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا سبَّحَ الرجُل دُبرَ الصلاة مِئَتَيْ مرَّةٍ فهل تَرفُضون هذا التسبيحَ كُلَّه؟ أو تَقولون: ما وافَقَ الشَّرْع فهو مَقبول وما زاد عليه فهو مَردود؟

الجوابُ: إذا كانت العِبادة التي حصَل فيها الزيادة تَتجزَّأ؛ بمَعنَى: أنه يَصِحُّ أوَّلُها دون آخِرها فإننا لا نُبطِل أَوَّلها بما طرَأ عليها، أمَّا إذا كانت لا تَتجزَّأ فإنها إذا بطَل آخِرُها بطَلَ أوَّلُها، فلو صلَّى الظُّهْر خَمْسًا بطَلَت صلاته؛ لأنها لا يُمكِن أن يَصِحَّ أَوَّلُها مع فَساد آخِرها، لكن في زيادة العَدَد لا نُبطِل العدَد الأَوَّل.

لكننا نَقول لهذا الرجُلِ: إن كُنتَ تَعتَقِد أن المِئَتَيْن هي المَشروعة فأنت ضالٌّ؛ لأنك مُبتَدِع، وإن كُنتَ تُريد أن تَقول: أنا أَعتَرِف بِأن المَشروع مِئة ولكن زِدْتُ على أنه تَطوُّع. فهذا يُكتَبُ لكَ أَجر التَّسبيح المُطلَق لا المُقيَّد.

وأمَّا في كَيْفيَّتها: فلو أن أحَدًا صلَّى وصار يَسجُد ثُمَّ يَركَع ثُمَّ يَسجُد! هذا غير مَشروع لاختِلاف الكَيْفية.

وأمَّا في الزمَن لو أن أحدَهم قال: أنا سَوْف أَحُجُّ في ذي القَعْدة، أَخرُج إلى مِنًى في ليلة التاسِع مِن ذي القَعدةِ وأَبيتُ فيها، وفي التاسِعة أَذهَبُ إلى عرَفةَ وأَقِفُ.. إلى آخِره! وكمَّل أفعال الحَجِّ في ذي القَعدةِ، ويَقول: لأن ما عِندي أحَدٌ يُضايِقُني!

فهذا غير صحيح؛ لأنها لم تُوافِقِ الشَّرْع في الزمَن.

يُقال: إن رجُلًا بَدوِيًّا كان يَبيع في المَواسِـم الأضاحِيَ؛ يَأتي بها ويَجلِبـها إلى السُّوق وهو ما أَدَّى فَريضة الحجِّ، فقِيل له: لماذا لم تُؤَدِّ الفَريضةَ؟ فقال: الفَريضةُ تَأتي في وَقْت المَوْسِم وأنا ما أُحِبُّ، ولكنني سأَذهَب إلى الشَّيْخ أَسأَله: هل يَجوز لي أن أَحُجَّ في عيد رَمضانَ؟! فذهَب إلى الشَّيْخ يَستَأذِنه؛ يَقول: أَستَأْذِنك يا شيخُ أنْ تَسمَح لي أن أَحُجَّ في عيد رمضانَ بدَلًا من عيد الأَضْحى؛ لأن عيد الأَضْحى فيه مَوْسِم لنا. فقال له الشيخُ: إن أَذِنْت لك أن تَحُجَّ فإني آذَنُ لكَ أن تُضحِّيَ وحينئذٍ يَكون المَوسِم تابِعًا للحَجِّ، ما يَتخَلَّص منه.

فأَقـولُ: إن هذا الذي حَـجَّ في ذي القَعدةِ حتى لو وافَق التاسِـعَ والعاشِرَ والحادِي عشَرَ والثاني عشَرَ والثالِثَ عشَرَ فإنها لا تُقبَل؛ لمُخالَفَتها للزمَن.

ولو أنَّ رجُـلًا في العَشْر الأواخِر من رَمضـانَ قال: سأَعْتَـكِف في بَيْتي ولن أَذهَب للمَسجِـد؛ لأني أَتعَبُ في تحصيل الطعام والشراب، ويُمـكِن أن يَجِيءَ أَحَد يُلْهِيني عن ذِكْر الله تعالى، فسأَقعُد في البيت. فلا يَصِحُّ اعتِكافُه؛ لأنه مُخالِف للشَّرْع في المَكان.

فتَبيَّن الآنَ أن تَحقيق المُتابَعة لا يَكون إلَّا إذا وافَقَ العَمَل الشريعة في الأمور السِّتَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عُلوُّ مَرتَبة المُؤمِنين العامِلين الصالحاتِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّ الإشارة هنا للبَعيد، وذلك لعُلُوِّ مَرتَبَتهم، مِثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] مع أن الكِتاب بَيْنَ أيدينا، لكن أَشار إليه بالبَعيد لعُلُوِّ مَرتبته.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ في الإيمان والعمَل الصالِح حُصول المَطلوب وزوال المَكروه؛ لقَوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ هذا زوال المكروهِ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذا حُصول المَطلوب.

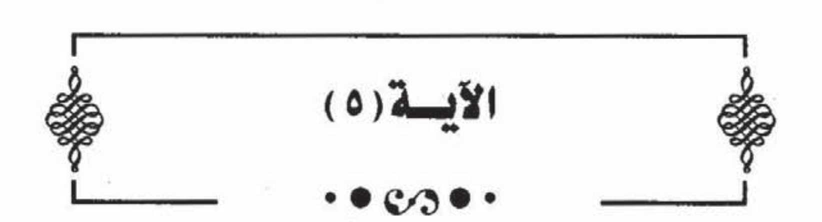
واعلَمْ أن الله تعالى إذا غفَر لكَ فتَحَ لك أبوابَ المَعرِفة وانشَرَح صدرُك بالإيمان؛ لأنَّ الذي يُوجِب ضِيق الصَّدْر وتَشتُّت الفِكْر هو المَعاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣] ما يَعرِف قَدْر القُرآن إذا تَتْلو عليه القُرآن يَقول: أَساطيرُ الأَوَّلين. فلا يَعرِف قَدْره لماذا؟ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] لمَّا رانَ على قَلْبه عمَله صار -والعِياذُ بالله تعالى- لا يَرَى هذا القُرآنَ العظيمَ إلَّا أَساطيرَ الأَوَّلين.

ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يَنبَغي لَمن نَزَلَت به نازِلة وطلَب حُكْمها، سَواءٌ كانت هذه النازِلةُ نازِلةً خاصَّةً به أَمْ كان مَسؤُولًا عنها يَنبَغي له أن يَستَغفِر الله تعالى؛ واستَدَلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]، وبعدَه: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٦]، وهذا ليس ببَعيد.

إذَن مِن فَوائِد الإيمان والعمَل الصالِح: حُصول المَطلوب والنَّجاة من المَرهوب.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ رِزْق الجَنَّة رِزْق كريم؛ أي: واسِع كثير دائِم حسَن، ويَدُلُّ لذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

• • ❁ • •



الآيـة (٥)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ:٥].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَعَوْ﴾ فِي إِبْطَالِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ]، فجعَل في الآية مَحذوفًا تَقديرُه: في إِبْطالها، ومَعنَى (سَعَوْا) أي: مَشَوْا بشِدَّة، هذا في الأصل، ومِنه السَّعيُ أيِ: الرَّكْض، فالمُراد أنَّ هؤلاءِ يُسابِقون ويَتَسارَعون إلى إبطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لهم أن لا يَقوموا بها، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لغيرهم أن يَصُدُّوا الناس عن دِين الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [الحج:٢٥] فهَؤلاءِ سَعَوْا غاية السعيِ في آيات الله لإِبْطالها وإِخْفاقِها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لم يُبيِّن بماذا سَعَوْا؛ لأنَّ هؤلاءِ يَسعَوْن في إبطال آيات الله تعالى أَحْيانًا بالصِّراع المُسلَّح، يَعنِي: يُهاجِمون الدِّيار ويُقاتِلونهم حتى يَرُدُّوهم عن دِينهم، وأحيانًا بالسِّلاح الفِكْري، فيَبُثُّون فيهم الشُّبُهاتِ؛ في دِينهم، في نَبيِّهم، في ربِّهم؛ ما استَطاعوا إلى ذلك سبِيلًا، وأحيانًا يَسعَوْن في ذلك بالشَّهَواتِ؛ فيَبُثُّون في الناس حُبَّ اللهو والشَّهْوة.

ومن هذا ما تَبُثُّه وسائِلُ الإعلام الخَبيثة في الدُّوَل الكافِرة ومَن تَشبَّهت بها،

فتَجِدهم يَدْعون إلى أَسافِل الأخلاق، يَدْعون بالقَلْم وبالصورة، فيُصوِّرون النِّساء الفاتِنات وعلى صِفة مُزرِية -والعِياذُ بالله تعالى-، ويَكتُبون أيضًا بالدَّعْوة إلى ذلك، وهذا الأمرُ يَمَسُّ العقيدة في الواقِع، وليس قاصِرًا على البدَن فقط؛ لأنَّ الإنسان إذا أَصبَح بَهيميًّا ليس له إلَّا إِشْباعُ بَطْنه، وإشباعُ غَريزته؛ فإنه يَبقَى لا صِلةَ له بالله، أهمُّ شيءٍ عنده هذا الذي انغَمَس فيه من الشَّهَوات واللهوات، فتَجِده يُعرِض عن دِين الله ولا يَهتَمُّ به.

ولذلك مِن أَضَرِّ ما يَكون على البِلاد الإسلامية بعد بثِّ السُّموم الفِكْرية بثُّ السُّموم الشَّهْوانية؛ لأن الشَّهْوانية هذه يَميل إليها الإنسان بفِطْرته التي تُمْلِيها عليه نَفْسُه الأمَّارة بالسُّوء، فيَدخُل فيها مُكرَهًا فإذا انغمَسَ -نَسأَل الله تعالى العافِيَة- فيها فإنه يَقِلُّ أن يَنتَشِل نفسه منها.

فالمُهِمُّ: أنَّ الذين كفَروا يَسْعَوْن سَعيًا حَثيثًا في إبطال آيات الله تعالى أن تُنشَر، أو أن يُعمَل بها أو أن يَتَّجِهَ الناس إليها، بكل ما يَستَطيعون من قُوَّة؛ إمَّا بالصِّراع المُسلَّح، وإمَّا ببَثِّ الأفكار المُشكِّكة المُشبِهة، وإمَّا ببَثِّ الشَّهَوات حتى يُعرِض الناس عن دِينهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ءَايَٰتِنَا﴾: الْقُرْآن] والصواب: أنَّ آياتِنا هنا أَعَمُّ من القُرْآن؛ لأنَّ الساعين في آيات الله تعالى لَيْسوا هم من هذه الأُمَّة فقَطْ، حتى في الأُمَم السابِقة فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آيات الله تعالى، فمثَلًا فِرْعون يُهدِّد قومَه يَقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]؛ ويَحُثُّهم على أن يَكفُروا بموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وغير ذلك أيضًا من الأُمَم الآخَرين كُلُّهم يَسْعَوْن في آيات الله في إِبْطالها وصدِّ الناس عنها.

وعلى هذا فنَقول: إنَّ المُرادَ بآيات الله تعالى هنا أَعَمُّ من القُرْآن، يَشمَل السَّعيَ في أيِّ آيةٍ من آيات الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُعَاجِزِينَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ هُنَا وَفِي مَا يَأْتِي]، والأَصْل (مُعْجِزِينَ) (يَسْعَونَ في آياتِنا مُعْجِزِينَ)، وفي قِراءتنا هنا وفي ما يَأتي [﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أَيْ: مُقدِّرِينَ عَجْزَنا أَوْ مُسابِقِينَ لَنَا فيَفُوتونا بظَنِّهِمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا عِقَابَ].

إذَنْ: فيها قِراءَتان سَبْعِيَّتان أم إِحْداهما شاذَّة؟

الجوابُ: سَبْعيَّتان؛ لأنَّ مِن اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: (وفي قِراءة) فهي سَبْعيَّةٌ، أمَّا إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، وهذا اصطِلاحٌ خاصٌّ بالمُفَسِّر، فإذا وجَدْتَ في هـذا التَّفسيرِ (تفسير الجلالين): (وفي قِراءةٍ) فاعلَـمْ أنها قراءة سَبْعيَّة، وإذا وجَدْت: (وقُرِئَ) فهي قِراءة شاذَّة، والفَرْق بينهما أن القِراءة السَّبْعية يَجوز أن يَقرَأ بها الإنسان في صلاته ويَتعَبَّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وأمَّا الشـاذَّةُ فهي على اسمِها شاذَّة، لكن هل يُحتَجُّ بها في الأَحْكام أو لا يُحتَجُّ؟ فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إذَنْ فيها قِراءتـان: (مُعْجِزِينَ) أو ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، المُعجِز مَعـناه: الذي يُريد أن يُعجِز غيرَه بدون أن يَكون من الغَيرِ مُقابَلةٌ له، هذا المُعجِزُ، فيَكون الإِعْجازُ من طرَفٍ واحِدٍ، أي: أنهم يُريدون بهذا أن يُعجِـزوا الله في عدَم مُؤاخَذَتهم وعِقـابهم؛ لأنهم آمِنون من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

و﴿مُعَاجِزِينَ﴾ تكون من طرَفَيْن كل واحد منـهم يُريد إعجاز الآخَر فكأَنَّهم لطُغْيانهم وعُدوانهم جعَـلوا أَنْفُسهم في مَقام الصِّراع مع الله؛ وإن كان الله يَريد أن يُعجِزَهم فإنهم أيضًا يُريدون أن يُعجِزوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد سبَق أنَّ القِراءَتَيْن قد تَدُلُّ كل واحدة منهما على مَعنًى يُكمِل القِراءة الأُخرى؛ فأيُّهما أَبلَغُ (المُعجِز) أو (المُعاجِز)؟

الجوابُ: (المُعاجِزُ) أَبلَغُ في الطُّغْيان؛ لأنَّه: أَراد أن يَجعَل نَفْسَه حَرْبًا لله عَزَّوَجَلَّ مُقابِلًا له، فما جَزاؤهم؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٥].

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نَقول في إعراب هذه الجُمْلةِ كما قُلْنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فهي مُبتَدأ، وخَبَرُه الجُمْلة بعدَه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ العَذاب بمَعنَى: العِقاب، والرِّجْز يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَيِّءِ العَذَابِ]، الرِّجْز هو السَّيِّئُ من كل شيء، فإذا قيل: عَذابٌ مِن رِجْز. فمَعناه: سَيِّءُ العَذاب، بل إنَّه أَسوَأُ العذاب، فإنَّ أَعظَمَ عَذاب يُعذَّب به البَشَر هو عَذاب النار -نَسأَل الله العافِيةَ- فهو أَسوَأُ العذاب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلِيمٌ﴾ أَيْ: مُؤْلِمٌ بِالجَرِّ وَالرَّفْعِ]، يَعنِي: القِراءَتان [صِفَةٌ لِرِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ] يَعنِي: كلِمة (أَليم) فيها قِراءَتان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أو ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

أَمَّا كونُ (أَليم) صِفة لعَذاب فهي كثيرة في القُرآن، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثيرًا ما يَصِف الله تعالى العَذاب بالأَلَم، وأمَّا (الرِّجْز) فإنها كانت صِفة لها؛ لأنها أقرَبُ من (عَذاب)، وعليه فإذا قُلْتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برَفْع (أَليمٌ) قُلْنا: إنها صِفة لـ(عَذاب) وإذا قُلتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ بجَرِّ (أَليمٍ) قُلْنا: إنها صِفةٌ لـ﴿رِّجْزٍ﴾.

ويَجوز أن تُقرَأ بهذا وبهذا، بل يُستَحَبُّ لك أن تَقرَأ بالقِراءَتَيْن جميعًا وبالثلاث

إذا كان فيها ثلاث قِراءاتٍ؛ لأنَّ اختِلاف القِراءات كاختِلاف الصِّفات في العِبادات، وقد سبَق لنا أنَّ الأفضل في ما جاء من العِبادات على صِفاتٍ مُتعدِّدة أن تَعمَل بهذا مَرَّة وبهذا مَرَّة حتى تَحصُل على السُّنَن كلها، وهكذا القِراءات، ولكن إيَّاكَ أن تَقرَأ وأنت شاكٌّ في القِراءة؛ لأنَّه لا يَجوز أن نَقرَأ إلَّا ونحن مُتيقِّنون بأن هذه هي القِراءةُ الصحيحة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقُّق ما وصَف الله تعالى به القُرآن من أنه مَثاني، إذا ذُكِر فيه المَعنى ذُكِر ما يُقابِله، وإذا ذُكِر فيه العامِل ذُكِر مَن يُقابِله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحِكْمة في الخِطاب، وأنه يَنبَغي في الخِطاب أن يَكون جامِعًا بين أسباب الخوف وأَسباب الرَّجاء؛ لأنه إذا ذُكِر الخوف فقط فقد يَستَوْلي على القَلْب القُنوطُ من رحمة الله؛ وإذا ذُكِر الرجاء فقط فقد يَستَوْلي عليه الأَمْن من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكُفَّار يَسعَوْن جادِّين لإبطال آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا﴾، والسعي كما نَعلَم أنه هو الجَريُ بشِدَّة، فهؤلاء يَسعَوْن جادِّين لإِبْطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

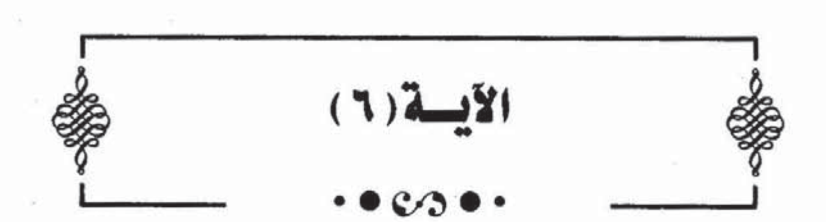
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ كأنما يُعاجِزون الله تعالى ويُغالِبونه؛ لقوله تعالى: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين سعَوْا في آيات الله تعالى مُعاجِزين يُعاقَبون بهذا العِقابِ الأليمِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: من عَذابٍ سَيِّئٍ مُؤلِمٍ، كما سبَق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من سَعْيِ الإنسان في إبطال آيات الله تعالى، فإذا قُلْنا -على القاعِدة التي سبقَت لنا في قواعِد التَّفسير-: «إنه إذا نُهِيَ عن شيء فهو أَمْر بضِدِّه» فتَكون هذه الآيةُ مُتضَمِّنة للحَثِّ على السَّعيِ في آيات الله لتَقريرها وتَثبيتها، وهو كذلك؛ فإننا مَأمورون بأن نَسعَى قَدْرَ استِطاعتِنا في تَثبيت آيات الله ونَشرِها بين الأُمَّة حتى تَقوم المِلَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والحِكْمة فيه؛ لأن المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾ بمَعنَى: يَعلَم؛ لأنَّ الرُّؤْية تكون بمَعنَى الرُّؤْية بالعَيْن، وتكون الرُّؤْية بالقَلْب، والرُّؤْية بالقَلْب هي العِلْم، و(رأى) بمَعنَى: عَلِم، وتَأتي في القُرآن كثيرًا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] (نَراه) بمَعنَى: نعلَمه؛ لأنَّه ليس المعنى: نَراه بأَعيُننا، إذ إنه لم يَقَع، وليس المَعْنى: نَظُنُّه؛ لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظَّنِّ، وعلى هذا فيَكون (نَراه) بمَعنى: نَعلَمه، وهنا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: [يَعْلَمُ]، لكنه إذا جاءَت: (يَرَى) بمَعنى: (يَعلَم) دلَّتْ على أن العِلْم في أعلى مَقامات العِلْم؛ وأنه صار كالمُشاهَد بالعَيْن يُرَى رُؤْيا بالِغة كالذي يُشاهَد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: أُعطُوه.

وهل المُراد بهم أهل الكِتاب أو هو عامٌّ؟ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ].

والصواب: أنها أَعمُّ من ذلك، وأن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم كلُّ مَن أعطاهمُ الله تعالى العِلْم فيَشمَل أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، فالنَّجاشِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من

النَّصارى، ورأى أن الذي أُنزِل إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حقٌّ، وعبدُ الله بْنُ سَلَامٍ من أَحبار اليَهود رأى أن الذي أُنزِل على النبيِّ ﷺ هو الحقُّ، وكذلك أيضًا مَن آتاه الله تعالى عِلْمًا من هذه الأُمَّةِ فإنه يَرَى أنَّ الذي أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحقُّ، بخِلاف مَن كان جاهِلًا فإنَّ إيمانه إيمانُ تَقليد، وهو وإن كان مُجزِئًا عنه لكنه ليس كإيمان الذي آتاه الله تعالى العِلْم.

ويَدُلُّ على أن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم ما هو أَعَمُّ قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] فالذين أُوتوا العِلْم هم الذين يَرَوْن أنَّ ما أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحقُّ؛ وذلك بما آتاهمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من العِلْم الراسِخ في قُلوبهم.

ولهذا تَجِد عِبادة العامِّيِّ يَعبُد الله عَزَّوَجَلَّ عِبادةً أَشبَهَ ما تكون بالعادة، وإن حضَر في قَلْبه الإنابةُ والخُشوعُ والاستِحْضارُ، لكنه ليس كالذي يَعبُد الله تعالى على بَصيرة وعلى عِلْم؛ لأنَّ في قَلْب هذا مِن اليَقين ما ليس في قَلْب الأَوَّل، فيَكون عامًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إذا كانت (يَرَى) عِلمِيَّة فإنها تَنصِب مَفعولين: المَفعول الأَوَّل: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ الاسْمُ المَوصولُ، والمَفعول الثاني: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، وأمَّا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأُولى فهي فاعِل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يَعنِي: الْقُرْآنَ]، فإن الله تعالى أَنزَله إلى النبيِّ ﷺ بواسِطة جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا أَضاف الرُّبوبية إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ الوَحيَ رُبوبية خاصَّةٌ، إذ لا أحَدَ يُشارِك النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من هذه الأُمَّةِ في ذلك؛ فلهذا أَضاف الرُّبوبية إليه وحدَهُ؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

للعِناية بهذا المُنَزَل إليه، والمُنزل أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تَقدَّم أنَّ مَعنَى الرُّبوبية هو الخَلْق والمِلْك والتَّدبير، فالله تعالى خالِق النبيِّ ﷺ ومالِكُه ومُدبِّرُه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَي: الْقُرْآنَ ﴿هُوَ﴾ فَصْلٌ ﴿ٱلْحَقَّ﴾] هذا هو المَفعول الثاني، و(هو) ضمير فَصْلٍ، لَفْظُه لفظُ الضمير لكنَّه ليس ضَميرًا؛ ولذلك لا نَقول: إنَّه اسـمٌ، وأيضًا لا نَقول: له مَحَـلٌّ من الإعراب، يَعنِي: لا مَحَـلَّ له من الإعراب، وليس باسْمٍ، لكنه جِيء به للفَصْل.

والدَّليل على أنه لا مَحَـلَّ له من الإعراب قولُه تعـالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، ولو كان له مَحَلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالِبون) فلَمَّا قال: ﴿هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾؛ وصارَت ﴿ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ خبَرَ (كانَ)، دلَّ ذلك على أنَّ هذا الضميرَ ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، لكن ما فائِدتُه؟

الجوابُ: ذكَرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن له ثَلاثَ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخبَر.

الفائِدةُ الثانية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

أَمَّا وَجه كَوْنِه فاصِلًا بين الصِّفة والخَبَر فلو قُلْت: «زَيْدٌ الفاضِلُ»؛ (الفاضِل): هنا يُحتَـمَل أنها صِفةٌ لـ(زَيْدٌ)، وأنَّ الخَـبَر لم يَأتِ، فيَكون الإنسـانُ الآنَ مُترَقِّب للخبَر، كأَنْ يَكونَ تَقديره: (زَيدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ)، وإذا قُلتَ: «زَيْدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ»؛ صارت (الفاضِلُ) هنا صِفةً بلا شَكٍّ و(حاضِرٌ) خبَرًا، فإذا قُلتَ: «زيد الفاضِلُ»

فقَطْ، يُحتَمَل أنك تُريد أن تُخبِر بأنَّ (زَيدٌ فاضِلٌ) ويُحتَمَل أنك تُريد أن تَصِف زيدًا بأنه فاضِل، والخبَرُ لم يَأتِ، فإذا قُلْت: «زيدٌ هو الفاضِلُ» تعيَّن أن تكون الفاضِلُ خبرًا.

وأمَّا كونُه مُؤكِّدًا أيضًا؛ لأنك إذا قُلتَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هو الفاضلُ. هَذه أَوْكَدُ بلا شَكٍّ، كذلك أيضًا مُفيدٌ للحَصْر: فإذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ مَعناه: لا غَيره. فضَمير الفَصْل إِذَنْ يُفيد ثلاث فوائِدَ: الحَصْرُ، والتَّوكيد، والفَصْل بين الخبَر والصِّفَة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بمَعنَى: الشيء الثابِت، فقَولُك: أُحِقُّ الشيء. أَيْ: أُثبِتُه، ومِثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس:٩٦] أي: ثبَتَت ووَجَبَت، فما هو الثُّبوت في القُرآن؟

الصِّدْق في الأخبار والعَدْل في الأَحْكام، فالحقُّ إذا أُضيف إلى الحُكْم فمَعناه: العَدْل، أي: أنَّه حُكْم عادِل؛ ولهذا لو تَنازَع خَصْمان عند القاضي وحَكَم لأحدهما بما تَقتَضيه الشريعةُ قُلْنا: هذا حقٌّ؛ لأنَّه عدَلَ، ولو حَكَم للثاني بخِلافه قلنا: هذا ليس بحَقٍّ هذا باطِل؛ لأنَّه حَكَم بغير الحقِّ، فالحقُّ في الأحكام هو العَدْل، وفي الأَخْبار هو الصِّدْق، فالذين آتاهمُ الله تعالى العِلْم يَعلَمون أنَّ هذا القُرآنَ حَقٌّ في أَحْكامه وحَقٌّ في أخباره، فأَحكامه كلها عَدْل؛ لأنها وَضَعَتِ الشيء في نِصابه وجعلَتِ الحَقَّ لمُستَحِقِّيه، وأخبارُه أيضًا ثابِتة حَقٌّ، يَعنِي: ثابِتة ما فيها كذِبٌ، فإذا قُلْت: هذا خبرٌ حَقٌّ. أي: صِدْقٌ، هذا حُكْمٌ حقٌّ، أي: عَدْلٌ.

ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: صِدْقًا في الأخبار، وعَدْلًا في الأحكام.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾؛ ومعَ ذلك [﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيِ: الله؛ ذِي العِـزَّةِ المَحْمُودِ] يَهـدِي بمَعنًى: يَدُلُّ، فالهِـدايةُ هنا هِداية دَلالة وإرشاد، والهِداية نَوْعان: هِداية تَوْفيق؛ وهِداية دَلالة.

أمَّا هِداية التَّوفيق فلا يَملِكها إلَّا الله، قال الله تعالى لنَبيِّه مُحمَّد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

وأمَّا هِداية الدَّلالة فثابِتة لكلِّ ما يَكون به الإِرْشاد والدَّلالة، فالقُرآن يَهدِي إلى صِراط مُستَقيم، والنَّبيُّ ﷺ يَهدِي إلى صِراطٍ مُستقيم، وهنا (يَهدِي) أي: يَدُلُّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يَعنِي: (الله)، وهنا قال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سُورة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، فأَضافَه إلى هذا الاِسْمِ العَظيم وهو الدَّالُّ على العِزَّة؛ إشارة إلى أن مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّة.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيْضًا إشارة إلى أنَّ مَن لَزِم هذا الصِّراطَ كان في مَقامٍ مَحمود.

أَمَّا ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي هو اسْمُ الله تعالى، فإن ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مَن له العِزَّة، والله تعالى له العِزَّة جَميعًا ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥]، العِزَّة التي وُصِفُ الله تعالى بها تَتضمَّن ثلاثة مَعانِيَ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

أَمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذو قَدْرٍ عَظيم، وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله ذو قَهْر عظيمٍ؛ وغلَبة لا يَغلِبه أَحد، وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناه: أنَّ الله يَمتَنِع عليه النَّقْـص بوَجْهٍ من الوُجوه، ولا يُمكِن أن يَنالَه نَقْـصٌ أبدًا، فهذه هي العِـزَّة المُضافة إلى الله.

فإن قِيل مثَلًا: هذا عزيزٌ عَلَيَّ؛ أي: ذُو قَدْر شَريفٍ عِنْدي، وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] يَعنِي: غلَبَني، هذه عِزَّة القَهْر والغَلَبة، ويُقال: أَرْضٌ عَزازٌ. أي: قوِيَّةٌ شديدة ما يُؤثِّر فيها وَطْء الأقدام، وهذه عِزَّة الامتِناع، فالله مَوصوف بالعِزَّة بمَعانيها الثلاثة.

وأمَّا ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه بمَعنَى: [المَحْمُودِ] وصحيحٌ أنَّ (فَعيل) تَأتي بمَعنَى (مَفعول)، ومنه قَوْلهم: (قتيل) بمَعنَى (مَقتول)، و(جَريحٌ) بمَعنَى (مجروح)، لكنها تَأتي بمَعنَى (الفاعِل) أيضًا؛ مِثْل (عَليم) بمَعنَى (عالِم)، (عَزيز) بمعنى (عازّ)، (حَكيم) بمَعنَى (مُحكِم)، وهكذا تَأتي بهذا المَعنَى.

فإذا كانت تَأْتي بالوَجْهين جميعًا، أي: بالفاعِل والمَفعول؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلها مَقصورة على المَفعول أو نَجعَلها شامِلةً؟

الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعَلها شامِلة؛ فهو عَزَّوَجَلَّ حَميدٌ بمَعنَى: حامِد، وبمَعنَى (محمود)، أمَّا كَونُه حامِدًا فما أَكثَرَ ما يُثنِي الله على عِباده المُؤمِنين، إِذَنْ هذا (حَمْد) فهو (حامِد) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمَّا كَوْنه محمودًا، فهذا ظاهِر أن الله تعالى له الحَمْدُ على كل حال.

والحاصِلُ: أنَّ تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بـ(المَحمود) فيه قُصورٌ، والصَّواب: أنه بمَعنى (محمود) وبمَعنَى (حامِد)، وأن له الحَمْدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا والآخِرة.

وفي إضافة الصِّراط إلى اسمِ الله تعالى ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيه فائِدة؛ أنَّه يَدُلُّ على أنَّ مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراط فإنه (عزيزٌ) و(محمودٌ) أَيْضًا؛ (محمود) على الْتِزامه بهذا الصِّراطِ.

فَإنْ قِيلَ: في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الدُّنيا أَمْ في الآخِرة؟

فالجوابُ: أنه لَمَّا ذَكَر المَغفِرة فإن آثارَها لا تَظهَر إلَّا في الآخِرة، ولكن -كما سَبَق- أنَّ الأَحسَن العُموم.

فإن قُلتَ: إننا نَجِد من المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ مَن هو فقير، فأَينَ الكرَمُ في الرِّزْق؟

فالجوابُ: أن نَقول كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»(١)، فقد يَكون الإنسان عنده مالٌ كثير لكن حاله حال الفُقراءِ.

أَمَّا مَن لا يَرَى أن ما أُوتِيَه النبيُّ ﷺ حَقٌّ فهذا لا يُمكِن، فكل مَن أُوتِيَ عِلْمًا فإنه يَرَى أن ما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الحقُّ، لكنه يَكون مُعانِدًا مُستكبِرًا، مُشكِلة هذا المُكابَرةِ، وهي أَمْرٌ ما فيها إلَّا السَّيْف إذا استَحَقَّ القَتْل، وإلَّا كُلُّ إنسانٍ يُؤتَى العِلْم لا بُدَّ أن يَشهَد بالحَقِّ لما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ ما جاء به الرسول مُطابِقٌ للواقِع، فلا بُدَّ أن يَعلَم أنه حَقٌّ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن آل فِرعونَ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فهم يَستَيْقِنون بها، ويَعلَمون أنها الحَقُّ لكنهم يَجحَدون، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَشمَل كُلَّ مَن آتاه الله تعالى العِلْم حتى عبدَ الله بنَ سلَام وغيرَه، ومن الجائِز أن تَنزِل الآية قبل أن يَحدُث الواقِعُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم (٦٤٤٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم (١٠٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلة العِلْم؛ ووجهُه: أنَّ العالِمَ يَعرِف الحَقائِقَ على ما هي عليه، فيَرَى أنَّ الذي أُنزِل على الرسول ﷺ هو الحقُّ، وهذا لا شَكَّ أنه من فضائِل العِلْم، عَكس الذي يَترَدَّد في كونه حقًّا، أو يُمكِن أن يَكون حَقًّا -والعِياذُ بالله تعالى- فالَّذين مَنَّ الله تعالى عليهم بالعِلْم يَرَوْن أنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارة إلى أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بعِلْمه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَعنِي: ما أَدركوهُ بأَنفُسهم، ولكن الله تعالى مَنَّ عليهم به، فلا تَقُلْ: هذا من عِندي. ومِثْله المالُ أيضًا، بعض الناس يُعجَب إذا حصَّل مالًا؛ والذي أَعطاه المال هو الله، وماذا صنَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨]؟ خَسَف به الأرض.

فنَأخُذ مِن قوله تعالى: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بنَفْسه ويَقول: العِلْم حصَّلْتُه أنا بفهمي وحِرْصي ومُثابَرتي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَلجَأ إلى الله تعالى في تَحصيل العِلْم، نَأخُذها من قوله: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فإذا كُنَّا نُؤْتَى العِلْم؛ فلْنَسأَل هذا العِلْم ممَّن يُؤتِينا إيَّاه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فما وجهه؛ لأنه ليس كل نازِل كلامًا، فقَدْ يَذكُر الله تعالى الإِنْزال للشيء وليس بكلام؟

الجوابُ: أن ما نَزَل من الله تعالى إمَّا أن يَكون قائِمًا بذاته أو قائِمًا بغيره، والقائِم بذاته مَخلوق؛ كالمطَر ونحوه، أمَّا القُرآن فهو قائِم بغيره؛ لأنه كلامٌ فلا يُمكِن إلَّا مِن مُتكلِّم فيَكون كلام الله غيرَ مَخلوق، وإلَّا هناك أَشياءُ يُنزِلها الله تعالى ويَقول: أَنزَلناها.

وهي مخلوقة؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل:١٠]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون:١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وكل هذه الأشياءِ مَخلوقة؛ لأنها أعيان قائِمة بذاتها، بخِلاف القَوْل فإن القَوْل لا يكون إلَّا بقائِل.

فإذا قال الله تعالى: أَنزَل عليك الكِتابَ، وهو قولٌ صار هذا القَوْلُ مِن كلام الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تُؤخذ مِنْ إضافة الرُّبوبية إليه، وهذه الرُّبوبية خاصَّة -كما سبَق- لنا في (قواعِد التَّفسير).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِناية الله بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان فَضْل الله تعالى عليه، حيث أَنزَل عليه الحقَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذا القُرآنَ حَقٌّ؛ في أَخْباره وفي أَحْكامه، والْحَقِّيَّةُ في الأَخْبار هي: الصِّدْق، وفي الأحكام: العَدْل، وقد جمَعَ الله تعالى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ القُرآن مَنارٌ وهُدًى، يَهتَدِي به الناس ويَستَضيئون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَنِ ابتَغَى الهُدى من غيرِه ضَلَّ؛ لأنه إذا كان هو الذي يَهدِي إلى صِراط العَزيز الحميد فإذا ابتَغَيْت الهُدَى من غيرِه الْمُخالِف له فإنك

لا تُهدَى إلى صِراط العَزيز الحميد؛ ولهذا لَمَّا طلَبَ أهلُ البِدَع الوُصولَ إلى الخالِق عن طريق غير القُرآن ضلُّوا وتاهوا وبقُوا مُتَحيِّرين مُضطَرِبين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن تمسَّك بهذا القُرآنِ نال العِزة والحَمْد؛ أي: صار عزيزًا محمودًا؛ لقول الله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى صراط الله. بل قال سبحانه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ إشارة إلى أنَّ مَن تمسَّك بالقُرآن فله العِزَّة وله الحَمْدُ يُحمَد على فِعْله وقَوْله وتَرْكِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات هَذين الاسْمَيْن لله، وهما العَزيز والحَميد، وقلنا: أنَّ العِزَّة التي اتَّصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها لها ثلاثة أنواعٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، عِزَّة الامتِناع، فالحَميد من أسماء الله تعالى، وهو مُشتَقٌّ من الحَمْد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات العِزَّة لله تعالى، وإثبات الحمـدِ لله تعالى، ولكن هناك عِبارة عند الناس يَقولون: (الحمدُ لله الذي لا يُحمَد على مَكروهٍ سِواهُ) وهذه عِبارةٌ غيرُ مُناسِبة؛ لأنك تُعلِن إعلانًا تامًّا بأنَّك تكرَه ما قَضَى الله تعالى، والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أَصابَه أَمْر يُسَرُّ به قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أَصابَه ما يَكرَه قال ﷺ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١)، ولا يَذكُر شيئًا مَكروهًا، ولهذا يَنبَغي لنا أن نُنبِّه مَن تكلَّم بهذه العِبارةِ؛ أنَّ هذا يَشهَد بأنه لم يَرضَ بقَضاء الله تعالى نَقول له: قُلْ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

ونَعلَم أن الله تعالى ربُّ كلِّ شَيْءٍ ويَدخُل في ضِمْن ذلك الكِلابُ والخَنازيرُ والحَشَراتُ وما أَشبَه ذلك، لكن هل من اللائق أن تَقول: إن الله تعالى ربُّ الكِلاب

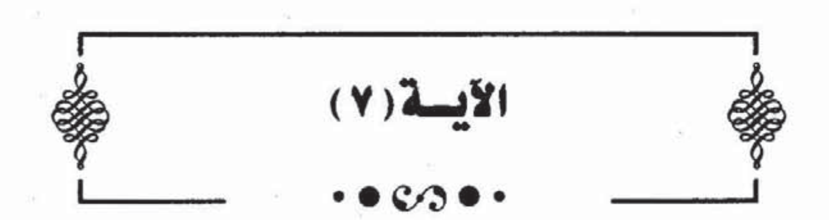
---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وربُّ الخَنازير وربُّ الحَشَرات؟ وهذا ليس من الأدَب أن تُخصِّص كما نَصَّ على ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] وغيرُه رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فهنا فَرْق بين التَّعميم وبين التَّخصيص؛ ولهذا قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

• ● ۞ ● •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٦).



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٧].

•●○●•

أوَّلًا: في الإعراب والمَعاني البلاغية قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ المَقصود بالاستِفْهام هنا السُّخْرية، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ نُكِّر للتَّحقير؛ يَعنِي: أَنَّه رجُلٌ حَقيرٌ، كقوله تعالى عمَّن كذَّبَ الرسُلَ عُمومًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:١٤]، فإن هذا للتَّحقير.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ تَنصُب ثلاثةَ مَفاعيلَ، المَفعولُ الأوَّل الكافُ، والمَفعول الثاني والثالِث مُعلَّق بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدٍ ﴾.

يَقول الله عن الكافِرين: إنَّ بعضهم يَقول لبَعضٍ على جِهة التَّعجُّب، كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل على جِهة التَّحقير: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّعَجُّبِ لِبَعْضٍ: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ] الاستِفهام هنا قُلت: إنه للسُّخْرية.

والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاد مَعنًى آخَرَ وهو التَّعجُّب، يَعنِي: أَلَا تَتَعجَّبون ممَّا سنَدُلُّكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ مُحَمَّدٌ] لكنهم قالوه بالتَّنكير على سبيل التَّحقير لم يَذكُروه باسمه؛ لأنَّ ذِكْر الشخص باسْمِه قد يَعني تَعلية مَنزِلته، ولكنهم قالوا بهذا اللَّفظِ المُنكَر تَحقيرًا له [﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخْبِرُكُمْ أَنَّكُمْ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ وقُطِّعْتُمْ ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بِمَعْنَى: تَمْزِيقٍ] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا ما يُنبَأ به يَقول: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يُخبِرُكم، فالنَّبأ بمَعنَى الخَبَر، وقد يَكون النَّبأ في الأشياء الهامَّة والخبَر في ما هو أعَمُّ، فتُخبِرُ عن الشيء الهامِّ وعن الشيء الحَقير، ولكنك لا تُنْبِئُ إلَّا بشيءٍ عظيم، كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالنَّبأ قد يُستَعمَل في الأشياء العَظيمة بخِلاف الخبَر فإنه يَكون أَعمَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [إِذَا قُطِّعْتُمْ] يَعنِي: تَمزيق الأرض لِلُحوم البَشَر، فإن الإنسان إذا دُفِن مَزَّقته الأرض وقطَّعته وصارَت عِظامه الصُّلْبة رميمًا: فهُمْ يَقولون: إنه ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنى تَمزيق.

وعلى هذا فكلِمةُ ﴿مُمَزَّقٍ﴾ مَصدَر، لكنه مَصدَرٌ مِيميٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو مَحَلُّ النَّبأ، وهو في مَحَلِّ نصبٍ سَدَّ مَسَدَّ مفعولَيْ يُنبِّئُكم الثاني والثالث.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ كلِمةُ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفية مُتعلِّقة بشيءٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ عليه السِّياق؛ لأنَّ إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تَمزيقهم، ولكنه أَنبأَهم في الحياة الدنيا: أنها تَمزيقهم إذا دُفِنوا، يَعنِي أنكم إذا دُفِنْتم ومُزِّقتم تكونون في خَلْق جَديدٍ، وهذا الخَلْقُ الجديد هو البَعْث، وهل البَعْثُ إعادة لما مَضَى، أو ابتِداء خَلْق غير الأَوَّل؟

الصوابُ: أنـه إعادة ما مَـضَى كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، ولكنه سُمِّي خَلْقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسان إذا بُعِث فإنه لا يُبعَث كحاله في الدنيا، بل يُبعَث في حالٍ أَشَدَّ وأَقوَى؛ لأنه سيُبعَث على أنه مُؤَبَّد لا يَموت.

ولهذا يَتحَمَّل الناس يوم القيامة من الكَرْب والهَمِّ والغَمِّ ما لا يَتحمَّلونه في الدُّنيا، فالناس مَثَلًا لو دَنَتِ الشمس منهم قَدْر مِيلٍ في الدنيا لأَحْرَقتهم، ولكنها في الآخِرة تَدنو مِنهم ومع ذلك لا تُحرِقهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في أَوْصافه؛ لأنَّ الصحيح أنَّ الخَلْق هو إعادة ما مَضَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النَّبيَّ ﷺ دعا إلى الإيمان باليَوْم الآخِر؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان عُتُوِّ الكافِرين، واستِعْلائهم واستِكْبارهم؛ حيثُ عبَّروا بهذا التَّعبيرِ ساخِرين بما أَخبَرَ به النبيُّ ﷺ، ووَجْهُ عُلُوِّهم واستِكْبارهم:

الأول: السُّخْرية بهذا النَّبَأ.

الثاني: تَحقير النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

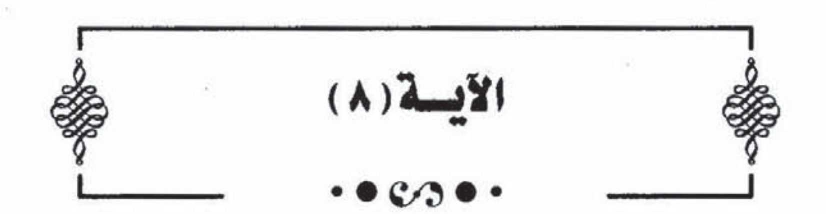
الثالِث: وَصْفه بأنه لا تَخلُو حالُه من أَحَد أمرين: إمَّا كاذِب، وإمَّا مجنون. هذه ثلاثة أَوْجهٍ كلُّها تَدُلُّ على: عُلُوِّ هَؤُلاءِ الكافِرين واستِكْبارهم وعِنادِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان ما حصَل للنبيِّ ﷺ من الأَذَى، وأنه صَبَر؛ لأنَّ أَمْرًا يَصِل

إلى هذا الحَدِّ في الاستِخْفاف به والاستِهانة بخَبَره؛ لا شكَّ أنَّه يُؤثِّر على نَفْسه تأثيرًا بالِغًا، وأَعتَقِد أن صاحِب الدَّعوة إذا أُوذِيَ بمِثْل هذا الإيذاءِ كان أشدَّ عليه من أن يُضرَب ويُحبَس.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ قُدْرة الله؛ حيثُ يُعيد هذا الخَلْقَ بعد أن يَتمَزَّق كلَّ تَمزُّقٍ؛ لأنه ظاهِر من قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

• • ۞ • •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

•●۞●•

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِلاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ] (أَفْتَرَى) أصلُها (أَافْتَرى) لكن هَمزة الوَصْل مع همزة الاستِفْهام تَسقُط، ومِنه قوله تعالى: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ [الصافات:١٥٣]، ﴿ أَصۡطَفَى ﴾ بمَعنَى: (أَاصْطَفى) فسَقَطت الهمزة؛ لأنها وقعَت بعد هَمزة الاستِفهام، وأَظُنُّ سُقوطَها مَعلومًا؛ لأنَّ هَمزة الوَصْل تَسقُط في الوسَط، فإذا جاءَت هَمزة الاستِفْهام صار الكلام مُتَّصِلًا، وإذا كان مُتَّصِلًا سقطَت همزة الوَصْل، ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ [المؤمنون:٢٧] أين ذهَبَت هَمزةُ الوَصْل في ﴿ٱصۡنَعِ﴾؟

سَقطَت لاتِّصال الكلام، فإِذَن ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ سقطَت لاتِّصال الكلام ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ذلك؛ يَعنِي: في قوله: (إِنَّكم ستُبعَثون وتُنشَرون خَلْقًا جديدًا) هل هذا افتِراء على الله تعالى؟ سيُبيِّن الله تعالى ذلك، لكنهم يَقولون: إنَّ حالَهُ دائِرة بين أَمْرين: إمَّا رجُلٌ مُفترٍ على الله تعالى، افترَى على الله تعالى الكَذِب في ذلك، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [جُنُونٌ تَخَيَّلَ بِهِ ذَلِكَ].

إِذَنْ: هُمْ -والعِياذ بالله تعالى- قسَّموا حال النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى حالين لا ثالثَ لهما،

وهُما الافتِراءُ على الله، والثاني الجُنون ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جُنون تَخيَّل له ذلك به.

فَإِنْ قِيلَ: هل هناك حالٌ ثالِثة؟

فالجوابُ: نعَمْ، هناك حالٌ ثالِثة، لكنَّهم لا يُقِرُّون بها، وهو أنه صادِق عاقِل، صادِق لم يَفتَرِ، وعاقِل ليس به جِنَّـة، وهذا هو الواقِع، لكنـهم هم -والعِياذُ بالله تعالى- أَسقَطوا هذا القِسْمَ الثالِثَ؛ لأنهم لا يُقِرُّون به.

ومِن عَجَبٍ أنَّ هؤلاءِ الذين يَقولون في الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الوَصْفَ: إنه إمَّا (مُفتَرٍ) أو (مجنونٌ) أو (شاعِرٌ) أو (كاهِنٌ) أو ما أَشبَه ذلك؛ كانوا يُسمُّونه قبل النُّبوة (الأَمِين)، ويَرَوْن أنه من أَصدَق الناس وأَعظَمِهم أمانةً؛ لكن -والعِياذُ بالله تعالى- لَمَّا جاء بها لم يُوافِقْ أهواءَهُم صاروا يُلقِّبونه بهذه الأَلْقابِ.

وهذه الأَلْقابُ السَّيِّئةُ التي لَقَّب المُشرِكون بها رسول الله ﷺ مَوروثة ورِثَها أعداءُ المُؤمِنين وأَوْلياء المُجرِمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، فهذه الأَلْقابُ السَّيِّئة مَوجودة الآنَ، كلُّ أَعداء الرُّسُل يُلقِّبون أولياءَ الرُّسُل بمِثْل ما لُقِّب به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسبَق في العَقيدة أنَّ مِن الناس مَن يُلقِّب أهل السُّنَّة والجماعة بـ(الحَشَوِيَّة) و(النوابت) و(الغُثاء) و(المُجسِّمة) وما أَشبَه ذلك؛ كل هذا تَنفيرًا للناس عن سُلوك مَذهَبِهم.

يَقول تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ قال الله مُبطِلًا ذلك: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [المُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا]،

وقوله تعالى: ﴿بَلِ﴾ للإِضْراب الإبطاليِّ؛ يَعنِي أن الله أَبطَل هذين القِسْمين اللذين رَدَّد هَؤلاءِ الكُفَّارُ حال النبيِّ ﷺ بينهما؛ يَعنِي: بل هو غَيرُ مُفتَرٍ وليس به جِنَّة، ولكن هؤلاء الذين لا يُؤمِنون في العَذاب والضَّلال البعيد، ولا يُمكِن أن يُقِرُّوا.

والإضراب قِسْمان: إضرابٌ إِبْطاليٌّ، وانتِقاليٌّ، الإضراب الإبطاليُّ مَعناه: أن ما قَبْلَ (بَلْ) باطِل، والإِضْراب الانتِقاليُّ مَعناه أن ما قَبْلَ (بَلْ) مَرحلة انتُقِل منها إلى مَرْحلة أُخرى بدون إِبْطال لها.

ومثال الإِضْراب الانتِقاليِّ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، فإن هذا انتِقاليٌّ؛ يَعنِي إنهم أَوَّلًا بَعُد عنهم الآخِرة، ثُم شَكُّوا فيها، ثُمَّ بعد ذلك عَمُوا عنها -والعِياذُ بالله تعالى-، فهذه أحوالهم الانتِقالِيَّة.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها ويَعترِفون، أي: لا يُؤمِنون بوُجودها ولا يُؤمِنون بما يَحصُل فيها، وقد سبَقَ أن اليوم الآخِرَ يَدخُل فيه كلُّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ مِمَّا يَكون بعد الموت، فكلُّ ما أَخبَر به الرسول ﷺ مِمَّا يَكون بعد الموت كفِتْنة القبر ونَعيمه وعَذابه فإنها داخِلة في الآخِرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فِيهَا ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ يَعنِي: الحَقَّ فِي الدُّنْيا] المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَيَّد المُطلَق في المَوضِعين، فهنا قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [فِي الآخِرَةِ] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيا].

والأَصَحُّ أن الآية مُطلَقة؛ فهُمْ في العذاب في الدُّنيا وفي الآخِرة، أَمَّا عذاب

الآخِرة فظاهِر، وأمَّا عذاب الدُّنيا فما في قلوبهم من الحَرَج والضِّيق وما يَحصُل عليهم أيضًا من العذاب من الله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠]، وكذلك العذاب الذي يَجرِي على أَيْدي الرُّسُل كالعذاب الذي يَحصُل لهم بالهزائِم، فإن هذا من عذاب الدُّنيا، أمَّا الآخِرة فظاهِر.

إِذَنْ: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ يَشمَل الدُّنيا والآخِرة، وتَقييده بالآخِرةِ فيه نظَرٌ، بل إنه يَجِب علينا ألَّا نُقيِّد شيئًا أَطلَقه الله تعالى إلَّا بدليل من كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله ﷺ، أو الإِجْماع.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا]؛ فهُمْ في ضَلال بَعيد، يَعنِي: عن الحقِّ، وهم أيضًا في ضَلال في الآخِرة فإنهم لا يُهدون إلى الصِّراط الذي يَنجو به مَن عَبَرَه من النار، ولكنهم يُهدون إلى صِراط الجَحيم فيُضِلُّون عن الصِّراط الذي به النَّجاة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]، وقال تعالى عن المُؤمِنين: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم:٨]، فدلَّ ذلك على أن الضَّلال كما يَكون في الدنيا يَكون كذلك في الآخِرة، فالأَوْلى إِذَنْ إِبْقاء النَّصِّ على عُمومه في الدُّنيا وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكافِرين الذين كفَروا برسول الله ﷺ كانوا يُقِرُّون بالله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قُبْح الافْتِراء على الله تعالى، حتى إنَّ الكافِرين يَستَقْبِحونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَعْداء الرُّسُل، بل أَعداء دَعوة الرُّسُل؛ يَكيلون السَّبَّ والقَدْح والعَيْبَ؛ لِما جاءَت به الرُّسُل أو للرُّسُل ولِما جاؤُوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ومَعلوم أنَّ كلام الكاذِب وكلام المَجنون ليس بمَقبول، فهُمْ يَأتون بعِبارات التَّشويهِ والتَّقبيح؛ حتى لا يُقبَل الحقُّ.

وهذا جارٍ إلى وَقْتنا هذا؛ لأنَّ أعداء دَعْوة الرُّسُل لا يَزالون إلى يوم القِيامة، ولكن على أَتْباع الرُّسُل أن يَصبِروا، وألَّا يُثنِيَ عَزْمَهم مِثْلُ هذا الكلامِ؛ لأنهم على حَقٍّ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].

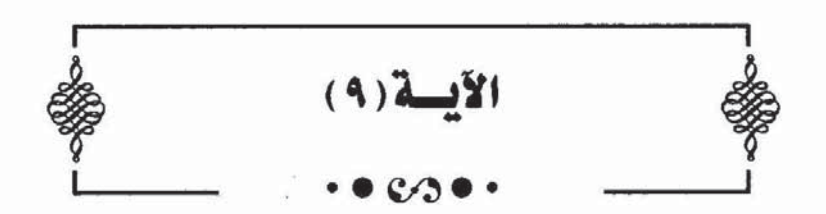
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان أن الله تكفَّل ببَيان الحَقِّ وإظهاره وإبْطال الباطِل وانْدِحاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكُفْر يُوجِب عدمَ قَبول الحقِّ والاهتِداء به، من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعناه: أنَّ الضَّلال مُحيطٌ بهم من كل جانِب؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإذا لم يُؤمِن الإنسان بالحَقِّ بَقِيَ في ضَلال، والشَّواهِد على هذا كثيرةٌ؛ استَمِعْ إلى مِثْلِ هذه الآيةِ وإلى

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، يَعني: مُضطَرِبٍ مُختَلِفٍ.

فكلُّ مَن كذَّب بالحقِّ فإنه لا يَزداد إلَّا ضلالًا، حتى لو جاءَتْه الآياتُ البيِّنات الظاهِرات فإنه لا يَنتَفِع بذلك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥] مع أنها آياتٌ بيِّناتٌ واضِحاتٌ.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩].

•••

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ وَمَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾] إلخ؛ الاستِفْهام هنا للتهديد يَعنِي أنَّ الله تعالى هدَّد هؤلاء الذين كذَّبـوا النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: إنهم سيُعـادُون. هدَّدهم بأَحَد أمرين: بالخَسْف أو إِسْقاط الكِسَف، أيِ: القِطَع من العَذاب من فوقهم، وإنها ذكَر الفَوْقَ والتَّحتَ؛ لأنه لا يُمكِن الفِرار منهما، أمَّا اليمين والشِّمال والخَلْف والأَمام فيُمكِن الفِرار؛ فلو جاءَكَ عَدُوٌّ من الخَلْف أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الأَمام، ولو جاءَكَ من الأَمام أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الخَلْف، لكن إذا جاء من أَسفَلَ إلى أين تَذهَب؟! تَقفِز ما تَستَطيع، وإذا جاءَكَ من فَوقُ أين تَذهَب؟! لا تَستَطيع؛ لهذا هدَّدَهم الله تعالى بأَمْرين لا يُمكِنُهم الفِرارُ منهما.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَرَوْا﴾ فسَّرَها بمَعنَى: [يَنْظُرُوا]، والأَوْلى أن تَكون شامِلةً للرُّؤْية البَصَريَّة التي بمَعنَى النَّظَرِ، والرُّؤية القَلْبية التي بمَعنى العِلْم والتَّفكُّر،

يَعنِي: أن الله يَحُثُّهم على أن يَتَفَكَّروا حَثًّا يُراد به التَّهديدُ، فالرُّؤيةُ هنا شامِلة لرُؤْية النَّظَر بالعَيْن ورُؤْية القَلْب بالتَّفكُّر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ مَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ]، أيُّها الذي بين الأَيْدي على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بِناءً على أنه لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّب؛ يَكون ما فَوقَهم هو الذي بين أَيْديهم وما خَلْفهم هو الذي تَحتَهم.

وَلَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ هذا صَرْفٌ للكلام عن ظاهِره بلا دَليلٍ، بل نَقول: ما بين أَيْديهم، أي: ما أَمامَهم وما خَلْفَهم ما وراء ظُهورِهم. فيَحتَمِل أنَّ المُراد بما بين أيديهم أمامَهم من الزَّمَن، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد ما بين أَيْديهم أيِ: المَكان، وكذلك نَقول فيما خَلْفَهم.

فقد يَكون ما بين اليَدِ هو ما أَمامَك من الزمان وما خَلْفك ما خَلَّفْتَه من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: ما بين أيديهم ما يُستَقبَل، وما خَلْفَهم ما مَضَى، وقد يَكون المُراد به المَكانُ، كما تَقول: مرَرْتُ بين يَدَيِ المُصلِّي. أي: أَمامَه، وتَقول: المَأمومُ يَقِف خَلْف الإمام. أي: وراءَه في المَكان.

وأمَّا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ نَقول فيها: يَحتَمِل أن يَكون المُراد فيها المَكان، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد الزمان، والمُراد أن يَتفكَّروا في الأمر: هل نَجا أحدٌ من عذاب الله؟ انظُرْ ما بين يَدَيْك في المَكان، أو ما بين يَدَيْك في الزمان، وما خَلْفك من المَكان أو الزمان: هل نَجا أَحَد من عذاب الله؟

والجوابُ: لا، لم يَنْجُ، إِذَنْ: هم أيضًا لا يَنْجُون من عذاب الله تعالى.

وإعراب قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾: اختَلَف فيه عُلَماءُ النَّحْو رَحِمَهُمُ اللَّهُ هو: أن النَّحْويِّين اختَلَفوا في إعراب الجُمْلة إذا كانت مُصدَّرةً بهَمزة الاستِفهام وبعدها حرفُ عَطْفٍ، فقيل: إنَّ الهَمْزة -يَعنِي: هَمزة الاستِفْهام- داخِلة على شيء مُقدَّر بحسب السِّياق، وقيل: إنَّ الهَمْزة داخِلةٌ على الجُمْلة المَوجودة بدون تَقدير، وأنَّ حَرْف العَطْف كان من حَقِّه أن يَتقدَّم على الهَمزة؛ لكنها قُدِّمَتْ عليها لأنَّ لها الصَّدارةَ.

فعلى الوجهِ الأوَّل يَكون التَّقديرُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ أَغفَلوا أو أَأَعْرَضوا وما أَشبَهَ ذلك.

وأمَّا على الثاني فلا حاجةَ إلى هذا التَّقديرِ، بل نَقول: إن (الهمزة) للاستِفْهام والفاء حَرْف عَطْف وتَأخَّرت عن الهَمْزة؛ لأنَّ لها الصَّدارة.

والثاني أَحسَنُ؛ لأنَّ كوننا نَقول: إنَّ الهمزةَ داخِلة على هذه الجُملةِ نَفْسِها أَوْلى، وذلك لأنَّ القول الأَوَّلَ قد يُعوِزك تَقديرَ المَحذوف -يَعنِي: بمَعنى أنه يَصعُب عليك أن تُقدِّر المَحذوف-، أمَّا هذا فبِناءً على أن الجُملة هذه مَعطوفة على ما سبَق، لكن لا تَحتاج إلى تَقدير فلا تَتْعَب فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ الجُمْلة هنا شَرْطية، وفِعل الشَّرْط فيها وجوابُه مُضارِع مَجزوم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ مَعطوفة على ﴿نَخْسِفْ﴾، أو إن نَشَأْ نُسقِطْ عليهم كِسَفًا، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِسُكُونِ السِّينِ وَفَتْحِهَا: قِطْعَةٌ] يَعنِي: أن فيها قِراءَتَيْن سَبْعيَّتَيْن: بسُكون السِّين (كِسْفًا) أو(كِسَفًا) بفَتْح السِّين، ويَجوز القِراءة بهما جميعًا.

وقد سبَـقَ أن ذكَرْنا أن القِراءاتِ إذا تَعـدَّدت فالأفضل أن يُقـرَأ بهذا تارةً

وبهذا تارةً؛ لأنها كُلُّها حَقٌّ، وكونه يُلتَزَم قِراءة واحِدة فهذا فيه قُصور؛ إلَّا أن القِراءاتِ التي لم تَتيَقَّن أنها ثابِتة فلا يَجوز لك أن تَقرَأ بها؛ لأنه يَجِب أن تَقرَأ بها ثبَتَ عِنْدك.

وقوله تعالى: ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قِراءة: في الأَفْعال الثلاثة بالياء] والأفعال الثلاثة (يَشَأْ)، (يَخْسِفْ)، و(يُسْقِطْ)، بالياء فيُقال: (إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) والفاعِل في الضمائر هنا يَعود على الله، أمَّا على قراءة النُّون: (إِنْ نَشَأْ) فالأَمْر ظاهِرٌ؛ لأنَّ الضمير فيها ضمير المُتكلِّم، لكن على قِراءة الياء الضميرُ فيها ضَميرُ الغائِب، وضميرُ الغائِب لا بُدَّ فيه من مَرجِع يَرجِع إليه إمَّا سابِق وإمَّا لاحِق، فأَيْنَ مَرجِعُ الضمير ﴿إِن نَّشَأْ﴾؟

الجوابُ: يُقال: إنه مَعلوم من السِّياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، مَن الذي خَلَقه؟ الله تعالى، فهُنا يَعلَم كلُّ أَحَدٍ أنه لا يَستَطيع أحَدٌ من البَشَر -ولا من غير البَشَر- أن يَخسِف الأرض بالناس، أو يُسقِط عليهم قِطَعًا من العذاب، فيَكون مَرجِع الضمير مَعلومًا بالسِّياق.

قوله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَرْئِيِّ ﴿لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الله عَلَى الْبَعْثِ وَمَا يَشَاءُ]، يَعنِي: إنَّ الآية تَدُلُّ على البَعْث، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما بين أيديهم من السماء والأَرْض، يَعنِي: يَشمَل كلَّ ما سبَقَ، وكلَّ ما مَضَى، وكلَّ ما أَمامَهم مِن مَكان، وكلَّ ما كان خَلْفَهم، ومن ذلك أننا نَرى الآيَةَ في السَّماء يَنزِل المَطَر من السَّماء على الأَرْض الهامِدة اليابِسة فتَرجِع مُخضَرَّة حَيَّة؛ أَفَلا يَكون في ذلك دليلٌ على إمكان إعادة الخَلْق؟

الجوابُ: بلى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: المَنظور من ما بين أيدينا وما خَلْفَـنا من السَّماء والأَرْض ﴿لَآيَةً﴾ أي: علامـة على قُ

دْرة الله وعلى عِلْـمه وحِكْمته، لكنَّ هذه الآيَةَ ليسَت آيةً عامَّة لأَحَدٍ، بل: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَبْدٍ﴾ مَأخوذ من العُبودية وهي التَّذلُّل، وقد سبَق لنا أن التَّذلُّل نوعانِ: تَذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، وتَذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ، وأَيُّهما المَحمودُ المُثابُ عليه؟

الجوابُ: التَّذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، أمَّا التَّذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ فإنَّ هذا لا طاقةَ للإنسان به، ولا يُحمَد عليه، فكَوْن الإنسان يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الكونيِّ من مَرَض أو فَقْر أو موت أَهْل أو ما أَشبَهَ ذلك، هل يُحمَد عليه؟

الجوابُ: لا يُحمَد عليه؛ لأنه ليس من فِعْله، لكن كونه يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الشَّرعيِّ فيَقوم بشَرْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا هو الذي يُحمَد عليه، هنا المُراد بـ(العَبْد) المُتذَلِّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، بدليل قوله تعالى: ﴿مُّنِيبٍ﴾ أي: راجِع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من مَعصيته إلى طاعته، فيَشمَل القائِم بالعِبادة ولو بِدون أن يُذنِب، ويَشمَل التائِبَ من الذَّنْب.

فإنَّ الرجُل إذا قام يُصلِّي يَتعَبَّد لله يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. وإذا أَذنَبَ ثُم استَغْفَر وعاد يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. أيضًا، فالإنابة هُنا تَشمَل الإنابة من ذَنْب فعَلَه فتكون بمَعنَى التوبة، وتَشمَل الإنابةُ إلى الله تعالى القِيامَ بطاعَته فتكون أَشمَلَ وأَعَمَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ النَّظَر والاعتِبار في ما حصَل من الآيات في السَّماء والأرض؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوْبيخ ولا يُوبَّخوا إلَّا على تَرْك واجِب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في السَّمواتِ والأرض آياتٍ، لكنَّها للعَبْد المُنيب إلى الله تعالى، وأمَّا مَن لا يُريد الإنابة إلى ربِّه فإنه لا يَنتَفِع بهذه الآياتِ، حتى ولو رآها ونظَرَ فيها وفكَّر فإنه لا يَنتَفِع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما يَحصُل من الخَسْف والزَّلازِل والنَّوازِل فإنه بإِذْن الله، عُقوبةً للعِباد واعتِبارًا، خِلافًا لمَن قال: إن هذه أُمورٌ طَبيعيَّة لا تَدُلُّ على غضَب الله ولا على إِنْذاره، كما هو رأيُ مَن لا يُؤمِن بالله تعالى، فالخَسْف في الأرض عُقوبةٌ، وما يَأتي من الصواعِقِ والكوارِث الأُفُقيَّة؛ فهي أيضًا عُقوبة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحيطٌ بالعِباد، لا يُمكِنهم الفِرار من قَضائه وقَدَره، وأنَّه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا مَفَرَّ للعِباد منه؛ لقوله تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله يَمُنُّ على العَبْد بظُهور الآيات له؛ حتى يَتبيَّن له الحَقُّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، وإذا مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على العَبْد بالنَّظَر في آياته والتَّدبُّر ازداد بذلك إيمانًا بالله، وإيمانًا بما تَقتَضيه هذه الآياتُ من صِفاته؛

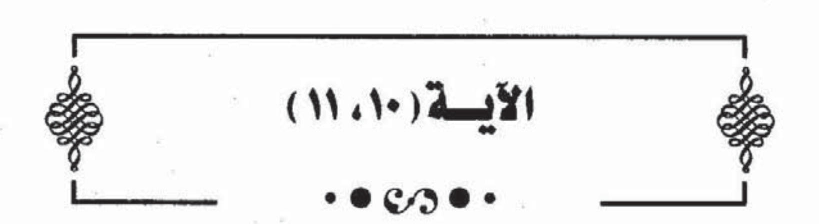
فإنَّ كلَّ آيَة تَدُلُّ على صِفة مُعيَّنة من صِفات الله تعالى.

فإِنْزال المَطَر مَثَلًا يَدُلُّ على القُدْرة والعِلْم والرَّحْمة، وكونه في وَقْت مُناسِب يَدُلُّ على الحِكْمة، وكل شيء مِمَّا يَقَع في السماء والأَرْض فإنه يَدُلُّ على صِفة من صِفات الله تعالى تُناسِبه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في السَّماء والأرض آياتٍ عَظيمةً لِمَن نَظَرَ وتَدَبَّر، وهذا أَثْبَتَهُ الله تعالى في القُرآن في مَواضِعَ كَثيرةٍ، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرةٌ، فكُلُّ مَن تَدبَّر ما في السماء وما في الأرض وما بينهما؛ تَبيَّن له من آيات الله ما يُقوِّي إيمانه ويَزيدُه طَمَعًا في فَضْل الله تعالى وخَوْفًا من عِقابه.

• ● ۞ ● •



الآية (١٠، ١١)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١٠-١١].

الواو حَرْف عَطْف، ويَجوز أن تكون للاستِئْناف واللَّام مُوطِئة للقَسَم، و(قد) للتَّحقيق، ومِثْلُ هذا التَّركيبِ يَأتي في القُرآن كثيرًا، ويُقال فيه: إنَّ الجُمْلة مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات: القَسَم المُقدَّر، واللَّام، و(قَدْ)، فتَقدير هذه الجُملةِ: «والله لَقَدْ آتَيْنا داود مِنَّا فَضْلًا».

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام؟

الجوابُ: نَعَمْ يَجوز، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٥]، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، هذا جوابُ القَسَم، ويَجوز في (قد أَفلَحَ مَن زكَّاها) في غير القُرآن أن نَقول: لقَدْ أَفلَحَ.

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام و(قَدْ)؟

الجوابُ: نعَمْ يَجوز، كقَوْله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:١-٤]، فـ(قُتِلَ) هذا جوابُ القَسَم

ليس فيه (قَدْ) ولا اللَّام.

فصار جوابُ القَسَم إذا كان فِعْلًا ماضِيًا جاز فيه ثلاثةُ أَوْجُهٍ: أن يَقتَرِن باللَّام و(قَدْ)، أن يَقتَرِن بـ(قد)، أن تُحذَف منه اللَّام و(قَدْ)، لكن لا تُحذَف اللَّام ولا تُحذَف (قد) في الغالِب إلَّا إذا طال القَسَم، أمَّا إذا لم يَطُلْ فإنها لا تُحذَف، فإن قُلْتَ: (والله لَقَدْ قام زَيْدٌ)، فهذا صحيح، وهذا هو الأصل، (والله قَدْ قام زَيْدٌ)، هذا أيضًا صحيح حَذَفْنا اللَّامَ، و(الله قامَ زَيْدٌ) هذا أيضًا صحيح حذَفْنا منه اللَّامَ و(قَدْ).

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمَعنَى: أَعطَيْنا، وهي تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر، وكُلُّ فِعْل يَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَرَ يُسمَّى مِن (بابِ أَعطَى وكَسَا)، فهُنا: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، ﴿دَاوُۥدَ﴾ المَفعول الأَوَّل، و﴿فَضْلًا﴾ المَفعولُ الثاني، ولا يُمكِن أن يَكون هذا مُبتَدَأً وخَبَرًا؛ فلو قُلْتَ: (داودُ فَضْلٌ) فإنه لا يَصلُح، ويُقال: (أَتَيْنا) ولكنها يَختَلِف مَعناها عن مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بل مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾: جِئْنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] أي: جاء أَمْر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿دَاوُۥدَ﴾ هو أَحَدُ أَنبياءِ بَني إِسرائيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو بعدَ مُوسى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، وفي القِصَّة أن داودَ كان مِنهم، إِذَنْ فهو بعد مُوسى، وهو نَبيٌّ من الأَنبياء، وقد أَنكَرَتِ اليَهود -لَعْنةُ الله عليهم- كَوْنَه نَبيًّا، ووَصَفوه بأنه مَلِك، وقد كذَبوا في ذلك، فإنه كان نَبِيًّا من أنبياء الله تعالى الذين يَجِب علينا أن نُؤمِن بهم، ولا يَتِمُّ إيمانُنا إلَّا بالإيمان بهم؛ لأنَّ أَرْكان الإيمان كما نَعلَم:

الإيمانُ بالله تعالى، ومَلائِكَته، وكُتُبه، ورُسُله، وهو أيضًا رسولٌ؛ لأن كلَّ نَبيٍّ ذُكِر في القُرآن فهو رَسولٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: ﴿مِنَّا﴾ بدَأَ بالجِهة قبلَ الفَضْل؛ ليَتبيَّن عِظَم ذلك الفَضلِ؛ لأن الشيءَ إذا نُسِب إلى جِهة عظيمة كان عَظيمًا كما في قوله في الحديث الصحيح: «وَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[1] قال: «مِنْ عِنْدِكَ» فأَضافَها إلى الله تعالى؛ حتى يَتبيَّن في ذلك عِظمُها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [نُبُوَّةً وَكِتَابًا]، وهذا الذي فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ به مِن باب التَّمثيل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه النُّبوَّة والرِّسالة أيضًا، وأَعْطاه الكِتاب قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وهل أَعطاه شيئًا آخَرَ غيرَ هذا؟ نَعَمْ؛ ولهذا نكَّر كلِمة (فَضْل)، جاءَت مُنكَّرة؛ لتَشمَل كُلَّ ما أُعطِيَه من فَضْلٍ؛ سواءٌ كان ذلك دِينيًّا أو دُنيوِيًّا.

وكان داودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَحسَن الناس صوتًا وتَرنُّمًا بالذِّكْر، حتى إن الله أمَرَ الجِبال أَمْرًا إمَّا كَوْنيًّا وإمَّا شَرْعيًّا؛ فقال تعالى لها: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ (أَوَّبَ) بمَعنَى: (رجَّع)، ومِنها (الأَوَّاب) أيِ: (الرجَّاع) إلى الله تعالى، ومِنْه (آبَ، يَؤُوبُ، أَوْبًا) بمَعنَى: (رَجَع)، فـ(أَوِّبِي مَعَهُ) أي: رَجِّعي معه، والتَّرجيع مَعناه: أنَّ تُردِّد الصوت الذي يَقوله، فمَثَلًا: إذا قَرَأ سمِعْتَ كأنَّ الجِبال التي حولَه كلها تَقرَأ بِقراءته.

وهذا غَيرُ ما نَسمَعه نحن من الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان؛ لأنَّ هذا الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان إذا كانت قد أَحاطَتْ به الجِبال هذا أَمر طَبيعيٌّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن هذا الذي أُوتِيَه داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فوقَ ذلك، فكانت الجِبال تُرجِّعُ معه؛ وذلك لحُسْن صَوْتِه، ونَغَماته؛ حتى إنَّ الجبال تُرجِّع معه بأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الطَّير يقول: [بِالنَّصْبِ؛ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْجِبَالِ]، لأنَّ (يا جِبالُ) هذه مُنادَى مَبنِيٌّ على الضَّـمِّ في محَلِّ نَصْب، وإنما بُنِيَ على الضَّـمِّ وهو نكِرة؛ لأنه مَقصود، والنَّكِرة المَقصودة بمَعنَى العَلَم؛ فلهذا بُنِيَت على الضَّمِّ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ لو عُطِفَت على اللَّفْظ ﴿يَٰجِبَالُ﴾ لكانت مَرفوعةً مَبنِيَّةً على الضَّمِّ؛ لكنها عُطِفت على محَلِّ الجِبال وهو النَّصْب، يَعنِي: وكذلك أَمَرَ الله تعالى الطَّيْر بأن تُرجِّع معه، فكانت الطيور في جَوِّ السماء تَقِف عند سَماع قِراءة داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتُرجِّع معه.

وأنت إذا تَصوَّرْتَ هذا الأمرَ وأنَّ رجُلًا يَقرَأ الزبورَ بتِلْك القِراءةِ والنَّغَماتِ الجَميلةِ ثُم الطُّيورُ من فوقُ تُسبِّح والجِبال؛ لا شكَّ أنه مَشهَد عَظيم ورَهيب، فكل شيء يَقرَأ بقِراءة هذا الرجُلِ بأَمْر الله!.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ] أي: جَعَلْناه لَيِّنًا بيَدِه حتى إنه كالعَجين في يَدِ أَحَدِنا، وهل المُرادُ أن الله تعالى أَلانَه له بالوسائِل التي تُلَيِّنُ الحَديدَ سُخِّـرت له وهُيِّئَت له، أو أن الله تعـالى أَلانَ له الحديد بغَيْر السبب المَعلوم؟

الجوابُ: يَرَى بعض الناس أنه الأوَّل؛ وأنَّ المُراد بقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: يَسَّرْنا له الأسبـاب التي تُلين ذلك الحديدَ؛ لأنَّ تَيسـير الأسباب لا شَكَّ أنَّه من نِعْمـة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أرَأَيْتَ لو أنَّك تُريد أن تُعكِف سِيـخًا من الحَديد وعندك نارٌ ضَعيفة فإنك تَتعَبُ في ذلك، لكن لو كان عِنـدك نارٌ قوِيَّة جِدًّا

كان في خِلال دقائِقَ قليلةٍ يَلين هذا الحديدُ كما تَشاءُ.

فيَرَى بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّ المُراد من تَلْيِين الحديد لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تيسير الأسباب التي يُسرِع بها لِينه.

ولكن بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إن الله تعالى ألانَ له الحديدَ بغير سببٍ، بل بقُدْرة الله، وجعَلَ الله تعالى ذلك آيةً له؛ كما جعَلَ الله عصا مُوسى إذا نزَلَتْ في الأرض كانت حيَّةً، وإذا رَفَعها صارت عَصًا في آنٍ واحِدٍ وفي لَحْظة واحِدة، فالله تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، والذي جعَل الحديد صُلْبًا قادِرٌ على أن يَجعَله لَيِّنًا.

وعندي أن هذا أقربُ إلى المعنى، أوَّلًا: لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ فجَعَل التَّليين مُضافًا إليه؛ إشارةً إلى أن لِينَ هذا الحديدِ بمُجرَّد القُدْرة، وكونُنا نَقولُ: إن هذا بأسبابٍ عادِية لكنها يُسِّرَت له. هذا خِلاف ظاهِر الآية، ثُم لو قُلْنا بهذا القولِ هل تكون هذه آيةً له؟

الجوابُ: لا؛ لأن كل مَن تَيسَّر له أسبابُ إلانةِ الحديد ألانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحديدَ.

فألانَ الله تعالى له الحديدَ حتى صار بيَدِه مِثْلَ العَجين يَقدِر على أن يُدوِّره، على أن يجعَله دقيقًا، على أن يجعَله غَليظًا حَسْبما يُريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾، هذه هي الحِكْمة من كون الله تعالى ألانَ له الحديدَ أن يَعمَل منه الدُّروع للمُجاهِدين في سبيل الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَقُلْنَا ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾] أمَّا ﴿أَنِ﴾ مَصدرية عُرِف عامِلُها، والتَّقديرُ: [وَقُلْنَا] ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾] أي: بـ(أَنِ اعْمَلْ) أَيْ: بالعمَل، ويُحتَمَل أن تَكون (أَنْ) تَفسيريةً؛ وأن نُقدِّر المحذوف بـ(أَوْحَيْنا) و(أَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ)؛ لأنَّ (أن)

التَّفسيرية هي التي سبقَها مَعنَى القَوْل دون حُروفه.

وهذا أقرَبُ من تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (وأَنِ اعْمَلْ) أي: وأَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ.

واعْمَلْ بمَعنَى: اصْنَعْ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْهُ] أيْ: مِنَ الحَديد ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ فسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دُرُوعًا كَوامِلَ يَجُرُّهَا لَابِسُهَا عَلَى الْأَرْضِ]، وأَفادَنا بقَولِه: دُروعًا. أَفادَنا بأَنَّ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ صِفة لمَوصوفٍ محَذوفٍ، وهذا المَحذوفُ تَقديرُه: دُروعًا، وحَذْفُ المَوْصوفِ جائزٌ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلّ

والسابغُ من كُلِّ شَيْء هو الكامِل الضافي التَّامُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، أَيْ: أَتمَّها وأَكمَلها، ومنه: إِسْباغُ الوضوء أي: إِتْمامه وإِكْماله.

فهذه الدُّروعُ السابِغاتُ؛ يَعنِي: الوافِيات الكوامِل التي تَمنَع لابِسَها مِن أن يَنالَه أَذًى، وأمَّا قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَجُرُّها لابِسُها على الأَرْض] ففي هذا نظَرٌ؛ لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يَجُرَّها على الأرض؛ ولأَنَّها إذا بلَغَتْ إلى هذا المُستَوى فرُبَّما تُعيق من الكَرِّ والفَرِّ، والمَعروف أن الدُّروع تَصِل إلى الرُّكْبة فقَطْ، هذا غايَتُها؛ لأنها حَديد، وإذا لبِسَ الإِنْسان حَديدًا يَصِل إلى الأرض فإنه سيَكون مُكبَّلًا بالأَغْلال، فالواجِب أن نَقول: «سابِغاتٍ أَيْ: كامِلات، ليس فيها نَقْص». وكَمال كل شَيْءٍ بحَسَبه.

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: [نَسْجُ الدُّرُوعِ قِيلَ لِصَانِعِهَا: (سَرَّادٌ) أَيِ: اجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حِلَقُهُ]، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْد مَعناه: نَسْج الدُّروع، كما يُنسَج الثَّوب من القُطْن ومن الصُّوف: يُنسَج الدِّرع من الحَديد.

ومَعنى (تَقدير السَّرْد) أَيِ: اجْعَلْ هذا السَّرْدَ أَيِ: النَّسْج مُقدَّرًا مُتَناسِبًا، من التَّقدير وهو: أن تَجعَل الحَلقاتِ مُتَناسِبةً ما تَأتي بحَلقة كبيرة وحَلقة صغيرة، ومنها أَلَّا تَجعَل الحَلقاتِ ضيِّقةً؛ لأنه إذا كانت ضَيِّقةً وقفَ الدِّرْع ولم يَكُن سَهْلَ الحرَكة، ولا تَجعَلْها واسِعة جِدًّا؛ لأنك إذا جعَلْتَها واسِعةً جِدًّا لا تَقِي، ثُم هي تَكبَر إذا جعَلْتها واسِعة جِدًّا كَبُرت وآذَتِ اللَّابِس، ولكِنِ اجْعَلْها مُقدَّرة مُتَناسِبة.

والدُّروع عِبارةٌ عن قُمُصٍ من حديد، قميصٌ تَلبَسه كما تَلبَس الثَّوْب، إلَّا أنَّه لا يَصِلُ كُمُّه إلى الكَفِّ، كُمُّه إلى العَضُد فقَطْ، وهذه الدِّرْعُ مَنسوجة مِنْ حِلَق حَديدٍ صغيرةٍ مَشبوكة بعضُها ببعض، مُداخَلة بَعضُها في بعض حتى يَتِمَّ النَّسْج، وهي مَوْجودة وتُوجَد عند مُتحَف أهل البَلَد، وأمَّا ما يُمسَك باليد حتى يُتَّقى به الرُّمْحُ فهذا يُسمَّى تُرسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ مَعنَى التَّقدير في السَّرْد: أن تَكون الحَلقات مُتَناسِبة، وأَلَّا تكون ضَيِّقة ولا واسِعة؛ لأنها إذا لم تَتَناسَب فإنها تُؤذِي، تكون واحِدةٌ صغيرةً وواحِدةٌ كبيرةً، وإذا كانت واسِعة فإنها تُؤذِي وقد لا تَقِي السِّهام، وإذا كانت ضيِّقة فإنها لا تَتحرَّك كما يَنبَغي ويَثقل على اللَّابِس.

وقوله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾ أَيْ: آل دَاوُدَ مَعَهُ ﴿صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَأُجَازِيكُمْ بِهِ] لَّما بيَّن الله بما منَّ به على داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن تعليم صَنْعة الدُّروع

وتَلْيِين الحديد له، وتَوْجيهه كيف يَصنَع هذه الدُّروعَ قال تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ [أيْ: آلَ دَاوُدَ مَعَهُ].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾ كيف عَدَل عن ضَمير المُفرَد: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ إلى ضَمير الجَمْع ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ تَقدير السَّرْدِ خاصٌّ بداوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والعمَلُ الصالِحُ عامٌّ له ولغيره، فوجَّهَ الخِطاب إلى جميع آل داوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ هو صِفة لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقديرُ: عمَلًا صالِحًا، والعمَلُ الصالِح ما جمَع وَصْفين: الإخلاص لله تعالى، المُوافَقة لشَريعته، فلا بُدَّ فيه من هَذَيْن الشَّرْطين، فإن فُقِد الإخلاصُ فليس بصالِحٍ لوُجود الشِّرْك؛ وقد قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(١)].

والشَّرْطُ الثاني: المُوافَقة لشريعة الله تعالى، فإن لم يُوافِقْ شَريعة الله تعالى فإنه ليس بصالِحٍ ولا يُقبَل؛ والدليل قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)]، وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، فلا بُدَّ لقَبول العمَل الصالِح من هَذين الشَّرْطين.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ هذه الآيَةُ فيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ، فقوله تعالى: ﴿بَصِيرٞ﴾ هو المُؤخَّر، والمُقدَّم المَعمول، فإن قُلْتَ: من القَواعِد المُقرَّرة أنَّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

تَقديم المَعمول يَدُلُّ على الحَصْر، فصار الله تعالى بَصيرًا بما يَعمَلون من دون غيرِهِ، مع أنه بَصير بكُلِّ شيء، فما هو السبَبُ؟

الجوابُ: السبَب في ذلك: التقديمُ، حيث جاء بصيغة الحَصْر للرَّدْع عن المُخالَفة، كأَنَّه لو لم يَكُن الله تعالى بَصيرًا بالشيء لكان بَصيرًا بأعمالكم، فلَمَّا كان الإنسان قد يَقول: إن الله تعالى لا يُبصِر عمَلي، جعَل الله تعالى الصِّيغة دالَّةً بظاهِرها على الحَصْر؛ حتى لا يَدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ الله تعالى ليس عالِمًا بعمَله، هذا من وَجهٍ، ومن جِهة أُخرى لمُناسبة فواصِل الآيات.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله تعالى ببَيان هذا الفَضْلِ، حيث أَكَّده بالقَسَم واللَّام و(قَدْ).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الفَضْلَ فَضْلٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله تعالى أَضافَه إليه بقوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، والمُضاف إلى العظيم يَكون عظيمًا، ونَظيرُ ذلك الدُّعاءُ الذي علَّمه النبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوجيهُ الخِطاب إلى الجماد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجماد يُحِسُّ بخِطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووَجْهُ ذلك: لولا أنه يُحِسُّ لكان تَوْجِيهُ الخِطاب إليه عبثًا؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عن العَبَث في أَقْواله وأَفْعاله، ويَدُلُّ على أنه يُحِسُّ بذلك أنها أَوَّبَتْ معه ورجَّعت.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من فَضائِل داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ الله تعالى أَمَر الجِبال أن تُسبِّح معه، بأن تُرجِّعَ معه التَّسبيح وقِراءة الزَّبور هي والطيرُ.

وهلِ الأَمْرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أَمْرٌ كونيٌّ أو أمرٌ شَرْعيٌّ؟

الجوابُ: أنه يَحتَمِل المَعنيَيْن فإذا نظَرْت إلى أنها مَأمورةٌ بعِبادةٍ قُلْتَ: إن هذا أمرٌ شَرْعيٌّ. وإذا نظَرْت إلى أن هذه الجِبالَ لو فُرِض أنها عصَتْ هل تُعاقَبُ؟

الجوابُ: الله تعالى أَعلَمُ، ربما تُعاقَب وربما لا تُعاقَب؛ لأنَّه ليس لها عَقْلٌ تُدرِك به كما يُدرِك بنو آدَمَ، قُلْت: إنه أَمْر كَوْنِيٌّ، وللتَّخلُّص من هَذَيْن الاحتِمالَيْن نَقول: إنَّ الله تعالى أمَرَ الجِبال أن تُرجِّع معه. ولا نَقول: أَمْرًا كونِيًّا ولا أَمْرًا شَرْعيًّا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ظُهور آية الله في تَمام القُدْرة، حيث أَلانَ الحَديد لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وهذه الإِلانةُ ليس لها سَبَب حِسِّيٌّ معلوم، لأنه لو كانت بالأسباب المَعْروفة لم يَكُن فَرْقٌ بين داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره، هذا هو الصحيح، وإن كان بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ أي: هَيَّئْنا له الأسباب التي يَلين بها الحَديدُ، ولكننا هَيَّئْنا له أسبابًا عظيمة قوِيَّة لا تَحصُل لغيره.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الحديد بطَبيعته قاسٍ، وهو كذلك، ولولا أن الله تعالى يُلينه بما جعَلَ من الأَسْباب ما انتَفَع الناس به، وهل هو أَقسَى أَمِ الحِجارة؟

الجوابُ: الحِجارةُ؛ ولهذا لا تَلين الحِجارةُ بالنار، والحديدُ يَلين بالنار.

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: فدَلَّ ذلك على أن الحِجارة أَقسَى، ولمَّا شَبَّه الله تعالى القُلوب القاسِيةَ قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَنَّ على داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى غيره بتَعليمه هذه الصَّنْعَةَ، وهي صَنْعة الدُّروع كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]، وهذا التَّعليمُ الذي علَّمه الله تعالى داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَقِيَ إلى يَوْمنا هذا، وهذا كما عَلَّم الله تعالى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ صُنْع السَّفينة؛ وأَشار الله تعالى إلى مَوادِّ بِنائها في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، أي: مَساميرَ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّه يَنبَغي لمَن صَنَع شيئًا أن يُكمِّله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، ولا يَنقُص منه شيئًا.

ويَنبَغي لمَن صَنَع شيئًا أن يُتقِنَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أَيْ: إِكْمالًا وإِتْقانًا.

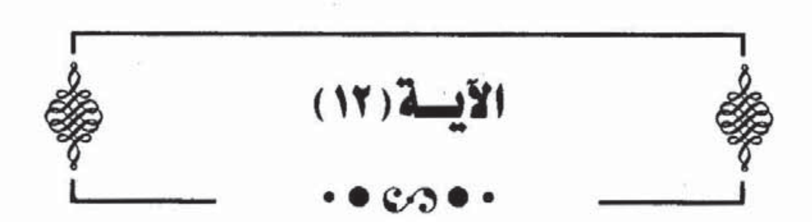
الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَجِب على مَن أَنعَم الله تعالى عليه نِعمةً أن يَقوم بشُكْرها بالعمَل الصالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى إذا أَنعَمَ على شَخْص من القَبيلة بنِعْمة فإنه إنعامٌ على القَبيلة كلها، ووجهُ ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فوجَّهَ الخِطاب إلى آلِ داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلهم، مع أن الفَضْل خاصٌّ بداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا إذا نَبَغَ نابِغة في قبيلةٍ من القبائل فإنَّه يَرفَع قَدْر هذه القَبيلةِ كلِّها، كما أن العَكْس بالعَكْس إذا سَفُل أحَدٌ من القبيلة عُيِّرتِ القَبيلة به كلُّها، وهذا أمر معلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذير من المُخالَفة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى بَصيرٌ بكل ما نَعمَل؛ من خيرٍ وشَرٍّ وقليلٍ وكثيرٍ وظاهرٍ وباطِنٍ، حتى أَعْمال القلوب يَعلَمها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، انتَبِهْ لا تُضمِرْ في قلبك شيئًا يُغضِبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّك إذا فعَلْتَ فإنَّ الله تعالى سَوْف يَعلَمه، ولا يَخفَى عليه شيء، قال تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

• ● ۞ ● •



الآية (١٢)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ:١٢].

•••

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿و﴾ [وَسَخَّرْنَا] ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، وإنما قَدَّر: [وَسَخَّرْنَا]؛ لأنَّ (الرِّيحَ) مَنصوبةٌ، فلا بُدَّ من تقدير عامِلٍ يَتِمُّ به النَّصْب، وهنا نُقدِّر ما يُناسِب وهو (سَخَّرْنا له) كما جاء ذلك في آية أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ هو ابن داوُدَ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وقد آتاهُ الله تعالى الرِّسالة والمُلْك مُلْكًا عظيمًا لا يَنبَغي لأحَدٍ من بَعْده؛ لأنَّ الله تعالى سخَّر له الإِنْس والجِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ هي الهَواء، سَخَّرَها الله تعالى له؛ أي: ذَلَّلَها بحيث تَجرِي بأَمْره يَأمُرها فتَتَّجِه إلى الشَّمال إذا كان يُريد ناحية الشَّمال، ويَأمُرها فتَتَّجِه إلى الجَنوب إذا كان يُريد ناحية الجَنوب، ويَأمُرها أن تَذهَب شَرْقًا فتَذهَب، وأن تَذهَب غَرْبًا فتَذْهَب، وأن تُسرِع فتُسرِع، وأن تُبطِئ فتُبطِئ؛ تَجرِي بأَمْره.

ولا يُقال: إن هذا يَدُلُّ على أنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُشارِك لله تعالى في الخَلْق؛ لأنه لا أَحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّف الهَواء، لوِ اجتَمَع الخَلْق كلُّهم على أن يُصرِّفوا الهَواء

ما استَطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وسُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَستَطيع ذلك، فلا يُقال: إنه شَريك لله تعالى؛ لأن الذي سخَّر الريح له هو الله تعالى.

ولهذا لا نَقول: إنَّ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَريك مع الله تعالى في الخَلْق، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]؛ لأنَّ قُدرة هَؤلاء الخَلْقِ على ما يَقدِرون عليه ممَّا لا يَقدِرُ عليه غيرهم من المَخلوقين إنها كانت بأَمْر الله، فهم لم يَستَقِلُّوا بذلك، ولكن الله تعالى أَعطاهم قُدرةً، كما أن الله تعالى يَمُنُّ على بعض العِباد بقُدْرةٍ هائِلةٍ في الحِفظِ أو في الفَهمِ أو في قُوَّة السَّمْع أو البَصَر أو البَدَن أو غير ذلك، فالرِّيحُ هي الهواء سُخِّرت لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وفي قراءة: [وَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ بتَقْدِيرِ: تَسْخِيرِ] تَركيب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا لبَيان القِراءة الثانية غريب، ما كان مَعهودًا منه، وكان الأَوْلى أن يَقول: وفي قِراءةٍ بالرَّفعِ على تَقدير تَسخير. هذا هو الأَوْلى؛ لأن قوله: وقِراءَةُ الرَّفْعِ. لم نَستَفِدْ: هل هذه القِرْاءةُ سَبْعيَّة أو شاذَّة؛ لأن المَعهود أنه يَقول في السَّبْعية: وفي قراءة. وفي الشاذِّ يَقول: قُرِئ. وهنا يَقول: وقِرَاءَةُ الرَّفْعِ. ما نَدرِي! لكن على كلِّ حال القِراءةُ سَبْعيَّة، ففيها قِراءَة: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرًا).

وقوله تعالى: (الرِّيحُ) إعرابُها على هذه القِراءةِ.

نَقول: إنها مُبتَدَأ مُؤخَّر، وأَصْل الكلام: تَسخيرُ الريح؛ فحُذِف المُضاف وأُقيم المُضاف إليه مَقامَه، وابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقولُ(١):

وَمَـا يَـلِي الْمُضَـافَ يَـأْتِي خَلَفَـا عَنْـهُ فِي الِاعْـرَابِ إِذَا مَـا حُـذِفَا

(١) الألفية (ص:٣٨).

أي: (لِسُلَيْمانَ تَسخيرُ الريح).

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: (لِسُلَيْمانَ الريحُ) أن (الريحُ) مُبتَدَأ بدون تَقدير. لم يَكُن بعيدًا، ويَكون مَعنَى كونِ الريح له أنها مُسخَّرة له، فيَكون له التَّصرُّف فيها.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي: [مَسيرها من الغُدوَة، بمَعنَى: الصَّباح إلى الزوال شَهْرٌ]، و﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، [سَيْرها من الزوال إلى الغُروب شَهْر]؛ أي: مَسيرة شهر.

الريح سخَّرها الله تعالى له إذا سارَت به من الصباح إلى الزوال فهي مَسيرة شهر؛ بسَيْر الإبِل، وعلى هذا فإنها تَكون سَريعة، رواحُها شَهْر فيَستَطيع أن يَذهَب إلى مكانٍ مَسيرتُه شَهْرٌ ويَرجِع إلى بلَدِه في نفس اليوم؛ لأنَّ غُدُوَّها شَهْر ورَواحَها شَهْر، ومع ذلك فقَدْ وصَفَها الله تعالى بأنها عاصِفة، ولكنها غير مُؤثِّرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]، وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]، فهي سريعة لكنها غير مُزعِجة، لكن كيف يَطير في الريح؟ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنه يَضَع بساطًا عادِيًّا ويَجلِس هو وحاشِيَته عليه، ثُمَّ يَأمُر الريح فتَطير بهم؛ بهذا البساطِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قديرٌ، والعادةُ أنه إذا كان الإنسان مع حاشِيَته على بساطٍ ويَرتَفِع أنه يَسقُط، هذه العادةُ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قديرٌ.

هل يُمكِن أن نَقول: إن قانون الطَّيَران بالطائِرات الحديثة مَبنِيٌّ على هذا؟

الجوابُ: نعَمْ قانون الطَّيَران مَبنِيٌّ على هذا، مَبنِيٌّ على الهَواء الذي تُولِّده هذه المُولِّداتُ، فهذه الطائِراتُ لا يَحمِلها إلَّا الهواءُ، وهي حديد، وثَقيلة وعليها أُناس وعليها عَفْش، ونفس المَراوِح هذه والاندِفاع هذا فيه هواء شديد؛ ولذلك انظُرْ

كيف تَنضَبِط إذا نزَلَتْ إلى الأرض بسبب الهَواء في مُؤخَّرها عند (الشُّكمان) فيها حديدة تَنعَكِس حتى تَرُدَّ الهواء؛ حتى لا تَندَفِع الطائِرة.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ هل هي في سُرْعة الطائِرة؟

الجوابُ: لا هي أقَلُّ من الطائِرة؛ لأنَّ الطائِرة تَذهَب مَسيرةَ شَهْر بأَقَلَّ من الغُدُوِّ، ولكنها أَسرَعُ من السيَّارة بلا شَكٍّ، يَبقَى علينا هذا المُرور السَّريع عادةً إذا لم يَكُن هناك حِجاب يَمنَع من عَصْفِ الهَواء؛ أن الهَواء يَعصِف بالراكِب حتى يَسقُط؟ لأنها دونَ الطائِرة وفوقَ السيَّارة في سُرْعتها، وبعض السيَّارات يَعصِف الهَواء فيها بالإنسان ويُقلِقه، لكنَّ الله تعالى بيَّن في آياتٍ أُخرى أن هذه الرِّيحَ تَكون رُخاءً ما فيها إِزْعاج ولا فيها قلَقٌ.

قال الله تعالى أيضًا ممَّا مَنَّ الله تعالى به على سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: أَذَبْنا له ﴿عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أيِ: النُّحاس، هذا أيضًا قد يَكون أبلَغَ ممَّا أُوتِيَه داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، أمَّا هذا فأَسَالَ الله تعالى له عَيْن القِطْر؛ يَعنِي: فجَّر له عَيْنًا من النُّحاس تَسيل كما يَسيل الماء مع إنها نُحاس، وهذا دليل على كَمال قُدرةِ الله؛ لأنَّ المَعروف أن النُّحاس مَعدِنٌ جامِد فجعَلَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنًا سائِلة كأنها الماء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.

وقوله: ﴿عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يَدفَع ما قيل: إنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُذيب النُّحاسَ فيَسيل، كما أن الرَّصاص إذا أَذَبْناه يَصير سائِلًا، كالزِّئْبَق.

فنَقول: لا، بل إن الله تعالى يَقول: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ فجعَل هذا عَيْنًا يَندَفِع من الأسفَلِ ويَسيل، ونحن نَعلَم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالِقُ الأشياءِ جامِدِها

ومائِعِها، وأنَّه قادِر على أن يَجعَل الجامِد مائِعًا والمائِع جامِدًا، وهذا الماءُ المائِعُ المُتدفِّق الجارِي لمَّا ضرَب مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاهُ البَحْر انفلَق فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، كالجَبَل العظيم، وهو ماءٌ سائِل ضرَبه مرَّة واحِدة فقطْ فتَفرَّق البَحْر وصار اثنَيْ عشَرَ طريقًا، كلُّ طريق بينَه وبين الطريق الآخَرَ مِثْلُ الجبَل من الماء، وهذا فوْق الأمر الطبيعيِّ؛ لأنَّ خالِق الأشياء قادِر على كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأُجْرِيَتْ لَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِنَّ كَجَرْيِ المَاءِ] هذا التَّقديرُ يَحتاج إلى تَوْقيف، يَعنِي: أنَّ الله تعالى أَجْراها له ثلاثةَ أيَّام فقَطْ قد نَقول: إن الله تعالى أَسَال له عَيْن القِطْر يَتصرَّف فيها كما يَشاءُ، وهذا يَقتَضِي أن تكون هذه الإِسالةُ مُستَمِرَّةً حيثُما أَرادَها وجَدَها، وهذا هو الأقرَبُ، ولا يُمكِن أن نُحدِّدها بثلاثة أيَّام إلَّا بدليل من الشَّرْع، إمَّا من الكِتاب أو من السُّنَّة، وليس في الكِتاب تَحديد، وكذلك ليس في السُّنَّة، فالأَوْلى أن نَجعَلها على ظاهِرها.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَعَمَلُ النَّاسِ إِلَى اليَوْمِ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ] يَعنِي: أن انتِفاع الناس بهذا النُّحاسِ وتَذويبه حتى يَكون كالماء هذا أثَرُه من عمَل سُلَيمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعنِي: أن النُّحاس إنما ذاب من وقت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليَوْم، وقد قِيل: إن النُّحَاس من قَبْلُ كان لا يَذوب أبدًا، ولكنه في عَهْد سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذابَ وصارَ مُستَمِرَّ الذَّوَبان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾: ﴿مِنَ﴾ للتَّبْعيض، و﴿ٱلۡجِنِّ﴾ عالَم غَيْبيٌّ مُستَتِرٌ عن الأَعْيُن؛ ولهذا جاء بلَفْظ الجِنِّ، وأَصل هذه المادَّةِ -الجِيمُ والنُّون- الاستِتار؛ ومنه سُمِّيَت الجُنَّة التُّرْس الذي يَستَتِر به الإنسان، وسُمِّيَتِ الجَنَّة للبُستان الكثير الأشجار؛ لأنه يَجِنُّ مَن فيه، أي: يُغطِّيه، وسُمِّيَت

الجَنَّة أيضًا لهذا السبَبِ، وسُمِّيَ الجَنين؛ لأنه مُستَتِر، فهذه المادَّةُ -الجيم والنون- كلُّها تَدُلُّ على الخَفاء والاستِتار.

فالجِنُّ إِذَنْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ ليسوا بظاهِرين، لكنهم قد يُرَوْن، هذا العالِمِ مِنهم صالِح ومِنهم دون ذلك، ومنهم مُسلِم ومنهم كافِر، كما في سورة الجِنِّ، يَأْكُلون ويَشْرَبون ويَتَقَيَّئون ويَبُولون؛ كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ، وهؤلاءِ الجِنُّ قد يَظهَرون أمام الناس ويُشاهَدُون، إمَّا بصُورِهم التي هم عليها وإمَّا بتَصَوُّرات ثانية، وإمَّا على صورة القِطَط، أو على صورة الدَّوابِّ كما جاء في الحديث الصحيح في النَّهْيِ عن قَتْل الجِنَّانِ التي تكون في البيوتِ[1]؛ لأنَّ بعضَها قد يَكون من الجِنِّ ورُبَّما يَتَلبَّسون بالإنسان؛ أي: يَدخُلون في جَوْفه حتى يَكون كاللِّباس لهم، فيَصرَعونه ويُؤْذُونَه.

وقد أشار الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، يَعنِي: مثل المَصروع الذي صَرَعه الشَّيْطان، وهذا الصرعُ؛ أي: صَرَع الجِنِّيِّ للإِنْسيِّ لا يُنكِره إلَّا المَلاحِدة، كما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المَعاد[2]: إنهم لم يَصِلوا إلى هذا النَّوْعِ من الصرَعِ فجعَلوا يُنكِرونه ويُحيلون جميع أنواع الصَّرَع إلى صرَع الأعصاب والمُخِّ وما أَشبَهَ ذلك، وصرَعُ الجِنِّ للإِنْس مَعلوم بالمُشاهَدة أيضًا، فلا يُنكِره إلَّا مُكابِر، لأنه شُوهِد مَنْ يُصرَع ويُخاطَبُ الجِنِّيُّ الذي صرَعه مُخاطَبَةً صَريحةً واضِحة، وجرَى ذلك على يَدِ أئِمَّة الإسلام كالإمام أحمدَ وشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وغيرهم إلى يَوْمِنا هذا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم، رقم (٣٣١٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٣)، من حديث أبي لبابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦١).

جِيءَ مرَّةً بمَصروع إلى شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوَعَظ الجِنِّيَ الذي صرَعه ونَصَحه وقال له: اخْرُجْ. فقال: إني لا أَخرُج، إني أُحِبُّه وكانت امرأةً التي صرَعَتْه، قالت: إني أُحِبُّه. فقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكنه لا يُحِبُّكِ. فقالَتْ: إني أُريد أن أَحُجَّ به -بأَنْ تحمِله إلى مَكَّةَ- فقال: إنه لا يُريد أن يَحُجَّ معَكِ. ثُمَّ وعَظَها فلَمْ تَتَّعِظْ، ثُم ضرَبَها شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعَل يَضرِبها على رقَبةِ هذا المَصروع؛ يَقول: حتى تَعِبَت يَدي مِن الضَّرْب. فقالت: أنا أَخرُج كرامةً للشَّيْخ. فقال: لا تَخرُجي كرامةً لي، اخْرُجي طاعةً لله تعالى ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فخَرَجت على ألَّا تَعود، فأَفاق الرجُلُ، فلَمَّا أَفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حَضْرة الشيخِ؛ يَعنِي: شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقِيلَ له: إنه قد فعَل كذا وكذا. فقال: والله ما أَحْسَسْتُ بشيء من هذا، لا أَنِّي خاطَبْته ولا أنه ضرَبَني. وهذه القِصَّةُ ذكَرَها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد[1] عن شيخه، وابنُ القَيِّمِ ثِقَة، وشيخ الإسلام كذلك ثِقَة، وقد ورَدَ مِثْلُ ذلك عن الإمامِ أحمدَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَتَلبَّس الجِنِّيُّ الذَّكَر بالإِنْسيِّ الذَّكَر، والعكسُ، أم أنه فقَطْ يَتلبَّس الرجُلَ امرأةٌ والعَكسُ المرأةُ يَتَلبَّس بها رجُل من الجِنِّ؟

فالجوابُ: قد يَتَلبَّس بالرجُل رجُلٌ، ويَكون مَثَلًا مُولَعًا به لسبَب من الأسباب، وكذلك العكسُ.

إِذَنِ: الجِنُّ نَقول في تَعريفهم: عالَمٌ غَيْبيٌّ مُستَتِرون عن الإنس، وربَّما يَظهَرون، ومِنْهم صالِح، ومِنْهم دون ذلك، ومِنْهم قاسِط، ومنهم مُسلِم، ويَأكُلون ويَشرَبون

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٣).

(٢) انظر: الفروع (٢/ ٤٦٦).

ويَبولون ويَتَقيَّئون، كل هذا ثبت في القُرآن وفي السُّنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ﴿مَن﴾ بمَعنَى: الذي، ﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهي اسْمٌ مَوصولٌ، وما محَلُّها من الإعراب؟

الجوابُ: يُحتَمَل أَنْ يَكون محَلُّها الرفعَ على أنها مُبتَدَأ مُؤخَّر، وخبَرُه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، ويُحتَمَل أنها في محَلِّ نَصْب؛ يَعنِي: وسَخَّرْنا له من الجِنِّ مَن يَعمَل بين يديه، وأيُّهما أَوْلى؟ سبَق وأن ذكَرْنا قاعِدة؛ أنه إذا دار الأَمْر بين التَّقدير وعدَم التَّقدير فعدَمُ التَّقدير أَوْلى؛ لأنه الأَصْل، والأَصْل أن الكلام لم يُحْذَفْ منه شيءٌ، وعلى هذا فنَقول: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم، و﴿مَن يَعْمَلُ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: يَدَيْ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعنِي: أمامَه، لكن ﴿بِإِذْنِ﴾ [بِأَمْرِ] ﴿رَبِّهِۦ﴾، والإِذْنُ هنا كَوْنيٌّ، يَعنِي: أنَّ الله تعالى سخَّر الجِنَّ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإِذْنه، بأَمْره الكونيِّ، قد يُقال: إنه إِذْنٌ شَرْعيٌّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [يَعْدِلُ] وقِيل: يَمِلْ، أي: يَميل، وهذا أَقرَبُ، ومنه: زاغَتِ الشمسُ، أي: مالَت عن وسَطِ السَّماء، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يَعنِي: مَن يَمِلْ ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ [لَهُ بِطَاعَتِهِ لَهُ] أَيْ: للجِنِّ [بِطَاعَتِهِ] أي: بطاعة سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار في الآخِرة، ﴿نُذِقْهُ﴾ ما الذي جزَمها؟ ﴿مَن﴾؛ لأنها جوابُ الشَّرْط، وفِعْل الشَّرْط ﴿يَزِغْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: نُعذِّبه بالنار حتى يَذوق عَذابها، وهل هذه نارُ الدُّنيا أو الآخِرة؟ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَضْرِبَهُ مَلَكٌ بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَةً تُحْرِقُهُ].

والله أعلم هل عذابه في الدُّنْيا بواسِطة المَلَك، أو أن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُذِنَ له بتَعذيبهم في النار.

إذن فالذي يَزيغ من الجِنِّ عن أَمْر الله بطاعته سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا يُعذَّب بالنار، إمَّا في الدُّنْيا وإمَّا في الآخِرة، ولكن إذا قُلْنا: إنه في الدُّنيا، فإنه لا يَتعيَّن أن يَكون الأمر كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه مَلَك يَضرِبه بسَوْط منها حتى يُحرِقه.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنَّ طاعة الجِنِّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَمْر الله الكَوْنيِّ فهل هذه تُعتبَر لهم عِبادة لله عَزَّ وَجَلَّ؟

فالجوابُ: بلى؛ ولهذا قُلْنا: فيه احتِمال إِذْنٍ شَرْعيٍّ، ويُؤَيِّده قوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾، وهذا أَرجَحُ، لكنه لا يَمنَع الأوَّل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَدخُل الجِنُّ الجَنَّة؟ وماذا يَستَفيدون منها؟

فالجوابُ: أن الله تعالى يَقول في آخِر سورة الرحمنِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]؛ فالخِطاب في ﴿رَبِّكُمَا﴾ يَعود للجِنِّ والإِنْس، فإذا كان الجِنُّ لا يَستَفيد من هاتين الجَنَّتَيْنِ فما فائِدة خِطابهم في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟! ثُمَّ إنه قال في نَفْس الآيات: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]؛ وهذا أيضًا يَدُلُّ على أنهم يَدْخُلون الجَنَّة، وهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أمَّا دُخول الكافِر منهم النارَ فإنه بالاتِّفاق؛ لأن الله تعالى نَصَّ عليه في القُرآن، وأمَّا دُخول المُؤمِن منهم الجَنَّة فهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ أهل العِلْم.

وأمَّا قول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١]، لا يَمنَـع من دُخولهم الجَنَّة؛ لأنه لم يَقُـلْ: ويُدخِلْكم الجَنَّة. وليس فيها دليلٌ على أنَّ دُخولهم الجَنَّة ممنوع؛ لأن مَن أُجير من العذاب الأليم فليس هناك في دار الآخِرة إلَّا دارانِ؛ إمَّا نار وإمَّا جَنَّة، وعندنا آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على أنَّ مَنْ آمَن وعَمِل صالحًا فله جَنَّاتُ المَأْوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكَوْنية لبعض عِباده آيةً له؛ لأن الريح لا أحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّفها كما يَشاءُ، وسُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُخِّرَت له تَجرِي بأَمْره، فيُستَفاد من هذا أن الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكونية آيةً لبَعض عِباده كهذا، وهل يُمكِن أن يَأتيَ مِثْلُ ذلك لغير الرُّسُلِ؟

الجوابُ: الظاهِر أنه لا يُمكِن، وما ذُكِر عن بعض الخُلَفاء أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخَّر له الريح يَأمُرها كما يَشاءُ وتَنقُل جُنْده فإن هذا في صِحَّتِه نظَرٌ، والظاهِر أنَّ مِثْلَ آياتِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تكون كَرامةً للأَوْلياء، صحيح أن بعض آيات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تكون كرامةً لبعض لأَوْلياء، أمَّا الآياتُ الكبيرة كهذه فالظاهِرُ -والله أَعلَمُ- أنها لا تكون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للريح سُرْعةً عظيمةً، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات وُجود الجِنِّ، وهذا ثابت بالكِتاب والسُّنَّة وإِجْماع المُسلِمين؛ ولهذا مَنْ أَنكَر وُجود الجِنِّ فقَدْ كذَّب القُرآن ويُحكَم بكُفْره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجِنَّ يَعمَلون للإِنْس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن

يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، ولا شكَّ أن عمَلَهم بين يَدَيْه آيةٌ له دالَّةٌ على نُبوته ورِسالته، لكن هل يعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ يقول شَيْخُ الإسلام[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: نعَمْ، إنهم يَعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعمَلُهم لغَيْر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ له سببٌ، إمَّا أن يَكون سببُه الشِّرْك؛ بمَعنَى: أنَّ الجِنَّ تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُدهم، أو تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُد مَن يُعظِّمونه، هذا واحِد، وقد يَكون سببُه أنهم يَعشَقون هذا الإنسانَ فيُحِبُّونه حُبًّا؛ يَعنِي: ليس لله تعالى، لكن مَثَلًا لجَمال صُورته أو ما أَشبَهَ ذلك، ومن أسباب ذلك أنهم يَعمَلون له محَبَّةً لله تعالى؛ لكونهم صالِحين فأَحَبُّوا هذا الرجُلَ الصالِحَ فعمِلوا له، فعمَلُهم له يَقول شيخُ الإسلام[٢] رَحِمَهُ اللَّهُ: إن عمِلوا له أمرًا محُرَّمًا كان ذلك حَرامًا، مثل أن يَستَخدِمهم في أَذِيَّة المُسلِمين، أو في الاعْتِداء على شخص مُعيَّن يُروِّعونه أو يُنفِّرون إبِلَه، أو ما أَشبَهَ ذلك، فهذا حرام، فإذا استعَان بهم بطريق المَعصية أو من أَجْل المَعْصية كان ذلك حرامًا بلا شَكٍّ، أمَّا إذا استعَان بهم في الأَمْر المُباح فإن هذا لا بأسَ به إذا خلا عن شِرْكٍ وعن عُدوان على الغير.

فإن قُلْتَ: إن القول بإِباحة الاستِعانة بهم في غير المَعْصية يُشكِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام:١٢٨]، فإنَّ ظاهِر هذا أنه لا يجوز أن يَستَمتِع الجِنُّ بالإِنْس؛ ولا الإِنْس بالجِنِّ؟

---

(١) انظر: النبوات (١/ ٥٢٧، ٢/ ١٠٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧-٣٠٨)، والنبوات (١/ ٥٢٨).

فالجوابُ: قد ذكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتاب النُّبوات[1] أو في كِتاب إيضاح الدَّلالة على عموم الرِّسالة ذكَرَ أَشْياءَ واضِحةً عن السلَف بأنهم رُبَّما يَنْتَفِعون بالجِنِّ في الإِخْبار عن الأشياءِ البَعيدة، والأَمْر الواقِع شاهِدٌ بذلك، فإننا نَسمَع قضايا عن بعـض الناس أن الجِنَّ تُعينـهم على ما يُريد معَ صلاحِـهم وعدَم شِرْكهم وعـدَم مَعصيتهم.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الجِنِّيُّ على الإِنْسيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

وهل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الإِنْسيُّ على الجِنِّيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

أمَّا الأوَّلُ فظاهِرٌ كثيرًا أن الجِنَّ يَعتَدون على الإنس، أحيانًا يُروِّعونهم في الطُّرُقات، بل ورُبَّما في البُيوت، وأحيانًا يُفسِدون عليهم شُؤُونهم، وأحيانًا يَرمُونهم بالحِجارة، وأحيانًا يُؤذُونهم بالأصوات، وهذا شيء لا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأنه أَمْرٌ واقِع مُشاهَد.

وكذلك الإنس رُبَّما يَعتَدون على الجِنِّ؛ فلو أنَّ أَحَدًا استَجْمَر بعَظْمٍ أو برَوث لكان مُعتَديًا على الجِنِّ؛ لأنَّ العَظْم طعامُ الجِنِّ، والروث طعام دَوابِّهم، فيَكون في هذا عُدوان من الإِنْس على الجِنِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَدخُل الجِنِّيُّ في بدَن الإِنْسِيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ، ولا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأن هذا أَمْر واقِع محَسوس

(١) النبوات (٢/ ١٠٥٩-١٠٦١)، و مجموع الفتاوى (١٣/ ٨٧-٨٨).

ثبَتَتْ به الأَخبارُ وتَواتَرت، وشاهَدَهُ الناس، وقد ذكَرْنا أن الإمام أحمدَ وشيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ يُؤتَى إليهم بالمَصروع فيُخاطِبونه، ويَكون الخِطاب على مَنْ صرَعه، ويَضرِبونه أيضًا ويَكون الضَّرْب على مَن صرَعه، أي: على الصارِع لا على المَصروع.

وفي القُرآن ما يُشير إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، والمَسُّ مَعناه: الصَّرْع؛ ولهذا يُقال: (بِهِ مَسٌّ من الجِنِّ)، أي: صَرع، والذي يَتَخبَّطه الشَّيْطان من المَسِّ؛ يَعنِي: يَكون مُخبَّلًا لا يُحِسُّ ولا يَعرِف؛ قال أهل العِلْم رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنَّ هؤلاءِ يَقومون مِن قُبورهم كمِثْل المَجانين الذين أَصابَتْهمُ الشَّياطينُ.

وأمَّا إنكار بعض الناس لهذا فقد قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: إن هؤلاءِ الفَلاسِفةِ الذين أَنكَروا ذلك لا يَعلَمون من الشَّرْع كما يَعلَمه أهلُ الشَّرْع، فهم يُنكِرون ما غاب عنهم، ولا يُقِرُّون إلَّا بالشيء المَحسوس، وأَنكَر عليهم إنكارًا عظيمًا في (زاد المعاد)[1].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجِنَّ قَد يُشاهَدون، مِن مَفهوم الآية مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن الظاهِر أنهم يُشاهَدون، وهم يَعمَلون بين يدَيْ سُليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَعنِي: أَمامَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجِنَّ مُكلَّفون؛ بمَعنَى أنهم إذا خالَفوا عُذِّبوا، ومن تَمام عَدْل الله تعالى أنهم إذا وافَقوا نُعِّموا، أمَّا كَوْنهم يُعذَّبون إذا خالَفوا فهذا أَمْر مُتَّفَق عليه بين العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ، وأمَّا كافِرهم فيَدخُل النار، وأمَّا دُخول مُؤمِنهم الجَنَّة؛

(١) زاد المعاد (٤/ ٦١).

ففيه خِلاف بين العُلماء رَحِمَهُمُاللَّهُ، والصوابُ: أنهم يَدخُلون الجَنَّة؛ لقوله تعالى في سورة الرحمن وهو يُخاطِب الجِنَّ والإِنْسَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فيكون هؤلاء الجِنُّ إذا خافوا الله تعالى فلَهُمُ الجَنَّةُ، وقال في أثناء ذلك أيضًا: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]، وكلِمة (ولا جانٌّ) لا تَتَناسَب مع الإِنْس وإنَّما تَتَناسَب مع الجِنِّ، وهذا هو القولُ الحَقُّ المُتعيِّن.

ولا يُعارِض ذلك قولُه تعالى عن الجِنِّ الذين صرَفهم الله تعالى إلى النبيِّ ﷺ يَستَمِعون القُرآن حين ولَّوْا إلى قَوْمهم مُنذِرين؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠-٣١]، فيُقال: إن الله تعالى إذا أجارهم من العَذاب الأليم فلازِم ذلك أن يُدخِلهم الجَنَّة؛ لأن الآخِرة ليس فيها إلَّا دارانِ هما الجَنَّة أو النار، فمَن نَجا من النار دخَل الجَنَّة ولا بُدَّ، فالجِنُّ مُكلَّفون، لكن هل تكليفهم كتكْليف الإنس؟ بمَعنَى: أن صَلاتَهم كصلاتِنا وصِيامهم كصيامنا وحَجَّهم كحَجِّنا أو يَختَلِفون عنَّا؟

الجوابُ: في هذا احتِمالانِ:

الاحتِمال الأوَّلُ: أن يَكون ما كُلِّفوا به مُساوٍ لما كُلِّفنا به من كل وَجْهٍ، ما دام الرسول ﷺ مَبعوثًا للجِنِّ والإِنْس، ولم يَأْتِ القُرآن ولا السُّنَّة بالتَّفريق بين أحكام الإِنْس والجِنِّ، فالواجِب إِجْراؤُها على ما هي عليه، وأن تكون هذه الأحكامُ ثابِتةً في حقِّ الإِنْس والجِنِّ على حدٍّ سواءٍ.

والاحتِمال الثاني: أن تكون الواجِباتُ بالنِّسبة للجِنِّ مُوافِقةً لما هُمْ عليه مُناسِبةً

لهم، فلا يَلزَم على هذا أن يَكونوا مُساوِين للإنس؛ لأن الله يَشرَع الأحكام مُناسِبةً لَمن شُرِعت له، فهذا المَريضُ مَثَلًا هل عليه صَوْمٌ؟ إذا كان المَريض لا يُرجَى زَوالُ مَرَضِه ففَرْضه الإطعام، والفقير ليس عليه زكاة وليس عليه حَجٌّ.

فلَمَّا كان اختِلاف الشرائِع ظاهِرًا بالنِّسبة للإِنْس لاختِلاف أحوالهم فإنه يَلزَم أن تَكون الشرائِع أيضًا مُختَلِفة في الجِنِّ عن الإِنْس؛ لأنَّ الجِنَّ لا شَكَّ كما قال شيخُ الإسلام[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: مُخالِفون للإِنْس في الحَدِّ والحقيقة، وحقيقتهم ليست كحقيقة البَشَر وحدُّهم وحُدودهم وطاقاتُهم ليسَتْ كحُدود وطاقات البَشَر، فإذا كانوا مُخالِفين للبَشَر في الحَدِّ والحقيقة لزِمَ أن يَكونوا مُخالِفين لهم في الأحكام الشرعية، وهذا فيما يُمكِن الاختِلاف فيه.

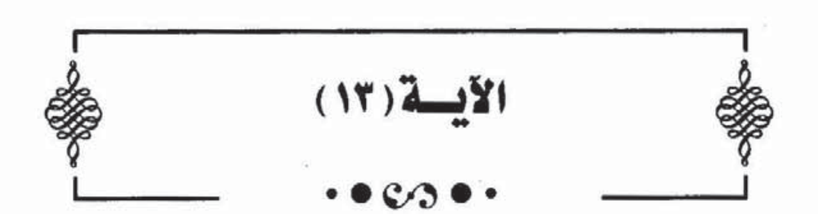
أمَّا ما لا يُمكِن كالتوحيد وأَصْل الرِّسالة وما أَشبَهَ ذلك فهذا أَمْرٌ نَعلَم عِلْم اليَقين أن الجِنَّ مُساوُون للإِنْس في تلكَ الأحكامِ، لكن الكلامَ على المَسائِلِ الفَرْعية التي يَختَلِف فيها المُخاطَبون لاختِلاف أحوالهم.

فالمَسأَلةُ فيها احتِمالان، ولكن شَيْخ الإسلام[2] رَحِمَهُ اللَّهُ جزَمَ بأن الأحكام التي كُلِّف بها الجِنُّ تُخالِف الأحكام التي كُلِّف بها الإنسُ، وأنهم مُكلَّفون بالجُمْلة بدون أن يُساوُوا الإِنْس، والعِلْم عند الله تعالى.

• • ۞ • •

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).



قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

•••

قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ ﴾ أي: لِسُليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنه قيل: ماذا يعملون؟ ففَصَّل فقال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾: ﴿مِن﴾ بيانيَّة مُبيِّنة للإبهام في الاِسْم المَوْصول، وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يعني ﴿مَا﴾ اسْمٌ مَوْصول، ومَعلومٌ أن الاِسْم المَوْصول من الأَسْماء المُبهَمة.

فقوله: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَبْنِيَةٍ مُرْتَفِعَةٍ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجٍ]، فالمَحاريبُ: عِبارة عن أَبنِية مُرتَفعة ذاتِ أسوار مَنيعة قال الله تعالى في داوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، وأمَّا مِحراب المَسجِد فيُسمَّى طاقًا.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ [جَمْعُ تِمْثَالٍ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ مَثَّلْتَهُ بِشَيْءٍ أَيْ: صُوَرٌ مِنْ نُحَاسٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ]، التَّماثيلُ: جَمْع تِمْثال وهو ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَرَ، فكُلُّ ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَرَ؛ فإنه يُقال: تِمْثال له.

وعلى هذا فيُمكِن أنَّ نَقول لِمَنْ صَوَّر صُورة شَجْرةٍ ونَحَتَها من جِسْم نَقول له: إنَّ هذا تِمْثال للشَّجَرة، وكذلك نَقول لِمَن نَحَتَ خَشَبًا أو حَجَرًا على صورة حَيوان نَقول: إن هذا تِمْثالٌ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزَم بأن المُراد بالتَّماثيل ما كان تِمْثالًا لحَيوان؛ ولهذا قال: أَوْ صُوَرًا. وكلُّ شَيْء مَثَّلْته بشيءٍ هذا أَصْلُ التِّمثال أو صُوَر النُّحاس وزُجاج ورُخام، والنُّحاس مَعروف، والزُّجاج أيضًا مَعروف، والرُّخام.

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ] فهذا مَبنِيٌّ على أن المُراد بالتَّماثيل تَماثيلُ ما يَحرُم تَصويره كالحَيوان من إنسان وغيره، ولكن نَقول: إنَّ هذا لا يَلزَم أن يَكون المُراد بالتَّماثيل هي صُوَر الحَيوان، فمن الجائِز أن يَنحِتوا له مِمَّا ذُكِر من النُّحاس والزُّجاج والرُّخام، كأن يَنحِتوا له أشياءَ على صُوَر شجَر، ويُقال: إنَّ هذا تِمْثال.

ويُوجَد الآنَ مُجسَّمات يَجعَلونها على صُورة نَخْلة، وعلى صورة سَيْف، وعلى صورة قَصْر، وما أَشبَه ذلك، نَقول: هذا تِمْثال. ويُوجَد أيضًا مُجسَّمات على صورة حَيوان؛ أسَد أو جَمَل أو بَقَر أو ما أَشبَه ذلك هذا أيضًا تِمْثال.

فنَقول: إن كان قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عامٌّ لتِمْثال الحَيوان والأشجار وغيرها فنَحتاج حينئذٍ أنَّ نُجيب بما أَجاب به المُفَسِّر؛ وهو أن الصُّوَر في شَريعتهم ليست حرامًا، ولكن ما دامَ الأمر غير لازِمٍ، إِذْ مِنَ المُمكِن أن تَكون التماثيلُ التي يَأمُرهم بها تَماثيلَ أشياءَ يَجوز تَصويرها فلا حاجةَ إلى هذا الجوابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجِفَانٍ﴾ جَمْعُ جَفْنَة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ جَمْعُ جَابِيَةٍ وَهِيَ

حَوْضٌ كَبِيرٌ] والجَفْنة: هي الصَّحْفة التي يُوضَع فيها الطعام، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جَمْع جابِية، والجابِية: هي الحَـوْض الكبير، ومنه البِرْكَةُ تُسمَّى جابية، حتى الآنَ يُسمُّون البِرَك الجوابيَ، وهل الجِفان على ما تَقتَضيه الآية الكريمة جِفانٌ كبيرة واسِعة؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُبيِّنًا سَعتَها: [يَجْتَمِعُ عَلَى الجَفْنَةِ أَلْفُ رَجُلٍ يَأْكُلُونَ مِنْهَا]، وهذا قد يَكون واقِعًا وقد يَكون الأمر أكبَرَ من هذا، وقد يَكون دونَ هذا.

المُهِمُّ: أنَّ هذه الجِفانَ بسَعَتها وكِبَرها مِثْلُ الجوابي وهي الأحواض الكبيرة، يَعنِي: البِرَك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثَابِتَاتٍ لَهَا قَوَائِمُ لَا تَتَحَرَّكُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، تُتَّخَذُ مِنَ الجِبَالِ بِالْيَمَنِ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ].

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ﴾ جَمْع قِدْر، وهو ما يُطبَخ فيه الطعام.

قوله تعالى: ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الراسِي الثابِت، وإنما كانت راسِيةً في الأرض لكِبَرها، فهي لكِبَرها لا يَستَطيعُ أَحَدٌ أن يَتناوَلها ويَقلِبها، والعادةُ أن القُدور مَنقولةٌ مَقلَّبة، لكنَّ هذه لكِبَرها وسَعَتها راسِية لا تَتحرَّك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَهَا قَوَائِمُ] المُراد به: المَناصِب التي تُنصَب عليها يَعني: أرجُلًا، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُتَّخَذُ مِنَ الجِبَالِ بِالْيَمَنِ]، وهذا ليس بلازِم أنها مُتَّخَذة من الجِبال، وإن كانت القُدور قد تُتَّخَذ من النُّحاس والحَديد، وكذلك من الأَحْجار يُمكِن أن تُنحَت وتكونَ قِدْرًا، ومُمكِنٌ أن تُجعَل طينًا يُتَّخَذ منه الفَخَّار؛ ولكن ليس بلازِم، يَعنِي: تُتَّخَذ من الحديد والنُّحَاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنَا: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ يا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ بِطَاعَةِ الله ﴿شُكْرًا﴾ لَهُ

عَلَى مَا آتَاكُمْ] أَفادَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ جُملة في محَلِّ نَصْب لقولٍ محذوف التقديرُ: [قُلْنَا:] ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، وأمَّا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ فهي مَنصوبة بـ(يا) النِّداء المَحذوفة؛ أي: يا آل داودَ، وآل داودَ هنا ذُرِّيَّته وقرابتُه؛ لأنَّ الله تعالى أَنعَمَ على هذه القَبيلةِ؛ قبيلة داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنِعَمٍ عَظيمة، أَنعَمَ على أبيهم وعلى ابنِهِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿شُكْرًا﴾ أَفادَنا بتَقدير الشُّكْر لله تعالى على أن ﴿شُكْرًا﴾ مَفعولٌ مِنْ أَجْله وأنَّ مَفعول ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ محذوف، تَقديرُه: بطاعة الله تعالى؛ يَعنِي: اعمَلوا بطاعة الله تعالى لأَجْل الشُّكْر لله تعالى، ويحتَمل أن تكون ﴿شُكْرًا﴾ مَفعولًا به لـ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾؛ يَعنِي: اعمَلوا الشُّكْر، والشُّكْر هو: الطاعة، ولكن هذا الوَجْهَ نَسلَم فيه من التَّقدير، أمَّا على الوَجْه الأَوَّل فإنه لا بُدَّ أن نُقدِّر مَفعول: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾.

والشُّكْر عرَّفه العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنه: القِيام بطاعة المُنعِم في القَلْب واللِّسان والجوارِح، أمَّا في القَلْب فأن تَعتَقِد بأن ما بِكَ من نِعمة فهي مِن الله تعالى، وأمَّا في اللِّسان بأن تُثنِيَ على الله تعالى بالنِّعمة، لا تَذكُر النِّعمة افتِخارًا بها على الناس، وأمَّا الجوارِح فأَنْ تَكون بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَختَصُّ بتِلكَ النِّعْمةِ أو بطاعته على سبيل العُموم.

والفَرْق بين هذ ا وهذا؛ إذا قُلْنا: أن تَقوم بطاعة الله فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ، فإذا أَنعَمَ الله تعالى عليكَ بمال فشُكْرُهُ الزكاةُ والإنفاق، وما أَشبَهَ ذلك، فإذا عَصَيْت الله تعالى في غير ذلك لا يُقال: إنك لم تَقُمْ بشُكْر المال. أمَّا إذا قُلْنا: إن الشُّكْر هو أن تَقوم بطاعة الله تعالى فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ وفي غيره؛ فإن الإنسان إذا أُنعم عليه بمالٍ وقام بحَقِّه على الوَجْه الكامِل، ولكنه يَعصِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أُمورٍ أخرى يُقال: إن هذا ليس بشاكِرٍ.

ولكن قد نَقول: إن الشُّكر نَوْعان: شُكْر مُطلَق؛ وهو الذي يَقوم بطاعة المُنعِم فيما أَنعَم به عليه فيه وفي غيره، وشُكْر خاصٌّ مُقيَّد لهذه النِّعْمة المُعيَّنة؛ فيَكون هذا الشاكِرُ إذا قام بما يَجِب عليه في هذه النِّعْمةِ المُعيَّنة شاكِرًا، لكنه لا يُعطَى وَصْف الشَّكور، ونَظيرُ ذلك ما سبَقَ لنا في التَّوبة، أنَّ التَّوْبة تَصِحُّ من الذَّنْب مع الإصرار على غيره، لكن لا يَستَحِقُّ التائِبُ وَصْف التَّوْبة المُطلَق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ العامِل بطاعَتي شُكرًا لنِعْمتي، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبَرٌ مُقدَّم، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مُبتَدأٌ مُؤخَّر؛ لأن المَقصود الإِخْبار عن ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بأنه قليل، ويَكون تَقديرُ الآية: والشَّكورُ من عِبادي قليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ هو مُتعَلِّق بما بعده فلَمَّا قُدِّم عليه صار في مَوضِع نَصْبٍ على الحال؛ يَعنِي: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ حال كونه من عباده ﴿وَقَلِيلٌ﴾ وتَعليل ذلك أن أكثَرَ بَني آدَمَ غيرُ شَكور، بل هم ضالُّون، فبَنو آدَمَ يَكون منهم تِسْعُ مئة وتِسعةٌ وتِسعون في النَّار وواحِدٌ في الجَنَّة، ولا شَكَّ أن واحِدًا إذا نُسِب إلى المِئة يَكون قليلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ المُراد بالعُبودية هنا: العامَّة الشامِلة للكافِرين والمُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ سخَّر الجِنَّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعمَلون له ما يَشاءُ، وهذا لا يَتأَتَّى لأحَدٍ من البَشَر، نعَمْ رُبَّما تَعمَل الجِنُّ لبعض البشَر أَشياءَ، لكن لا تَكون قائِمةً بما شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز البِناء العالي؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز التَّماثيـل، وهل يَشمَل التَّماثيل بالحيـوانات والأشجار والبِحار والأنهار؟

الجوابُ: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَشـمَل؛ لأنه قال: هذا كان قَبْـلَ تَحريم الصُّوَر. وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَشمَل؛ لأنَّ التَّماثيل تُطلَق على كلِّ ما كان مِثالًا على غيره، ولا يَلزَم أن تكون على صورةِ الحَيوان، فعلى رَأْيِ المُفَسِّر يَكونُ الحُكْم مَنسوخًا بشريعة النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيُستَفاد منه فائِدة وهي جواز النَّسْخ في الأحكام الشَّرْعيَّة، وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَكون دالًّا على جواز تَماثيل الحيوانات.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كثرة جُنود سُلَيْمان وكرَمه؛ لأن الجِفان كالجَوابي والقُدور راسِيات.

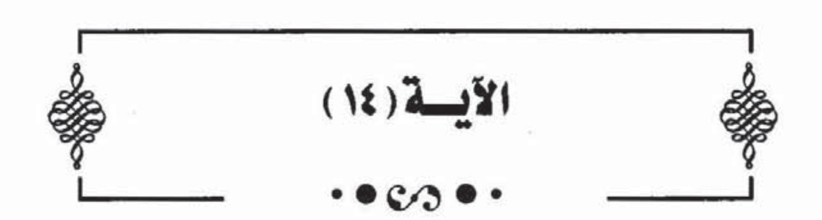
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوب القِيام بشُكْر الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرًا﴾ والأَمْرُ في الأصل للوُجوب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشاكِر على النِّعمة قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ والمُراد بهذه الجُمْلةِ الحثُّ على الشُّكْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات العُبودية العامَّة الشامِلة؛ لقَوْله تعالى: ﴿مِّنۡ عِبَادِيَ﴾ فإن المُراد بها العُبودية العامَّة الشامِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبٌ لفَخِذٍ كامِل من بني إسرائيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ كما يُقال: بنو تَميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أَشبَه ذلك.

• • ۞ • •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

•●ෆ●•

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي: [عَلَى سُلَيْمَانَ] ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ [أَيْ: مَاتَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَيْنَا﴾ أي: قدَّرْنا عليه الموتَ فماتَ، والقَضاءُ هنا قَضاء قدَرِيٌّ، وقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: قدَريٌّ وشَرْعيٌّ، فهُنا ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ القَضاءُ قدَريٌّ، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤] هذا أيضًا قضاءٌ قدَريٌّ، أي: قدَّرْنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شَرْعيٌّ، وهذا إذا تَعلَّق بما أَمَرَ الله تعالى به فإنه قَضاء شَرْعيٌّ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالقَضاء هنا قَضاءٌ شَرْعيٌّ، إذ لو كان قَضاءً قدرِيًّا لوقَع ولعبَد الناسُ الله تعالى كلُّهم بدون إشراكٍ، وهنا القَضاء قدَريٌّ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي: قدَّرْناه عليه فماتَ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيِّتًا، وَالْجِنُّ تَعْمَلَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّـةَ عَلَى عَادَتِهَا لَا تَشْعُرُ بِمَوْتِهِ حَتَّى أَكَلَـتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ مَيِّتًا]

وكُلُّ هذا الذي ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضِحٌ من الآية لَمَّا قضَى الله تعالى عليه الموت، بَقِي مُدَّة لا تَعلَم الجِنُّ أنه مات، وهم يَعمَلون دائِبين؛ لأنه قد كلَّفَهم بذلك، فمات وبَقِيَ مُتَّكِئًا على عَصاهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَقِيَ حَوْلًا] تَقييد هذا بالحَوْل ليس فيه دليلٌ، لكن لا شَكَّ أنه بَقِيَ مُدَّةً وهم يَعمَلون بين يدَيْه ولا يَدرون أنه مَيْت، أمَّا أن نُقيِّده بحول أو بأقلَّ أو بأكثَرَ فهذا يَحتاج إلى دليل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ مُتَّكِئٌ على عَصاهُ] فيه دليل مِن الآية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وهذا لا يُمكِن إلَّا وهو مُتَّكِئ.

قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ مَصدَر: أُرِضَتِ الخَشَبةُ، بالبِناء للمَفعول: أَكَلَتْها الأَرَضة، وكلِمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هل المُراد بها الجِنْس أي: الدَّابَّة التي تَكون في الأرض، أو المُراد بها المَصدَر؟

الجوابُ: أن المُفَسِّر يَرَى أن المُراد بها المَصدر مَأخوذٌ من قوله: (أُرِضَتِ الخَشَبة)؛ يَعنِي: أَكَلَتْها الأَرَضة، يَعنِي: ما دلَّهم على مَوْته إلَّا الدابَّة التي تَأرِضُ الخَشَب، فعليه يَكون كلمة أَرض مَصدَر: (أَرَضَ يَأرِضُ أَرْضًا) مثل (ضَرَبَ يَضرِبُ ضَرْبًا)، هذا تَقرير كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما قرَّره بعيدٌ من مَفهوم الآية؛ لأنَّك عندما تَفهَم ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ ما تَفهَم الذي قرَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بلِ الذي يَتبادَر إلى الذِّهْن أنَّ المُراد بالأَرْض الجِنْس، يَعنِي: إلا الدابَّة التي تَخرُج من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: هل تَأكُل الأَرْض أَجْساد الصالِحين؟

فالجوابُ: إنَّنا لا نَجزِم بذلك، ولكن قد يُعثَر على بعضهم لم تَأْكُلْهمُ الأَرْضُ، والجَزْم لا يَكون إلَّا في الأنبياء فقَطْ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ بِأَلِفٍ] يَعنِي فيها قِراءَتان: (مِنْسأَته)، القِراءة الثانية: اجعَلِ الهَمزة أَلِفًا أي: (مِنسَاتَهُ)؛ ولهذا قال: [بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ]، ولكن إذا تَركناه يَكون أَلِفًا؛ لأنه يُنسَأ ويُطرَد ويُزجَر بها، كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريد أن يُبيِّن اشتِقاق هذه الكَلِمةِ، وأنها من النَّسَأ، أي: الطَّرْد والزَّجْر، فإن الإنسان يَزجُر بعَصاه بحَزِّها على مَن يُوجِّه إليه الخِطاب ويَطرُد بها بالضَّرْب، وهذا يَدُلُّ على أن الكلِمة عرَبيَّة.

ولكن بعض المُفسِّرين يَقولون: إن الكلِمة غيرُ عرَبية، وإنها من الكلام الذي عُرِّب، وإذا كان من الكلام المُعرَّب فإنه لا يُشتَقُّ لها من العربيـة، فكُلُّ كلِمة لها اشتِقاق في العربية فإنها تَكون عربية، وعلى كُلِّ حال: فالخُلْف في هذا سَهْل.

المُهِمُّ: أن المِنسَأَة كلِمةٌ واحِدة، وهي [العَصَا يُطْرَدُ] بها الشيء [وَيُزْجَرُ بِهَا].

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [مَيِّتًا] ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ الجُمْلة كما تُشاهِدون جُمْلة شَرْطية، وأداة الشَّرْط فيها (لَّمَا) وقد سبَق لنا أن (لَّمَا) تَأتِي لعِدَّة مَعانٍ: تَكون شَرْطية، وتَكون للنَّفْي، وتَكون بمَعنَى (إلَّا)، والرابع أن تَكون ظَرْفًا بمعنى (حين)، وهُنا استُعمِلت شَرْطية بدليل أنه جاء بعدَها شَرْطٌ، وجوابُه: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ﴾، ونافِية كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: لم يَذوقوا عَذابي، وتَأتي بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أي: إلَّا عليها حافِظ، وتَأتِي بمَعنى (حين) أي: ظَرْفًا، مثل أن تَقول: أكرَمْتَنِي لَمَّا زُرْتُك. أي: حين زُرْتُكَ، إِذَنْ لها أربعةُ مَعانٍ، أو تَأتي على أربعةِ أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي: عَلِمَت وبان لها، وفسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [انْكَشَفَ لَهُمْ]، (أَنْ) مُخَفَّفة من الثَّقيلة؛ أي: أَنَّهم (لو كانوا يَعلَمون الغيبَ)، وإذا خُفِّفت الثَّقيلة وجَب حَذْف اسْمِها، وكان خَبَرُها جملةً فهُنا الخبَرُ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وإعرابُها أن تَقول: (أن) مُخَفَّفة من الثَّقيلة، واسمُها ضمير الشَّأْن مُستَتِر، وجُملة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ في مَحَلِّ رَفْع خَبَرِها.

وفي قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّهُمْ] إشارة إلى ما سبَق أن قُلْنا: أنَّ ضمير الشَّأْن يَنبَغي أن يَكون مُناسِبًا للمَقام، فقد يَكون مُفرَدًا، وقد يَكون جَمْعًا، وقد يَكون للغائِب، وقد يَكون للمُخاطَب، خِلافًا لما عليه أكثَرُ النَّحوِيِّين حيث يُقدِّرونه مُفرَدًا للغائِب، ويَقولون: إنه أي: الحالُ ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ﴾ شَرْطية، وجوابُها ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾، و﴿لَّوْ﴾ تَأتي شَرْطية، وتَأْتي مَصدَرية، وتَأتي بمَعنى: وَدَّ كذا، فتَأتي شَرْطية مثل هذه الآيةِ، ومثل أن تَقول: (لو زُرْتَني لأَكْرَمْتُكَ) وتَأتِي مَصدَرية إذا جاءت بعد (وَدَّ)، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] أي: أن تُدهِنوا، وهذا مَعناها فقَطْ، وهنا هي شَرْطية وفِعْل الشَّرْط فيها قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وجوابُه: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ العَمَلِ الشَّاقِّ لَهُمْ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ]، وهذا واضِح؛ لأنهم لو كانوا يَعلَمون الغيبَ لعَلِموا أنَّه مات قبل أن يَخِرَّ بسبَب تَآكُل عَصاهُ، ولعلهم كانوا يَظُنُّون أو يَدَّعون أنهم كانوا يَعلَمون

الغيبَ، فأَراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يُبيِّن حالَهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يَعلَمون الغيب، مع أن الغَيْب الذي حصَل هنا ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْبٌ نِسْبِيٌّ، إذ إن مَن كان قريبًا جِدًّا من سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد يَعرِف أنه مات، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمانَ].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا﴾ أي: ما بَقُوا، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي أَلحَق بهم المَهانة والذُّلَّ، وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الشَّاقِّ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ] يَعنِي: كانوا يَظُنُّون أنهم يَعلَمون الغَيْب، فلَمَّا خَرَّ مَيْتًا تَبيَّن لهم أنهم لا يَعلَمون الغيب قال: [وَعُلِمَ كَوْنُهُ سُنَّةً بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرَضَةُ مِنَ الْعَصَا بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَثَلًا]، هذا جوابٌ عمَّا قيل: إنه بقِيَ سَنَةً وهو مَيْت ولم يُعلَم به، يَعني: أنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الذي أَعلَمَكم بأنه سَنَة؟ قال: علِمْنا ذلك بالحِساب، لأننا حَسَبْنا ما أَكَلَتْه الأَرْض يومًا وليلة من العصا فقِسْنا عليه ما مضَى؛ فمَثَلًا إذا كانت تَأكُل في اليوم والليلة مثلًا (سَنْتيمِتر) عرَفْنا أنها تَأكُل في السَّنَة ثلاثَ مِئة وسِتِّين (سَنْتيمِترًا) وعرَفنا هذا من طول العَصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس مُتعَيِّنًا، إذ قد تَأكُل اليومَ أكثَرَ مِمَّا تَأكُله بالأَمْس أو بالعكس، وحتى نَقول أيضًا: من الذي قال: إنها أَكَلَتْ في اليوم والليلة هذا المِقدارَ حتى عُرِف به ما مَضَى. يَحتاج إلى دليل؛ ولهذا الصوابُ أنَّ ما سبَق أن قُلْناه: بأنه لا حاجةَ لنا إلى تَقدير المُدَّة التي لَبِثها سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ مِثْل هذه الأُمورِ لا يُركَن إليها ولا يُعتَمَد إلَّا إذا جاءَت عن الشارِع عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو جاءَت في كِتاب الله تعالى، وأمَّا ما يَأتي عن بني إسرائيلَ في مثل هذه الأُمورِ فإننا نَقِف فيه لا نُصدِّق ولا نُكذِّب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الموت غاية كُلِّ حَيٍّ وإن عَظُم مُلْكه، فإن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من أعظَمِ المُلوك مُلْكًا ومع ذلك لم يُنقِذْه مُلكُه من الموت.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأمور كُلَّها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَوْصوف بالعظَمة والجَلال والكَمال؛ لأن كلِمة: ﴿قَضَيْنَا﴾ تَدُلُّ إمَّا على التَّعدُّد أو على التَّعظيم، والتَّعدُّد هنا مُمتَنِع، فتعَيَّن أن تكون للتعظيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشيءَ الحَقير قد يَفعَل شيئًا عظيمًا كبيرًا، من قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا شيء جَرَتْ به سُنَّة الله أن الشيء قد يَكون حَقيرًا لكن يَتَرَتَّب عليه أمرٌ عظيم، فنحن الآنَ لا نَعرِف كيف نَقبُر مَوْتانا إلَّا بدَلالة الغُراب، وأيضًا جميعُ المباني الهَنْدسية الفَخْمة الجميلة عُرِفت من صَنيع النَّحْل، أيضًا كلُّ ما حدَث من الآلات التي يُحدِثها الناس الآنَ تَجِدهم يُشبِّهونها بمَخلوقات الله؛ كالطائِرات وغيرها، وبهذا نَعرِف أنَّ الأشياءَ الحَقيرةَ قد تَكون مُفيدةً للإنسان فائِدةً عَظيمةً، ويَترَتَّب عليها أُمورٌ خطيرة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ إضافة الشيء إلى سببه المعلوم جائِزةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فأَضاف الدَّلالة إلى دابَّة الأرض، مع أن الدابَّة هل هي أَكَلَتِ العصا لأَجل أن تَدُلَّ الجِنَّ على موت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

الجوابُ: لا؛ لكنها سبَب، فإضافة الشيء إلى سببِه المَعلومِ شَرْعًا أو حِسًّا جائِزٌ، حتى وإن لم يُذكَر فيها لفظُ الجَلالة، مثلًا إذا قُلْت: لولا فُلان لهَلَكْتُ. وصحيح أن

فُلانًا هو الذي أَنقَذَكَ، فهذا جائِز إذا لم تَعتَقِد أن هذا السبَبَ هو الفاعِلُ الوحيدُ، والمَمنوع أن تُضيف الشيء إلى سببه مع الله تعالى مَقرونًا بالواو، أو تُضيف الشيء إلى سببٍ غيرِ مَعلوم سببِيَّتُه لا من الشَّرْع ولا من الحِسِّ؛ لأن هذا يَكون من باب الأَوْهام والتَّخيُّلات.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التحذير من دابَّة الأَرْض ما دامَ أنها تَأكُل الأَخْشاب وتَأكُل هذه الأشياءَ فاحْذَروا منها، وكم من إنسان أَفسَدَتْ عليه دابَّةُ الأرض مَكتبَتَه القَيِّمة التي تُساوِي شيئًا كثيرًا؛ ولهذا انتَبِهوا لا تَأكُل الأرضة عليكم كُتُبَكم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إضافة الفِعْل أو إضافة الشيءِ إلى مَن لم يَقُم به باختِياره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فالخُرور قد يُضاف إلى الفاعِل بالاختيار، وقد يُضاف إلى الفاعِل بغير الاختِيار، فتَقول: (خَرَّ الماءُ)، وتَقول: (خَرَّ مَيِّتًا)، وقال الله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، يَخِرُّون للأَذْقان يَبكون، هذا بالاختيار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الجِنَّ لا يَعلَمون الغَيْب، والدَّلالةُ على ذلك واضِحة: قولُه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الأُمورَ الحِسِّيَّة الواقِعة أدِلَّة بُرهانِية، وهذه الفائِدة مَعناها الاستِدْلالُ بالأمور الحِسِّيَّة؛ لأنَّ الله تعالى استَدَلَّ على كونهم لا يَعلَمون الغَيْب بأنهم بَقُوا مُعذَّبين بما يَعمَلونه من الأعمال الشاقَّة، فلك أن تَستَدِلَّ على الأمور المَعقولة بالأمور المَحسوسة.

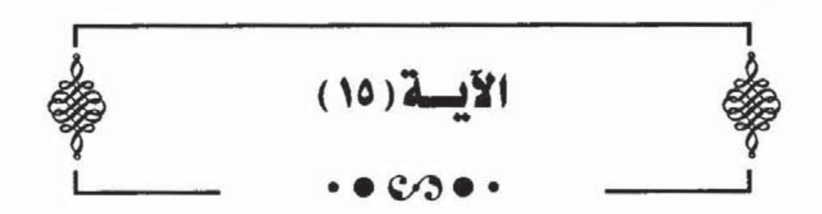
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجِنَّ ذوو عُقول؛ لقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فقَدْ أَعطاهم الله تعالى عُقولًا يَهتَدون بها إلى مَصالِح دِينهم ودُنياهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَسمية الأعمال الشاقَّة عذابًا؛ لقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا

لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ﴾ مع أن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لـم يَجْعَلْهم يَعمَلون له ما يَشاء عُقوبةً لهم، ولكنه تكليف، وبهذا نَعرِفُ أنَّ العذاب قد يُطلَق على ما ليس بعُقوبة؛ كما في قوله ﷺ: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»[1].

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



﴿ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

•• ◦ ••

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات وهي: اللَّامُ و(قَدْ) والقَسَمُ المُقدَّر؛ لأنَّ هذا على تَقدير القَسَم أي: (والله لَقَدْ كانَ لِسَبَأ) و﴿كَانَ﴾ هنا تَدُلُّ على مُجرَّد الحُدوث؛ أي: أنها مَسلوبة الدَّلالة على الزمَن، فإن هذه الآيَةَ باقِية حتى الآنَ، كلُّ مَن قرأ خبرَها.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ قبيلة سُمِّيت باسْمِ جَدٍّ لهم من العرَب و(سَبَأٌ) في الأصل اسْمُ رجُل يُسمَّى (سَبَأ)، وكان من (قَحطانَ)، واختَلَف المُؤرِّخون النَّسَّابون في (قَحطانَ) هل هو من العرَب العارِبة أو من العرَب المُستَعرِبة، والمَشهور أنهم من العرَب العارِبة؛ الذين قبلَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن رَوَى البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْأَنْصارِ كَانُوا يَتَرَامَوْنَ بِالنَّبْلِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»(١)، وهذا يَدُلُّ على أنهم عرَب مُستَعرِبة؛ لأنَّ الأنصار مَعروفٌ أنهم الأَوْس والخَزْرج كلُّهم من قبائل اليَمَن من قحطانَ، نزَلوا وتَفرَّقوا في البلاد بعد الغرَق ونزَلوا المدينة، وعلى هذا فيَكون ظاهِرُ حديث

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم (٢٨٩٩)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البُخارِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قحطانَ كلهم من بني إسماعيلَ.

والحاصِلُ: أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في النَّسَب يُقسِّمون العرَب إلى قِسْمين: ما كان قبل إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهُمْ عرَب عارِبة، وما كان من بعده من ذُرِّيَّته فهم عرَب مُستَعرِبة.

المُهِمُّ: أنَّ (سَبأ) اسْمٌ لرجُلٍ كان له أولاد كثيرون جاء في الحديث أنهم عشَرَة بَقِيَ منهم سِتَّة في اليَمَن وأربعة في الشام، وانتَشَروا في الأرض وكثُروا، وفيها قِراءَتان يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالصَّرْفِ وَعَدَمِهِ] ﴿لِسَبَإٍ﴾ هذا الصَّرْفُ، عدَمُه: (لِسَبَأَ).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ فِي الْيَمَنِ]، ﴿ءَايَةٌ﴾ يَقول: [﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾] أَتى بقِراءة الجَمْع، ولم أَرَهُ ذكَرَها بقِراءة الإفْراد، وفيها قِراءَتان سَبْعيَّتان، قِراءة الإفراد: ﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾، وقِراءة الجَمْع: ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾، ولا خِلاف بينهما في المَعنَى؛ لأنَّ (مَسكَن) مُفرَد، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ ويَشمَل كُلَّ ما يَدخُل تحت هذا المَعنَى، مِثالُه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فهنا (نِعْمَة) مُفرَد وقال فيها: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ إِذَنْ هي كثيرة، فـ(مَسْكَن) من حيث المَعنَى بمَعنَى (مَساكِن)؛ لأنه مُفرَد مُضاف، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ.

إِذَنْ: هُناك قِراءَتان سَبْعِيَّتان: ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ و﴿مَسْكَنِهِمْ﴾، والمَسكَن ما يَسكُنه الإنسان فيَسكُن فيه ويَطمَئِنُّ، كالبُيوت والحدائِق والبَساتين وما إلى ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَايَةٌ﴾ بمَعنَى: علامة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، فالآية بمَعنى العلَامة الدالَّةِ على الشيء، وهذه الآيةُ دالَّة على قُدْرةِ الله، وعلى نِعْمته وعلى حِكْمته في النِّهاية، و﴿ءَايَةٌ﴾ من حيث الإِعْراب

اسمُ (كانَ) مُؤَخَّر، و﴿لِسَبَإٍ﴾ خبَرٌ مُقدَّم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَةٌ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ الله تَعَالَى] وعلى إِحْسانه وإِنْعامه وعلى حِكْمته في النِّهاية، لأنَّ هذه المَساكِنَ -كما سيأتي- دُمِّرَتْ بسبَب إعْراضِهم.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ءَايَةٌ﴾، ويَجوز أن تَكون عَطْفَ بيانٍ؛ لأنها بَيَّنَتِ الآيَةَ ووَضَّحَتْها، والجَنَّة هي البُستان الكثيرُ الأشجارِ، سُمِّيت بذلك لأنها تَجِنُّ مَن فيها، أي: تَستُرُه، وقد عِلمنا سابِقًا أن هذه المادَّةَ؛ وهي الجيم والنون تَدور على مَعنَى الاستِتار والخَفاء.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يقول: [عَنْ يَمِينِ وَادِيهِمْ وَشِمَالِهِ]، وكان هذا الوادِي بين الجِبال، وكان على أَطْراف هذا الوادِي هذه الجِنانُ العَظيمة، من الأَشْجار المُتنوِّعة الكثيرة الثِّمار، وكانوا في أَحسَنِ ما يَكون من الرَّغَد والهَناء والأَمْن.

وقوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يَعنِي: إذا كانت على يَمين الوادِي وشِماله صار لها أيضًا مَنظَر بَديع جَذَّاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ليس المُرادُ (جنَّتانِ) يَعنِي: بُسْتانَيْنِ؛ واحدٌ يَمينًا وواحِدٌ شِمالًا، المُراد بَساتِينُ، لكن قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لَمَّا كانت هذه البَساتِينُ مُتَّصِلة صارت كأنها بُسْتان واحِد، وللمَعلوم لو كان بُستان وبُستان ما هي بآية يَعنِي أنها بَسيطة، لكنها بَساتِينُ مُتَّصِلة بعضُها ببعض على يمين الوادِي وشِمال الوادِي، فلَمَّا كانت مُتَّصِلة بعضُها ببَعْضٍ صارت كأنها جَنَّةٌ واحِدة عن اليمين، وجَنَّةٌ واحِدةٌ عن الشِّمال.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [عَلَى مَا رَزَقَكُمْ

مِنَ النِّعْمَةِ فِي أَرْضِ سَبَأٍ] إلى آخِره، يَعنِي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعَل في هذه الجنَّتَينِ خيرًا كثيرًا، وجعَل تَناوُلَها مُيسَّرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ممَّا يَدُلُّ على أن الأمر مُيسَّر، كما لو قدَّمتُ لكَ طعامًا وقلْتُ: كُلْ، إِذَنْ فهذه الجَنَّاتُ تُعطِي ثِمارها بدون مَشَقَّة، بل باليُسْر والسُّهولة.

وقوله تعالى: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾ الرَّبُّ مَعْناه: الخالِق المالِك المُدبِّر، والرُّبوبية هنا رُبوبية خاصَّة لعِنايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم بما أَعطاهم في هذه الجَنَّاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ هذا هو الذي يُطالِبون به جزاءً أو إظهارًا لنِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، والشُّكْر: يَتعلَّق بالقَلْب واللِّسان والجوارِح؛ يَعنِي: فاعترِفوا بأنَّ هذه النِّعْمةَ من الله تعالى، وأَثْنُوا على الله تعالى بها، وقُوموا بجوارِحِكم بطاعته حتى تُؤدُّوا الشُّكْر على الوجه المَطلوب منكم، واشكُروا له على ما رزَقكم من النِّعْمة في أرض سَبَأٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أحيانًا تَتعدَّى (شكَرَ) بنَفْسها فيُقال: شكَرْت الله تعالى. ويُقال: شكَرْت له. فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازِمةً ومُتَعدِّيةً، وتكون لازِمة إذا جاء حَرْفُ الجَرِّ له، وتكون مُتعدِّية إذا لم يَأتِ حَرْف الجَرِّ، فإذا قُلْت: شكَرْتُ اللهَ تعالى. صارَت مُتَعدِّية، وإذا قلت: شَكَرْتُ لله تعالى. صارَت لازِمةً.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ إعرابها: خبَرٌ لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: هذه بَلْدة طَيِّبة، أو [هي بَلْدة طيِّبة، ليس فيها سِباع ولا بَعوضة ولا ذُبابة ولا برغوث

ولا عَقْرب ولا حَيَّة، ويَمُرُّ الغريب فيها وفي ثِيابه قَملٌ فيموت؛ لطِيب هَوائِها] هكذا قال المفسِّر؛ وإنما نَقول: هي بلدةٌ طيِّبةٌ، أمَّا كون الغريب يَأتي من البَرِّ وفي ثِيابه القَمْل فيَموت القَمْل لطِيب هوائِها.

فنَقول: الله تعالى أَعلَمُ. لكن نَقول: لا شَكَّ أن وَصْف الله تعالى إيَّاها بالطَّيِّبة أنها من أحسَن البِلاد في هوائِها وفي قُرِّها وفي حَرِّها، ليس في الحَرِّ الشديد ولا القُرِّ القارِس، وليس فيها عُفونة الهَواء والماء وما أَشبَهَ ذلك، فخُذْ بها شِئْت من طِيب المَسكَن في كل ما يُسمَّى طِيبًا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يَعنِي: يَقول: والله ربٌّ غَفور، غَفور للذُّنوب، فمَنَّ الله تعالى عليهم بنِعْمَتَيْن: نِعمة السكَن وطِيبِهِ، ونِعمة المَغفِرة، فيَكون في نِعْمة المَغفِرة السلامةُ من الآثام وعُقوباتها في الآخِرة، وفي البَلْدة الطيِّبة السلامةُ من الآفات في الدنيا.

و(الغَفور) صِيغة مُبالَغة، واسْمُ الفاعِل منها (غافِر)، وهي مَأخوذة من (الغَفْر) بمَعنى السَّتْر مع الوِقاية، ومنه قولهم: (المِغْفَر) الذي يَلبَسه الإنسان؛ ليَتَّقِيَ به السِّهام في الحرب، ففيه تَغطية وسَتْر، وفيه أيضًا وِقاية، وهكذا (مَغفِرة الذُّنوب) فإنَّ معناه أنَّ الله تعالى يَستُر عليك الذَّنْب ويَقيك عُقوبته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ دليلٌ على استِعمال التأكيد في الأُمور الهامَّة؛ وإن لم يَكُن المُخاطَب مُنكِرًا أو مُتَرَدِّدًا، تُؤخَذ من تأكيد هذه القِصَّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾؛ لأن التَّأكيد كما نَعلَم إنما يَجِب

في مُخاطَبَة المُنكِر، ويَحسُن في مُخاطَبة المُتَرَدِّد، ويَكون على خِلاف البَلاغة في ما عدا ذلك، هذا هو المَعروفُ عند عُلَماء البَلاغة، ولكن بتَأمُّل ما ورَدَ في القرآن الكريم نَجِد أنَّ الأمور الهامَّة وإن خُوطِب بها مَن لا يُنكِرها أو يَتَرَدَّد فيها نَجِد أنَّ الله تعالى يُؤكِّدها، كما في هذه القِصَّةِ وغيرها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هذه الآيةُ العَظيمة الدالَّة على قُدْرة الله تعالى وحِكْمته، وهي قِصَّتهم على سبيل العُموم أنهم مُنعَّمُون في دِيارهم وبَساتِينِهم وقُصورهم وغير ذلك فلمَّا أَعرَضوا انقلَبَتِ الحال، ففيها عِبْرة وآيةٌ من وُجوهٍ كثيرة، آيةٌ دالَّة على قُدْرة الله تعالى، آيةٌ يَعني: عِبْرة لِمَن عَصَى الله، عِبْرة لِمَن أَطاع الله تعالى، آيةٌ دالَّةٌ على حِكْمة الله تعالى.

فبالتَّأمُّل لهذه الآيةِ تَجِد فيها أصنافًا وأنواعًا من الآيات، فهي آية دالَّةٌ على قُدْرة الله تعالى، حيث خلَقَ لهم هذه البَساتينَ العَظيمة ثُمَّ أَبدَلها بأُخرى لا تُساوِيها بشيء دالَّةٌ على حِكمته؛ حيث أَعطاهم ذلك الخيرَ حين كانوا مُقبِلين على الله تعالى، وسَلَبَهم إيَّاه حين أَعرَضوا واستكبَروا عن طاعته، آيةٌ للمُعتَبِرين من أهل المَعاصي؛ فإن فيها تَحذيرًا لهم من أن تَزول نِعْمة الله تعالى عليهم لسبب مَعاصيهم، آيةٌ للطائِعين حيث يَعتَبِرون بها بأنهم ما داموا على طاعة الله تعالى فإن نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُدَرُّ عليهم، هذه أَرْبعة أَوْجُهٍ من كونها آيةً.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الجَنَّاتِ تُؤتِي أُكُلَها على وَجْهٍ واسِع؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ الشُّكْر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ والشُّكْر واجِب عَقْلًا كما هو واجِب شَرْعًا، أمَّا وُجوبه الشَّرْعيُّ فالآيات بالأَمْر به

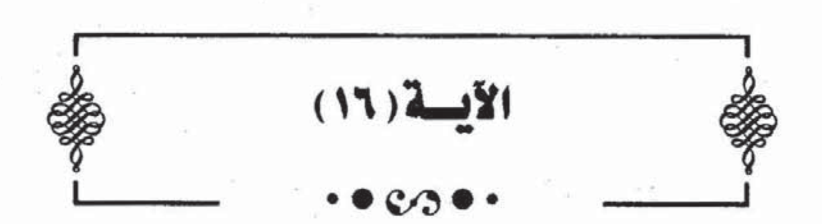
كثيرةٌ، وأمَّا وجـوبه العَقْليُّ فلأَنَّ العقل الصريح يَقتَضي أنَّ كلَّ مَن أَحـسَن إليك فإنك تَشـكُره على ذلك، ومَن لا يَشـكُر الناس لا يَشكُر الله تعالى، يَعنِي: كل أَحَد يَرَى أنه من الخَطَأ أن يُسدِيَ إليك إنسانٌ ما يُسدَى مِن الخَيْر ثُمَّ تَتَنكَّر له، ولا تَقوم بشُكْره، كُلُّنا يَعرِف أن هذا خطَأ، وأن الواجِب أن تَشكُر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ بِلاد الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم إلى طَيِّب وخَبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وما نوعُ الطَّيب في هذه البَلدةِ؟ هل هو طِيب الأَرْض، أو طِيب الهَواء، أو طِيب الثِّمار؟

الجوابُ: يَعُمُّ كُلَّ ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات رُبوبية الله ومَغفِرته، في قوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

• ● ۞ ● •



الآية (١٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ [عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا] الفاء هنا عاطِفة؛ يَعنِي: أنهم مع هذه النِّعَم؛ جَنَّاتٍ وبَساتينَ عَظيمةٍ وبلَدٍ طَيِّب ومَغفِرةٍ للذُّنوب إذا قاموا بطاعة الله، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَعْرَضُوا عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا]، فأَعرَضوا عن الشُّكْر وقابَلوا هذه النِّعْمةَ بالكُفْر فماذا كانت عاقِبَتُهم؟

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والفاءُ هنا عاطِفة وتُفيد السبَبية أيضًا؛ أي: فبِسَبب إِعْراضهم أَرسَلْنا عليهم سَيْل العرِم، وهذه سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، هؤلاء أَعرَضوا فدمَّرَ الله تعالى دِيارهم.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [جَمْعُ عَرِمَةٍ، وَهُوَ مَا يُمْسِكُ المَاءَ مِنْ إِنَاءٍ وَغَيْرِهِ إِلَى وَقْتِ حَاجَتِهِ، أَيْ: سَيْلَ وَادِيهِمُ المَمْسُوكِ بِمَا ذُكِرَ، فَأَغْرَقَ جَنَّتَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ].

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، العَرِم بمَعنَى: السَّدِّ، يَعنِي أنَّ هذا السَّيْلَ مَنسوب إلى السدِّ، أو بمعنى: سَيْل العرِم، من باب إضافة الشيء إلى صِفَته، أيِ: السَّيْل العارِم الجارِف

الذي يُتْلِف كلَّ ما مَرَّ عليه، والمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرسَل عليهم سَيْلًا عظيمًا، وذلك بفَساد السَّدِّ الذي جعَلوه بين هذا الجِبالِ.

وكان هذا السدُّ المَنيعُ تَجتَمِع فيه السُّيول وتَمتَصُّها الأرض وتَخرُج في العُيون، فلمَّا تَصدَّع هذا السدُّ جرَتِ المِياهُ بغير تقدير، وذلك بقُدرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

ويَقول: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الجَنَّتان السابِقتان كُلُّها ثِمار طَيِّب يُؤكَل ويُنتَفَع به بالبيع والشراء وغيرِ ذلك، أمَّا البَدَل فيَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَوَاتَىْ﴾ [تَثْنِيَةُ ذَوَاتٍ، مُفْرَدٍ عَلَى الْأَصْلِ]، وهو في الأصل (ذات) المُفرَد، و(ذوات) للجَمْع، فثَنَّى الجَمْع وصارَت ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ ويُمكِن أن يُقال خِلافُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فيُقال: إن الأصل (ذات)، لكن لَمَّا ثُنِّيَ عادت الواوُ فصارت (ذَواتَيْ)، ومَعنَى (ذَواتَيْ) أي: صاحِبَتَيْ؛ لأنَّ (ذات) بمَعنَى: صاحِبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أي: صاحِبة البُروج.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٌّ بَشِعٌ بِإِضَافَةِ أُكُلٍ بِمَعْنَى: مَأْكُولٍ وَتَرْكِهَا، وَيُعْطَفُ عَلَيْهِ] ﴿وَأَثْلٍ﴾؛ يَعنِي أن فيها قِراءَتَيْن: (ذَوَاتَيْ أُكُلِ خَمْطٍ) هذِي الإِضافةُ، وتَرْكُها: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أمَّا الإضافة واضِح، (ذَواتَيْ أُكْلِ خَمْطٍ) يَعنِي أنها الأُكُل يُخمَط خَمطًا، وهو شَجَر الأراك؛ كما فسَّره بذلك ابنُ عباس[١] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والأَراك هي مَساوِيك لها أوراقٌ بَسيطة جِدًّا، وليست بذات اللذيذة؛ ولهذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٍّ بَشِعٍ] بدَل الفَواكه والخُضَر

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢٥٥).

والزروع وغيرها، ويَقول: ﴿أُكُلٍ﴾ بمَعنَى: مَأكول، يَعني: ذواتَيْ مَأكولٍ يُخمَطُ خَمطًا ﴿وَأَثْلٍ﴾ بدَل الأشجار المُثمِرة البَهيجة صار بدَلها أَثْل، والأَثْل بعضهم قال: هو الطَّرْفاء، والصحيح أنه غير الطَّرْفاء؛ لأن الطَّرْفا تَكون صغيرة ما تَكبُر والأَثْل معروف.

قوله تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هنا قال: شيءٍ من سِدْر. وهُناك قال: خَمْط وأَثْل؛ لأن السِّدْر أَحسَنُ هذه الأنواعِ الثلاثة، ولم يُعطَوْا منه إلَّا الشيءَ القليلَ شيء مِن سِدْر، وأيضًا قليل مع أنَّ كلِمة: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ تَدُلُّ على القِلَّة، لكنها أُكِّدت هذه القِلَّةُ بقوله تعالى: ﴿قَلِيلٍ﴾.

الخُلاصةُ: أنَّ هؤلاء لَمَّا أَعرَضوا ولم يَقوموا بشُكْر الله أَرسَل الله عليهمُ السَّيْل، فأَغرَق أموالهم وهدَّم بِناءَهم، وأَبدَلهم بهاتَيْنِ الجَنَّتَيْنِ جَنَّتَينِ لا يُساوِيان ولا يُقارِبان ما سبَق، ذواتَيْ أُكُل ليس بالكثير خَمْطٍ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنَّه [مُرٌّ بَشِعٌ] ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بدَل تِلكَ الجَنَّاتِ العَظيمة المُفيدة النافِعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان حال هَؤلاء القَوْمِ أنهم بدَّلوا نِعْمة الله تعالى كُفْرًا، وكان عليهم لَمَّا أَنعَم الله تعالى عليهم بهذه النِّعَمِ أن يَشكُروا ويَقوموا بطاعة الله تعالى، لكنهم أَعرَضوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُقوبة المُعرِضين بما تَقضية حِكْمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أُخْرى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فالعُقوبات دائِمًا تَكون من جِنْس العمَل، فهؤلاءِ لَمَّا بَطِروا نِعْمة الله تعالى وكفَروا به؛ بسَبَب هذه الجَنَّاتِ أُبدِلوا بجَنَّات سَيِّئة بالنِّسبة لما نُعِّموا به من قَبلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأَسْباب، تُؤخَذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا ﴾ فجعَل الله تعالى سببَ الإِرْسال إِعْراضَهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المعاصيَ سببٌ لزوال النِّعَم؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا ﴾ بينما كانوا مُنعَّمين، لَمَّا أَعرَضوا أُرسِل عليهم هذا السَّيْلُ المُدمِّرُ.

وهذا له شواهِدُ في القرآن كثيرة، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

ومِنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

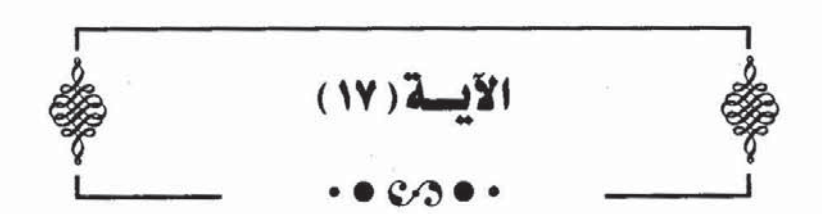
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المطَر الذي هو نِعْمة ورَحْمة قد يَكون نِقْمةً وعَذابًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، فإن السَّيْل في الأصل الذي هو اجتِماع المطَر حتى يَتدفَّق، الأصل أنَّه خيْر كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة:٢٧] وهذا خيْر، ولكنه أحيانًا يَكون عذابًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان ضَلال أُولئك القومِ الذين إذا أَصابَتْهم مِثْلُ هذه المَصائِبِ من الفَيضانات وما أَشبَهَها لم يَتَأثَّروا لذلك، ويَقولون: هذا مُقتَضى الطبيعة. فإن هذه الفَيَضاناتِ التي تُدمِّر إنما هي عُقوبة من الله؛ ليَبْتَلِيَ بها أُولَئِك المُعذَّبين، ويَرتَدِع بها مَن كان على شاكِلَتِهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان قُدْرة الله بإِرْسال هذه السُّيولِ الجارِفة التي أَغرَقَتْ ثِمارهم وزُروعهم، ونبَت بعد هذه الثِّمارِ والزُّروع نَبَتَ خَمْطٌ وأَثْلٌ وشَيءٌ مِن سِدْر قليلٍ، وليسَ سدرًا ولكِن شيءٌ مِن سِدر، يَعني: قليلٌ، فبَدَل الجناتِ العظيمة حَلَّ هذا محلَها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحِكْمة في أن الله جعَل بدَل الجَنَّتَيْن جَنَّتَيْن أُخْرَيَيْن؛ لأن الطاعة نور وصَلاح وفَلاح فيُناسِبها الجزاءُ بالعطاء، والمَعصية ظُلْمة وفَساد فناسَبَها أن يَكون فيها هذا البدَلُ السَّيِّئُ بالنِّسبة لما قَبْلَه.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧].

•●○●•

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [التَّبْدِيلُ] ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك التَّبديلُ وإرسالُ السَّيْل. لكان أعَمَّ وأَشمَلَ، أو لو قال: ذلك المَذكورُ. لكانَ أَشمَلَ، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وقوله: [﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بِكُفْرِهِمْ] وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا أَفادَنا أنَّ (ما) مَصدَرية، وأمَّا الباء فهي للسَّبَبية أي: جَزَيْناهم هذا الجزاءَ بإِغْراق أموالهم، وهَدْم بِنائِهم، وإبدال الجَنَّتَيْن بهاتَيْنِ الجَنَّتَيْنِ ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسَبَب كُفْرِهم.

وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾: قال رحمه الله: [(وهَلْ يجازي إلَّا الكَفُورَ)، بالياء والنُّون مع كَسْر الزاي ونصب (الكَفورَ)؛ أي: ما يُناقَش إلَّا هو]، ففي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ قِراءَتان ﴿نُجَٰزِىٓ﴾، وعلى هذه القِراءةِ يَجِب نَصْب (الكفور) على أنها مَفعول به، والقِراءة الثانية «يُجَازَى» وعليه تُرفَع (الكَفور) على أنها نائِب فاعِل، والاستِفهام هنا بمَعنى النَّفْي؛ لأنه عُقِّب بـ(إلَّا)، فيَكون: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: ما نُجازِي إلَّا الكَفورَ، والمُجازاة هنا بمَعنَى: المُناقَشة، أو بمَعنى: المُكافَأَة على الفِعْل، والكَفور صيغة مُبالغة؛ أي: ذو الكُفْر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

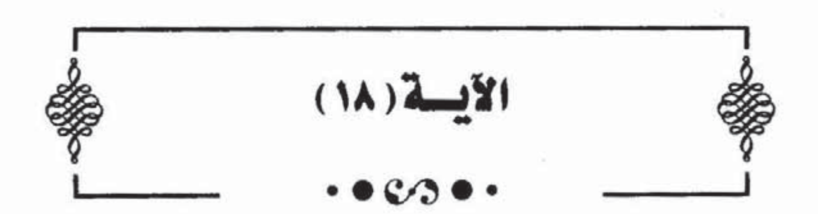
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أنَّ الله لا يُجازِي أحَدًا بعُقوبة إلَّا بفِعْله؛ لقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَسْباب؛ لأن الباء هُنا للسَّبَبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَـرْق بين (يَجزِي) و(يُجازِي)، فـهنا قـال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، لكن (نَجزِي) في الثواب، و(نُجازِي) بالعِقاب، هكذا قال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُٱللَّهُ، فتَقول للكافِر: جازاكَ الله تعالى. وتَقول للمُسلِم: جزاكَ الله تعالى. ففي الخَيْر نَقول: جزى. وفي الشَّرِّ نَقول: جازَى. ووجهُ ذلك: أن الخَيْر عَطاء مَحضٌ، وأمَّا العُقوبة فهي مُجازاة ومُكافَأة؛ ولهذا نَقول: جازاهُ. يُصاغ الفِعْل على صِيغة المُفاعَلة، والمُفاعَلة تكون في الأصـل من طرَفَيْن.

•●۞●•



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ:١٨].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ نِسْبة الفِعْل إلى (نا) الدَّالَّة على العظَمة، والضَّمير في ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يَعود على سَبأ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى﴾ جَمْعُ قَرْية، وهي البَلْدة سَواء كانت كبيرةً أو صغيرةً، وسُمِّيَت قريةً؛ لأنها تَجمَع، وما اشتَهَر عند الناس أن القَرْية هي المُدُن الصِّغار، هذا اصطِلاحٌ عُرْفيٌّ، وإلَّا فإن الله تعالى يَقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، فالقَرْية اسمٌ للبَلَد سواءٌ كان كثيرًا أو قليلًا، سُمِّيَ بذلك لأنه يَجمَع الناس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ما هي القُرى التي بارَك الله تعالى فيها؟ قيلَ: إنها قُرَى اليَمَن، كصَنْعاءَ ونحوِها. وقيلَ: إنها قُرَى الشام. ولكُلٍّ من القَوْلين وجهٌ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بارَك في الشام، وبارَك في اليَمَن؛ قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ بَارِكْ لَنا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنا»[1]؛ ولهذا اختَلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل المُرادُ القُرى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل، برقم (١٠٣٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التي بارَكَ الله تعالى فيها قُرَى الشامِ أو المُرادُ القُرى التي بارَكَ الله تعالى فيها قُرَى اليَمَن؟ أيُّها أعظَمُ مِنَّةً أن يَكون المُرادُ بقُرَى الشام أو قُرَى اليَمَن؟

الجوابُ: قُرى الشام؛ لبُعدها، فهم يَذهَبون إلى الشام ويَرجِعون منها فيَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَارَكْنَا فِيهَا بِالمَاءِ وَالشَّجَرِ وَالثِّمَارِ وَهِيَ قُرَى الشَّامِ الَّتِي يَسِيرُونَ إِلَيْهَا لِلتِّجَارَةِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ مُتَوَاصِلَةً مِنَ اليَمَنِ إِلَى الشَّامِ]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ يَعنِي: بيِّنه يَرَى بعضها من بعض؛ لأنَّ القَرْيَة إذا كانت بَعيدةً عن الثانية ما صارت ظاهِرةً، وإذا خرَجَت من قَرْية إلى قَرْيه، وهي بَعيدة منها هل تكون القَرْية الثانية ظاهِرةً لك؟ لا، بل تَحتاج إلى أحَدٍ ليَدُلَّك، لكن إذا كانت مُتواصِلة مُتقارِبة صارت ظاهِرةً بادِيَة للعَيان، فهذه القُرَى مُتواصِلة بعضُها ببَعْض من اليَمَن إلى الشام.

والذين قالوا: إن المُراد قُرى اليَمَن؛ قالوا: لأنهم لا يَعلَم أن هناك قُرًى مُتَّصِلة بين اليَمَن والشام، وقالوا: إن الواقِع يَدُلُّ على خِلاف ذلك، وأن المُراد بالقُرى قُرى اليَمَن، وعلى كُلِّ حالٍ: لكُلِّ قولٍ وجهٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يَعنِي: جَعَلْناه مُقدَّرًا بمَراحِلَ يَنزِلون من قرية إلى أُخْرى مَرحَلةً مَرحَلةً.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى، إِلَى انْتِهَاءِ سَفَرِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَمَاءٍ] هذا مَعنَى تَقدير السَّيْر: أن يَكون مُقدَّرًا بمَراحِلَ حسبَ هذه القُرى، يَقيلون في واحِدة ويَبيتون في أُخرى، ثم يَقيلون في الثانية ويَبيتون في الأُخْرى وهكذا، ولا شكَّ أنَّ تَقدير السَّيْر على هذا الوجهِ أنه من نِعْمة الله على الناس، فإن الخُطوط الطويلة التي ليسَتْ بها

مُدُن تكون في الغالِب طُرُقًا مُهلِكة مُخيفة، لكن إذا كانت مُتواصِلة صارت أَيسَرَ للسالِكِ، وأَشَدَّ طُمأنينةً، بل وأَقرَبَ للسَّيْر؛ لأنك إذا مَشَيْت من قرية إلى أُخرى تُحِسُّ أنك قطَعْت مَرحَلة، مثل القُرآن الكريم: لَمَّا جُعِل آياتٍ وسُورًا وأجزاءً صار أَسهَلَ للقارِئِ، الكِتاب إذا كان مُفصَّلًا بأبواب وفصول صار أَيسَرَ، والطريق الحِسِّيُّ أيضًا طريق الأرض إذا كان فيه قُرًى مُتوالية صار أَيسَرَ من الطريق الطويل الذي يَمَلُّ الإنسان ولا يَرَى أنه قَطَع مَرْحَلة فيه.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنَا: سِيرُوا]، وعليه فتكون هذه الجُملةُ في مَوْضِعِ نَصْبٍ، مَقولًا لقولٍ محذوفٍ (قُلْنا: سِيروا)، وهذا القولُ شَرْعيٌّ أو قدَرِيٌّ؟

الجوابُ: قدَريٌّ؛ يَعنِي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لهم: سِيروا في هذه الطُّرُقِ فيها لياليَ، أي: في هذه القُرَى، ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون لا في لَيْلٍ ولا في نَهار، وهذه من نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم يَسيرون ليلًا ونَهارًا آمِنين لا يَخافون من أَحَد، ولا يَخافون من تَلَف، ولا يَخافون من انقِطاع ماء، ولا مِن فَقْدِ طعام، ولكن لم يَصبِروا على هذه النِّعْمة -والعِياذُ بالله تعالى- ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ما شَكَروا النِّعْمة، وكان عليهم أن يَشكُروا الله تعالى على هذه النِّعْمةِ، ويَغتَبِطوا بها، ولكنهم لم يَصبِروا عليها حتى سألوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم، فتكون الأسفار طويلة ما فيها قُرًى.

وهذا نَظيرُ قَوْل أصحاب مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١]، بينما كانوا في الأَوَّل يَأكُلون رَغدًا من المَنِّ والسَّلوى بلا تَعَبٍ وطعامًا

طَيِّبًا؛ لكـن قَوْم سَبَأ ما صبَروا على هذه النِّعْمة التي هـي من أحسَنِ النِّعَـم في الأسفار.

من فوائد الآية الكريمة:

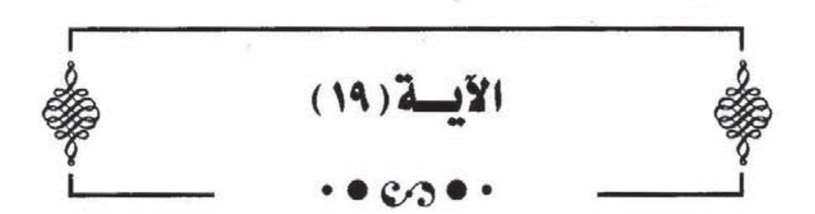
الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الآيةِ بيان نِعْمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على سَبَأ؛ حيثُ جعَل القُرَى مُمتَدَّة من اليَمَن إلى الشام، قريبًا بعضُها من بعض.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الطرُق إذا كانت بين قُرًى مُتَجاوِرة فهي آمَنُ وأَقرَبُ إلى السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السَّيْر فيها مُقدَّر مَرحَلةً مَرحَلة، بين هذه القُرى وتَقدير السَّيْر، كما قُلْنا من فائِدته. ويَتفرَّع على ذلك: أن تَقدير السَّيْر أَنشَطُ للمُسافِر وأَسهَلُ له؛ لأنه إذا كان بين القُرَى تَبايُنٌ بعيد تَعِبَ المُسافِرُ ومَلَّ، لكن إذا صار يَقطَعها مَرحَلةً مَرحَلة صار ذلك أَنشَطَ له وأهوَنَ عليه، وذكَرْنا أنَّ من هذا تَجزِئة القُرآن ومَسائِل العِلْم والكتب المُصنَّفة حتى يَقطَعها الإنسان مَرحَلة مَرحَلة فيَكون ذلك أَسهَلَ عليه، وربما نَأخُذ منه فائِدة لمَن أَرادَ حِفْظ القُرآن أن يَتحَفَّظه شيئًا فشَيْئًا؛ لأنَّ بعض الناس رُبَّما يُسرَد له ورَقة كامِلة ثُم يَرجِع يَحفَظها فيَصعُب عليه، لكنه إذا حفِظها آيةً آيةً كان هذا أسهَلَ في الغالِب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأَمْن في الأوطان من أكبَرِ النِّعَم؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

• • ۞ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

•• ●○● ••

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) وَفِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّةٍ: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إِلَى الشَّامِ اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ].

(المفاوزُ) جَمْع مَفازة، وهي الأراضِي التي يُخشَى فيها من الهَلاكُ، وسُمِّيَت مَفازة من باب التَّفاؤُل، ولكن في الحقيقة ما هي مَفازة، بل هي هَـلاك ومَهلَكة، لكن العرَب تُطلِق الشيء على ضِدِّه تَفاؤُلًا كما قالوا في الكَسـير: إنَّه جَبير. فهذا أيضًا مِثْلـها، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسـير: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾: [اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ؛ لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَـرَاءِ بِرُكُوبِ الرَّوَاحِلِ وَحَمْـلِ الزَّادِ وَالمَاءِ فَبَطِرُوا النِّعْمَةِ] لَمَّا كانَتِ القُرى ظاهِرةً ومُتقارِبةً ولا يُحتاج فيها إلى حَمْل زاد وماء صار فيـها الفُقراءُ والأغنيـاءُ على حَدٍّ سواءٍ، كلٌّ مُنعَّم في هذه الطرُقِ، فإذا تَباعَدت صار ذلك من حَظِّ الأغنياء، فسَألوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم من أَجْل أن يَتطاوَلوا على فُقَرائهم، فهؤلاءِ الأَغْنياءُ يَركَبون الإبِلَ، ويَحمِلون ما شاؤُوا من الزاد، وأمَّا الفُقَراء فلا يَستَطيعون ذلك، هذا هو السببُ في أنهم دعَوُا الله تعالى أن يُباعِد بين أسفارِهم.

يقول تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إمَّا بالكُفْر، وإمَّا بدُعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُباعِد بين أسفارِهم فلم يَقبَلوا نِعْمته بهذه الراحةِ [﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ التَّفْرِيقِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ عَلَى النِّعَمِ].

قوله تعالى: ﴿أَحَادِيثَ﴾ جَمْع حَديثٍ، وهو ما يَتحدَّث الناس به، يَعنِي أنهم بَعْد أن كانوا مَوْجودِين صاروا خَبَرًا من الأخبار؛ إذ إن قصصهم كانت أحاديث للناس يَتَحدَّثون بها، يَقول: حصَلَ كيت وكيت؛ ولهذا مِن الأمثال المَعروفة: تفرَّقوا أيادِيَ سَبَأْ [(١)]؛ يَعني: أنهم تَفرَّقوا كتَفرُّق سَبأ، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بعد أن كانوا أَشياءَ حَقيقيَّةً ثابِتة صاروا أَحادِيثَ، وهذا قول الشاعِر:

بَيْنَا يُـرَى الْإِنْسَـانُ فِيهَـا مُخْـبِرًا ... حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِـنَ الْأَخْبَـارِ [(٢)]

وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يَعنِي: فَرَّقْناهم في البِلاد كلَّ مُفرَّق وشُرِّدوا وتَشتَّتوا؛ لأنهم كفَروا النِّعْمة وظلَموا أَنفُسَهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الإشارةُ تَعود إلى كل ما سبَق، من هذه القُرَى الظاهِرة وسُهولة السفَر، ثُم سُؤالهم أن يُباعِد الله تعالى بين أَسفارِهم، ثُم تَمزيقهم في البِلاد كل مُمزَّق.

وقوله تعالى: ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ أي:لعِبَرًا، كيف قال آياتٍ وهي قِصَّة واحِدة؟

الجوابُ: لكنها تَشتَمِل على أجزاء، كل جُزْءٍ منها يَستَحِقُّ أن يَكون آيةً.

---

(١) انظر: المستقصى في أمثال العرب للزمخشري (٢/ ٨٨).

(٢) البيت لعلي بن محمد التهامي يرثي صغيرًا له، انظر: تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٢)، فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٢٦٩).

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، أي: ذِي صَبْر على البَلايا، والصَّبْر في اللُّغة بمَعنَى: الحَبْس، وفي الشَّرْع: الحَبْس عمَّا يَحرُم عند المَصائِب، والناس في المَصائِب لهم أَرْبعة مَراتِبَ: مَرْتَبة السُّخْط، ومَرْتبة الصَّبْر، ومَرتَبة الرِّضا، ومَرْتبة الشُّكْر، وهو أعلاها، التَّسخُّط حرام والصَّبْر واجِب، والرِّضا مُستَحَبٌّ -على القول الراجِح-، والشُّكْر كذلك مُستَحَبٌّ؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بيَّنها أي: عن المَعاصِي، بل وعلى أَقْدار الله تعالى، بل وعلى أوامِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر على طاعة الله تعالى، وصَبْر عن مَعصيته، وصَبْر على أقدار الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: قائِم بشُكْر الله تعالى بقَلْبه ولِسانه وجَوارِحه، فيَشكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نِعَمه، وأمَّا كونها آيةً للصَّبَّار فظاهِر، وكونها آيةً للشَّكور كيف ذلك؟

الجوابُ: لأنَّ الإنسان إذا نظَرَ إلى حالهم وأنهم حَينما كانوا شاكِرين لله تعالى كان الله تعالى قد أَنعَم عليهم بهذه النِّعْمة، فيُستَدَلُّ بها على أن شُكْر الله تعالى مُوجِب لبَقاء نِعْمته على العَبْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أن هَؤلاءِ القومَ لم يَصبِروا على هذه النِّعَم، بل طلَبوا زوالها وتَغييرها، وهل هذا القولُ باللِّسان أو بالفِعْل؟ بمَعنَى: هل قالوا فِعْلًا: (رَبَّنا باعِدْ بين أَسفارِنا) أو أنهم لَمَّا ظَلَموا أَنفُسَهم وكفَروا صار ذلك سببًا لتَباعُدِ ما بين هذه القُرى حيث اندَمَرَت وفَسَدت وخَرِبت؟

الجوابُ: الأَوَّلُ هو ظاهِر اللَّفْظ، أنهم قالوا ذلك فِعْلًا فباعدَ الله تعالى بينهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ لَمَّا بطِروا النِّعْمة وعجَزوا عن صَبْرِها أَضافوا إلى ذلك ظُلْم أَنفُسِهم بالكُفْر، من قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ صاروا أَحاديثَ للناس من بعدِهم، وهذا نَوْع من الخِزْيِ والعارِ -والعِياذُ بالله تعالى- أن يَشتَهِر أَمْر الناس، أو أَمْر الإنسان حتى يَكون أُحدوثة لَمن بعدَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الذين أَنعَم الله عليهم بالاجتِماع في قُراهم وقَبائِلهم مُزِّقوا كُلَّ مُمزَّق، فشُرِّدوا في البِلاد وتَفرَّقوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أن ما يَفعَله الله عَزَّوَجَلَّ بالعُصاة والظالِمين يَكون آيةً للمُعتَبِرين؛ سواءٌ كان ضرَّاءَ فيَصبِرون، أو سرَّاءَ فيَشكُرون؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

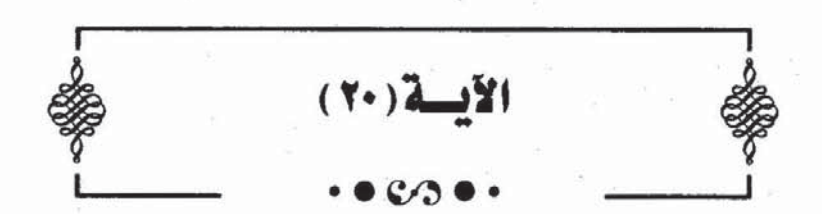
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة الصَّبْر والشُّكْر، فالصبر على الضرَّاء والشُّكْر على الرَّخاء، والإنسان دائِمًا مُصابٌ بهاتين الآفتَيْن، إمَّا ضرَّاء وإمَّا سرَّاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

والمُوفَّق مَن أَعطَى كلَّ حال ما يَجِب لها، ففي الضرَّاء يَجِب عليه الصَّبْر وانتِظار الفَرَج، وليَعلَم أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قدَّر عليه الضرَّاء ليَصبِر فإن ذلك نِعْمة من الله تعالى عليه؛ لأنَّ الصبر كما نَعلَم درَجةٌ عالية، ومَنزِلةُ الصابِرين من أعلى ما يَكون من المَراتِب والمَنازِل، وهذه الدرَجةُ أو المَرتَبة أو المَنزِلة إذا لم يَكُن هناك شيء يُمتَحَن به العبدُ فإنه لن يَنالَها، لا بُدَّ من أذًى ولا بُدَّ من مَصائِبَ يَصبِر عليها الإنسان حتى يَنال بذلك درَجة الصابِرين.

وكذلك أيضًا الشُّكْر درَجةٌ عالية لا يَنالـها إلَّا مَن وُفِّق، فإن الإنسان إذا أذاقَه الله تعالى النَّعماءَ من بعد الضرَّاء فالغالِب عليه أنه يَفخَر ويَفرَح ويَبطَر، فإذا انْضافَ إلى ذلك الشُّكْر عند الرَّخاء والصَّبْر عند البَلاء، نال بهذا درَجةَ الصابِرين الشاكِرين؛ قال النبيُّ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1]؛ وانتِظار الفرَج مَعونة على الصبر، فإن الإنسان إذا أَيِس ولم يَنتَظِر الفرَج ضاقَت عليه الدُّنيا، وتَضاعَفَت عليه المُصيبة، لكن إذا كان يَنتَظِر الفرَج مُؤمِنًا بذلك هان عليه الأمرُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآية (٢٠)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

• ● ● •

(صَدَقَ) بالتَّخفيف والتَّشديد ﴿صَدَّقَ﴾ بمعنى: أَخبَرَ بالصِّدْق، و﴿صَدَّقَ﴾ مَنْ أَخبَرَ بالصِّدْق، فالإنسانُ إمَّا مُخبِرٌ وإمَّا مُخبَر، فالمُخبِرُ نَقول: صدَق. والمُخبَر نَقول: صَدَّقَ. يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: (صَدَقَ) و﴿صَدَّقَ﴾ والقِراءَتان هنا تَحمِلان مَعنيَيْنِ، مَعنى الصِّدْق، والتَّصديق فالفائِدة من هاتَيْن القِراءَتَيْن أنهما تَدُلَّان على مَعنيَيْن، وبَيان ذلك قال تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أو (صَدَقَ عَلَيْهِمْ) [أَيِ: الْكُفَّارِ مِنْهُمْ سَبأً، ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أَيْ: بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾، فَـ(صَدَقَ) بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنِّهِ أَوْ ﴿صَدَّقَ﴾ بِالتَّشْدِيدَ ﴿ظَنَّهُۥ﴾، أَيْ: وَجَدَهُ صَادِقًا]، إبليس له ظَنُّه في بني آدَمَ، فما هو ظَنُّه؟

الجوابُ: أنه يُغويهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧]، هذا ما كان يُؤَمِّلُهُ ويَرجوه ويَظُنُّه إمَّا ظَنًّا راجِحًا وإمَّا ظَنًّا مُتيَقَّنًا، لكن لا يُمكِن أن يَتيقَّن، وإنما يَظُنُّ ظنًّا راجِحًا،

فهنا صدَّق ظنَّه الذي كان يَقول: إنه سيُغويهم فـ(صدَّقه)؛ لأنه أَغواهم، أو (صدَق) عليهم إبليسُ ظنَّه أنَّه لَّما ظَنَّ نفَّذَ ما قال، فيَكون صدَق حيث أَغواهم.

والحاصِلُ: أن الظنَّ الذي ظنَّه إبليسُ هو إغواؤُهم، هذا الظنُّ إمَّا أن يَكون بإغوائه إيَّاهم قد صدَّقه حيث وقَعَ منه أوَّلًا فصدَّقه بتَطبيقه فِعْلًا، أو صدَق عليهم إبليسُ ظنَّه أنه لَّما ظنَّ ذلك الظنَّ طبَّقه وفعَلَه، والمعنى: أنَّ ما توَقَّعه الشيطان وظنَّه من إغوائه الكُفَّارَ ومِنهم سَبأ وقَعَ مُؤكَّدًا باللَّامِ و(قَدْ) والقَسَمِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ اتَّبَعوا الشيطان، ولو نظَرْنا ما هو الجامِعُ لما يَأمُر به الشيطانُ؛ يَأمُر بالفَحْشاء ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]؛ فهو يَأمُر بالفَحْشاء والمُنكَر وكلِّ فِعْل قبيح، فإذا اتَّبَعه الإنسان بالفَحْشاء والمُنكَر والفِعْل القبيح فقد تَبِعه وضَلَّ عنه، وإن خالَفه فقد خالَفَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾ فاتَّبَعوه، (إلَّا) بمَعنى [لَكِنَّ فَرِيقًا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِلْبَيَانِ].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ يَعْنِي: لَكِنْ] إشارة إلى أن الاستِثْناء هنا مُنقطِع، لأنَّ الاستِثْناء إذا كان بمعنى (لكن) صار مُنقَطِعًا، ولكن الذي حمَل المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهِرُه أنَّه صدَّق عليهم جميعًا، وعليه فالمُؤمِنون لم يَدخُلوا في ذلك؛ فيَكون الاستِثْناء هنا مُنقَطِعًا، لأنَّ إبليسَ لم يُصدِّق الظَّنَّ إلَّا على الكُفَّار، أمَّا لو جَعَلْنا: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ عامًّا للقَبيلة كلِّها أو لبني آدَمَ كلِّهم ثُم قال: إلَّا فريقًا من المُؤمِنين، لكان هذا الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

والحاصِلُ: إذا جعَلْنا الضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائِدًا على الكُفَّار الذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثْناء هنا يَجِب أن يَكون مُنقَطِعًا، وإن جعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جِنْس هذه

القَبيلةِ سَبَأ صار الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [لِلْبَيَانِ] يَعنِي: (مِنْ) بَيانية، وليسَت تَبعِيضيَّةً؛ لأنها لو كانت للتَّبعيض لكان المَعنى: إلَّا فريقًا من المُؤمِنين نجا منهم، وفريقٌ آخَرُ لم يَنْجُ، وهذا المعنى فاسِد، وعلى هذا فتكون (مِنْ) للبَيان ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ مَن هؤلاء الفريقِ؟ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: هُمُ المُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ] وهذا المَعنى دَقيقٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِثالُه جيِّد، إذا قُلْت: جاء فريقٌ من القَوْم؛ وهل جاء كلُّهم؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا جعَلْنا (مِنْ) للتَّبعيض كما هي في قولكَ: (جاءَ فَريقٌ من القومِ) فسَد المَعنَى؛ لأنَّ المُؤمِنين كلُّهم لم يَتَّبِعوه؛ ولهذا احتاج المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ يَجعَل (مِنْ) بَيانية، وتَكون (المُؤْمِنينَ) بَيانًا لقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ كأنَّه قال: فاتَّبعوه إلَّا المُؤمِنين، هذا مَعنَى الآية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إبليسَ يُوصَف بالصِّدْق ويُوصَف بالكذِب، وأما الوَصْفُ اللازِم له فهو الكَذِب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]، ولكن قد يَصدُق كما قال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[(١)].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان حاجِز عنِ اتِّباع الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ولهذا كثيرًا ما يَمُرُّ بكم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ كذا وكذا»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ بكذا وكذا»، أو «فَلْيَفْعَلْ كذا وكذا»

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مِمَّا يَدُلُّ على أن الإيمان حاجِز عنِ اتِّباع الشيطان، ومُوجِب لاتِّباع هَدْيِ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الشَّيْطان إمامٌ لكلِّ ضالٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فكُلُّ الضالِّين إمامُهم الشَّيْطان، وهم مُتَّبِعون له.

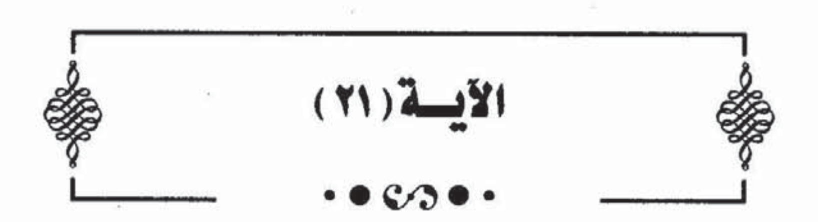
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وإذا قُلْنا بأنَّ (مِنْ) للتَّبعيض في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأن المُراد بالاتِّباع؛ الاتِّباع المُطلَق أنَّ بعض المُؤمِنين قد يَتَّبع الشيطان في بعض الأُمور، وقد يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ وتَكون (مِنْ) للتَّبعيض، إذ إن بعض المُؤمنين قد يَتَّبِعون الشَّيْطان في بعض الأُمور.

مثال ذلك: «لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»(١)، فإذا فعَل أحَد ذلك صار مُتَّبِعًا الشيطانَ؛ ولهذا كان القولُ الراجِح تَحريمَ الأكل بالشِّمال والشُّرْب بالشِّمال، وأنه ليس مَكروهًا فقط، بل هو حرام، والإنسان يَكون عاصِيًا بذلك، إلَّا إذا كان أَفندِيًّا تَقدُّمِيًّا حَضارِيًّا؛ فإنَّه يَأكُل بالشِّمال! وهذه هي المُشكِلة التي يَزعُم فاعِلوها أنهم تَقدُّمِيُّون وحَضارِيُّون، ولكن ليس كل تَقدُّمًا مَحمودًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول عن فِرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، إِذَنْ على هذا القولِ الأَخيرِ أنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا، ويَكون لبعض المُؤمِنين شيءٌ من اتِّباع الشيطان، لا الاتِّباع الكامِل.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآية (٢١)

•• ◊ ••

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢١].

•• ◊ ••

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ الضميرُ يَعود على إبليسَ، و﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على القومِ الذين أَغواهُم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: ﴿مِّن﴾ زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى و﴿سُلْطَٰنٍ﴾ اسمُ (كانَ) مُؤخَّر؛ أي: ما كان له سُلطانٌ عليهم، والمُراد بالسُّلْطان هنا التَّسلُّط أو التَّسليط؛ ولهذا قال: [تَسْليط] فهي إِذَنِ اسمُ مَصدَر، وليس المُرادُ بها السُّلْطانَ الذي هو المَعنى القريب، فالمَعنى: ما كان للشَّيْطان عليهم تَصديق ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

وعلى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السُّلْطان بمعنى التَّصديق يَكون الاستِثْناء مُتَّصلًا؛ أي: ما جعَلْنا للشيطان تَسليطًا عليهم إلَّا لنَعلَم، وإذا جعَلْنا السُّلْطان بمَعنَى التَّسلُّطِ أو القُدْرة، فإنَّ الاستِثْناء يَكون مُنقَطِعًا، أي: ما كان له عليهم سُلْطة، لكن لنَعلَم مَن يَتَّبِعه إلى آخِره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ اللَّامُ هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

الجوابُ: يَحتَمل أن تكون للتَّعليل أو للعاقِبة، وعلى كِلا التَّقديرَيْن فيها إشكالٌ، وهو أنَّ ظاهِرها تَجدُّد عِلْم الله تعالى، ومَعلومٌ أن عِلْم الله تعالى أَزَليٌّ أَبَديٌّ؛ أي: قديم مُستَمِرٌّ لا بُدَّ أن يَستَمِرَّ، فكيف صحَّ أن تَكون اللَّام هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفسيرها: [عِلْمَ ظُهُورٍ]، وذلك لأَنَّ تَعلُّق عِلْم الله تعالى بالشيء له حالان:

الحالُ الأُولى: قبلَ وُجوده.

الحالُ الثانية: بعد وجوده.

فتَعلُّق عِلْم الله تعالى به بعد الوُجود يُسمَّى عِلْمَ ظُهورٍ؛ أي: عَلِمه بعد أن ظَهَر وبانَ، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُجـودِه عِلْم تَقديرٍ، أي: أنه قدَّر أن يَكون وعِلْـمُ التَّقديرِ ثابِت بلا شَكٍّ فإن الله تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ ما يَكون.

وإذا قُلْنا: إنَّ العِلْم عِلْمُ تَقدير وعِلْمُ ظُهور. زال الإشكالُ؛ وصار عِلْم الله تعالى للشَّيْء بعدَ وُقوعه عِلْمًا بأنه ظهَر ووَقَع، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُقوعه عِلْمًا بأنه سيقَع، وفَرْقٌ بين المُتعلَّقين.

وقِيلَ: إن المُراد بالعِلْم هنا العِلْم الذي يَترتَّب عليه الجزاءُ؛ وذلك لا يَكون إلَّا بعد الامتِحان، فإنَّ عِلْم الله تعالى بالشيء قبل أن يَقَع عِلْمٌ لا يَترتَّب عليه ثوابٌ ولا عِقاب؛ لأن المُكلَّف لم يُؤمَر ولم يُنهَ، فإذا أُمِر ففعَل أو أُمِرَ فلَمْ يَفعَل حينئذٍ صار مُثابًا أو مُعاقبًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وعلى هذا الوجهِ يَكون عِلْمُ الله تعالى عِلْمَيْن:

١ - عِلْم مَعناه: أنَّ الله تعالى عالِمٌ بأن هذا الشيءَ سيقَع، ولكن لا يَترَتَّب عليه الثوابُ والعِقابُ.

٢- عِلْم يَتَرَتَّب عليه الثواب والعِقاب، وذلك لا يَكون إلَّا بعد امتِحان المُكلَّف به. وهل يَفعَل أو لا يَفعَل؛ يَعنِي هل يَمتَثِل أو لا يَمتَثِل، فتَبيَّن أنَّ الجواب عن هذه المَسألةِ التي ظاهِرُها تَجدُّد عِلْم الله تعالى: أنَّ العِلْم الذي يَتبيَّن به الخَفِيُّ؛ لأنَّ الأَمْر لم يَزَل ولا يَزالُ أمام الله تعالى واضِحًا ظاهِرًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ هنا ضُمِّنت (نعلَم) معنى (نُميِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يَعنِي: إلَّا لنُميِّز مَن يُؤمِن بالآخِرة مِمَّن هو منها في شَكٍّ.

والناس بالنِّسبة للآخِرة يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام: قِسْم آمَنوا بها، وقِسْم كفَروا بها وأَنكَروا، وقِسْم فيه شَكٌّ وتَردُّد، الذين آمَنوا بها أَمْرُهم واضِح، والَّذين كفَروا بها وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨]، هذا لا يُمكِن، هؤلاءِ أيضًا أَمْرُهم واضِح، والَّذين تَردَّدوا وقالوا: يُمكِن أن تَكون حَقًّا ويُمكِن أن تَكون باطِلًا يُلحَقون بالكافِر؛ لأنَّ الواجِب أن يُؤمِن؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فكَيْف مِمَّن هو منها مُنكِرٌ وجاحِدٌ ومُكذِّبٌ.

فالله جعَل للشَّيْطان سُلْطة على بني آدمَ؛ لأجل أن يَمتَحِن هؤلاء الناسَ فيَعلَم مَن يُؤمِن بالآخِرة مِمَّن هو في شَكٍّ، فالذي فيه شَكٌّ من الآخِرة يَتَّبع الشَّيْطان قَطْعًا؛ لأنه لا يُؤمِن بأن هناك يَوْمًا آخِرًا يُثابُ الناس فيه ويُعاقَبون، فهو يَرَى أن لنَفْسه الحُرِّيَةَ المُطلَقة، وهي في الحقيقة حُرِّيَّةٌ من شيءٍ، ورِقٌّ في شيء، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ[1]

والرِّقُّ الذي خُلِقْنا له هو العُبودِية لله، (وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ) نَسأَل الله تعالى العافِيَةَ، يَعنِي: صاروا عَبيدًا لأَنفُسهم وشَياطينهم، فلا يُمكِن أن يَتحَرَّر

(١) النونية (ص:٣٠٨).

الإنسان من عِبادة الله تعالى على زَعْمه إلَّا كان رقيقًا لغَيْره، للناس والشَّيْطان.

والحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ الذين كانوا في شَكٍّ من الآخِرة لا يُمكِن أن يَعمَلوا ولا أن يَقوموا بطاعة الله تعالى، ذلك لأنَّ الذي يَقوم بطاعة الله تعالى هو الذي يُؤمِن بأنه سوف يُحشَر ويُثاب أو يُعاقَب.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فنُجازِي كلًّا مِنهما ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ الجُمْلة خَبَرية تُفيدُ مَعنًى، ولازِمَ ذلك المَعنَى، فهي خَبَرية تُفيد أنَّ الله تعالى على كلِّ شيء حَفيظٌ؛ أي: مُراقِب ومُطَّلِع ومُهَيْمِن على كل شيء، سَواءٌ كان ذلك ممَّا يَتعَلَّق بفِعْله أو ممَّا يَتعَلَّق بفِعْل الخَلْق، فهو جَلَّوَعَلَا رقيبٌ على كل شيء، لا يَخفَى عليه شيء في الأَرْض ولا في السماء، هذا المَعنَى يَستَلزِم مَعنًى آخَرَ، وهو التَّحذيرُ من المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسان متى عَلِم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حفيظٌ على كل شيءٍ خاف ولم يُخالِف، أمَّا إذا كان في شكٍّ من هذا فإنه سوف يَعمَل كما يَشاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في تَسليط الشيطان على بني آدمَ، وهي أَنْ يَعلَم أن مَن يُؤمِن بالآخِرة فيَعمَل لها ممَّن لا يُؤمِن، ويَكون في الشَّكِّ فلا يَعمَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات عِلْم الله تعالى، وتَعلُّقِ عِلْم الله تعالى بالمَوجودات يَنقَسِم إلى قِسْمين: تَعلُّقٌ بها قَبلَ الوُجود، وتَعلُّقٌ بها بعد الوجود، فالتَّعلُّق بها بعد الوجود يَكون عِلْمه بها عِلْمَ أَمْرٍ واقِعٍ، والأوَّل يَكون تَعلُّق العِلْم بها أنَّه عِلْمٌ بما سيَقَع، وبهذا يَزول الإشكالُ في مِثْل هذه الآيةِ حيث إنَّ ظاهِرها يُفيد تَجدُّد عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ؛

لأننا نَعلَم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحيطٌ بكل شيءٍ عِلمًا أزَلًا وأبَدًا، ومَن ظَنَّ أن الله تعالى لا يَعلَم الشيء إلَّا بعد وجودِه فقَدْ كفَرَ.

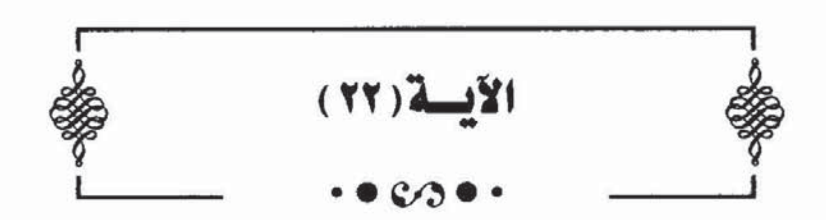
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الآخِرة، ووُجوب الإيمان بها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّكَّ فيما يَجِب فيه اليَقين كُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، ولم يَقُلْ: إنه مُنكِرٌ لها؛ لأنه قد تَكون ظاهِر الحال أنه لَمَّا قال: يُؤمِن بالآخِرة. كأن يقول: الذي يُقابِله يَكفُر بالآخِرة. لكن قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾؛ لنَستَفيد منه فائِدةً وهو أنَّ ما يُطلَب فيه اليَقين يَكون الشكُّ فيه كالإنكار كفرًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُموم رِعاية الله تعالى ومُراقَبته لكلِّ شيء، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن رُبوبية الله تَنقَسِم إلى: خاصَّة وعامَّة، والخاصَّة إلى أَخصَّ وإلى خاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، فهذه الرُّبوبيةُ أَخصُّ من الخاصَّة، فإنَّ رُبوبية الله لخَواصِّ عِباده كالأنبياء أخصُّ من ربوبيته لعُموم المُؤمنين، ورُبوبيته للمُؤمِنين أخصُّ من رُبوبيته لعامَّة الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١]، ولَمَّا كانت الرُّبوبية خاصَّة هنا قد تُوهِم اختِصاص رُبوبيته بهذا البَلْدةِ بعد هذا قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

••❁••



الآيـة (٢٢)

• • ❀ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ:٢٢].

• • ❀ • •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿قُلِ﴾ [يا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ] هنا جَعَل الخِطاب خاصًّا؛ من جِهتَيْن: من جِهة المُخاطِب، ومن جِهة المَدعُوِّ، فالمُخاطِب قال تعالى: (﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ) والمَدعُوُّ كُفَّار مَكَّةَ، ولكنَّ هذا غير مُسلَّمٍ للمُفَسِّر، بل نَقول: إنَّ ﴿قُلِ﴾ يُمكِن أن تَكون مُوَجَّهةً لكلِّ مَن يَتوَجَّه الخِطاب إليه، من الرسول ﷺ أو غيرِه ممَّن ورِثَه في أُمَّتِه، أي: (قُلْ أَيُّها الناسُ).

أمَّا بالنِّسبة للمَدعُوِّين فنَقول: الأَصَحُّ أنَّه عامٌّ لكُلِّ مَن دعا مع الله تعالى غيرَهُ من كُفَّار مَكَّةَ وغيرهم، فيَجِب أن يَكون لدينا قاعِدة وهو أنه إذا دارَ الأَمْر بين أن يَكون الخِطاب خاصًّا أو عامًّا وجَبَ أن يَكون عامًّا؛ لأن العامَّ يَدخُلُ فيه الخاصُّ ولا عكسَ، وكُلَّما كان مَعنَى القُرآن أوسَعَ كان أوجَبَ.

إِذَنْ نَقول: قُلْ أَيُّها المُخاطِب ممَّن تَدعو مع الله تعالى؛ قل للَّذين يَدعون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غيرَه ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أي: زعَمْتُموهم آلِهَةً: (ادْعُوهُمْ)، وهلِ المُرادُ بالدُّعاء هنا دُعاء المَسأَلة، أو دُعاء الإِحْضار؟

(ادْعُوهم) يَعنِي: أَحضِروهم أو دُعاء المَسألة يَعنِي اسألوهُمُ اطلُبوا مِنهُمُ الحوائِجَ، هل يَستجيبون لكم أم لا؟

الجوابُ: يَحتَمِل المَعنَيَيْن: يَحتَمِل مَعنَى: أَحضِروهم؛ لنُناقِشَهم، أوِ ادْعوهم دُعاء مَسألة، يَعنِي: اسألوهم؛ كما تَقول: أَدْعُو الله تعالى، أَيْ: أَسأَله، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً] لم يُقدِّر المُفَسِّر ضَميرًا ووَصْفًا ظاهِرًا، الضميرُ [زَعَمْتموهم] (هُمْ) هذا هو الضَّميرُ، والاسْمُ الظاهِر [آلِهَةً]، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ (زَعَمَ) تَنصِب مَفعولَيْن، وأنَّ المَفعولَيْن مَحذوفان، وتَقديرُ الكَلام: (زَعَمْتموهُمْ آلِهَةً)، لأنَّ (زَعَمَ) من الأفعال التي تَنصِب مَفعولَيْن أصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر؛ فهي من أخوات (ظَنَّ).

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ غَيْرِهِ لِيَنْفَعُوكُمْ بِزَعْمِكُمْ]، هذه الآلِهةُ لا يُمكِن أن تَنفَع المُشرِكين، وذلك لانتِفاء أسباب النَّفْع من عِدَّة أَوْجُهٍ:

أوَّلًا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استِقْلالًا.

ثانيًا: ولا يَملِكون ذلك مُشارَكة.

ثالثًا: وليس لهم مَعونة يُعينوا الله تعالى بها.

رابعًا: ليس لهم شَفاعة إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

فبَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أسباب النَّفْع في هذه الآلِهةِ مُنتَفِية، فقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الجُمْلة استِئْنافية؛ لبيان حال هؤلاءِ الآلِهَةِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [وَزْنَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ] ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا يَملِكون مِثقال ذَرَّة لا في السمَوات ولا في الأَرْض، ولا يَملِكون ما دون المِثْقال؛ لأنَّ التقدير

إذا قُصِد به المُبالَغة فلا مَفهومَ له سَواءٌ كان في الكَثْرة أو في القِلَّة، فهنا لا يَملِكون مِثْقال ذرَّة، يَعنِي: ولا دُونَها.

ومِثال الكَثْرة: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، ولو أَكثَرَ من سَبْعين ما يَغفِر الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، فإذا جاء القَيْد للمُبالَغة قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهوم، إِذَنْ لا يَملِكون مِثقال ذرَّة ولا دُونَها لا في السَّمَوات ولا في الأَرْض، ولو كانوا يَملِكون ذلك لقُلْتم: نَتَعلَّق بهم لعلَّهم يُعطوننا ممَّا يَملِكون.

وهل لهم شِرْك في السَّمَوات أو في الأرض؟

الجوابُ: لا، ولو كان لهم شِرْك لقُلْتم: لعلهم يُعطوننا من نصيبهم؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ شَرِكة ﴿مِن﴾ هذه زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى، وعلى هذا فـ ﴿شِرْكٍ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، وخَبَرُه الجارُّ والمَجرور المُقدَّم ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ يَعنِي: ما لهم شِرْكٌ في السَّمَوات ولا في الأرض.

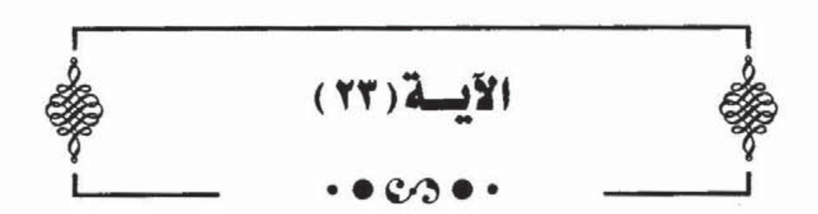
وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿مِنْهُم﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ مُعِينٍ] نَقول في إعراب ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ كما قُلْنا في إعراب ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي: أنَّ (مِنْ) زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى، و(ظهير) مُبتَدأ مُؤخَّر، والظهير بمَعنى: المُعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، إِذَنْ ليس لهم مع الله تعالى مَعونة حتى يُدِلُّوا على الله تعالى بها ويَقولون: أَعطِنا عِوَضًا عن مَعونَتنا لنَنفَع مَن يَدعوننا، ما لهم مُساعَدة مع الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: [مُعِينٍ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليلٌ على أنه يَنبَغي في المُناظَرة التَّحدِّي للمُناظِر فيما يُعلَم أنه لن يَكون؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فيَجِب على كلِّ دُعاة الحقِّ أن يَتَحَدَّوْا هؤلاء المُبطِلين بأن يُبرِزوا لباطِلهم شيئًا من النَّفْع، وهذا كما أنه من الشِّرْك يَكون أيضًا فيما دونَه، فإنه يَنبَغي أن يَكون الداعي لله على عِلْمٍ بالأمور حتى يَستَطيع الجَدَل فيها؛ لأنَّ مَن لم يَكُن على عِلْم فيها فأنه سيَقِف حَيْرانَ ولا يَتمَكَّن من مُقابَلة الخَصْم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه الأَصنامَ المَدعُوَّة من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تَملِك شيئًا لنَفْسها، فلا تَملِك شيئًا لغيرها، ليس لها مُلْك، ولا شِرك في المُلْك، ولا مُعاوَنةٌ على تَصرُّف ولا شَفاعة، والأمر في هذا واضِح: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ﴾، أي: ما لله تعالى ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

• • ❁ • •



الآية (٢٣)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

•••

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وَضَمِّهَا، ﴿لَهُ﴾ فِيهَا]، إذا قالوا: نعَمْ؛ آلِهَتُنا لا تَملِك شيئًا في السَّموات ولا في الأرض، آلِهَتُنا ليس لها مُشارَكة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، آلِهَتُنا لم تُعِنِ الله تعالى، لكنَّها تَشفَع، كما قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فقَطَع الله تعالى هذه الوَسيلةَ الأَخيرةَ ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ إِذَنْ هذه الآلهةُ ما تَستَطيعُ أن تَشفَع إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

وهل يُمكِن أن يَأذَن؟

الجوابُ: لا يُمكِن؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم:٢٦]، ويَقول الله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ومعلوم أنه الله تعالى لا يَرضَى عن الكافِرين لا أن يَشفَعوا ولا أن يُشفَعَ فيهم، فتَبيَّن أنَّ جميع ما يَتعلَّق به المُشرِكون في شِرْكهم مع الله تعالى كلُّه باطِل، وكُلُّه مُمتَنِع، فإن الأسباب التي يُمكِن أن يَنتَفِعوا بها واحِدٌ من أُمورٍ أربعة:

١- المُلْك استِقْلالًا.

٢- المُلْك مُشارَكةً.

٣- الإعانةُ.

٤- الشفاعةُ.

وكلُّ هذه الأربعةِ مُنتَفِية في عِبادة هذه المَدعوَّةُ من دون الله تعالى، فانقَطَع كلُّ سبَب يَتَشبَّث به المُشرِكون، وحينئذٍ فيَجِب أن تكون العِبادة والدُّعاء لله تعالى وحدَه؛ لأنَّه الذي له مُلْك السَّموات والأرض.

وأمَّا تَعريف الشَّفاعة في اللُّغة: هي جَعْل الفَرْد شَفْعًا أو جَعْلُ الوَتْر شَفْعًا، والشَّفْع والوَتْر، فضَمُّ واحِدٍ إلى واحِدٍ شَفْع، وضَمُّ واحِد إلى ثلاثة شَفْع، وهكذا.

أما تعريف الشَّفاعة في الاصطِلاح: فهو التَّوسُّط للغير بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّةٍ، أن تَتوسَّط لغيرك إمَّا بجَلْب مَنفَعة له أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة هي في جَلْب مَنفَعة، والشفاعة فيمَن استَحَقَّ النار ألَّا يَدخُلها، وفيمَن دخَلها أن يُخرَج، فهذه شَفاعة لدَفْع الضرَر.

فلا تَخلو الشفاعة من هذين الأمرين، إمَّا لجَلْب النَّفْع، وإمَّا لدَفْع الضرَر، مثاله: إنسان شَفَع لشَخْص في أن تُعْلَى مَرتَبَتُه هذا لجَلْب مَنفعة، شَفَع لشَخْص كُتِب عليه غَرامة أن تُرفَع عليه الغرامة، فهذا لدَفْع مَضرَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهل الإِذْنُ كَوْنيٌّ أم شَرْعيٌّ؟ الكونيُّ يَعنِي: إلَّا مَن رُخِّص له في أن يَشفَع، وشَرْط الإِذْن أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راضِيًا عن الشافِع والمَشفوع له، فيَأذن فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كرامةً للشافِع، وبَيانًا لفَضْله،

ورحمةً بالمَشفوع له، وإحسانًا إليه.

وقول: ﴿عِندَهُۥٓ﴾ أَيْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهنا لا تَنفع الشَّفاعة عنده إلَّا لَمن أَذِنَ له؛ لكَمال سُلْطانه، فالنَّفْيُ هنا مُتضمِّن لإثباتٍ وهو كَمال السُّلْطان؛ لأنَّ من كَمال السُّلْطان أَلَّا يَتكلَّم أحَدٌ عند المَلِك المَشفوع إليه أبدًا إلَّا بإِذْنه.

ولهذا تَجِد الإنسان إذا كان ذا هَيْبة عند الناس وكان في مَجلِسٍ تَجِد الناس لا يَتكلَّمون هَيْبةً له، وتَجِد السُّلْطان إذا كان ذا هَيْبة ما أحَدٌ يَقدِر أن يَتكلَّم في مكان جُلوسه ولا مع أخيه سِرًّا؛ لأنهم يَهابونه؛ فلِكَمال سُلطان الله لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَشفَع إلَّا بإِذْنه، حتى أَخصُّ عِباده به وهمُ الأنبياءُ وأَخَصُّهم محمدٌ ﷺ لا يُمكِن أن يَشفَع إلَّا إذا أَذِنَ الله تعالى، حتى في مَقام الرحمة يوم القِيامة فإن الله تعالى يَجعَل يوم القِيامة مِئة رحمة يَرحَم بها الخَلْق في مَقام الرحمة وعند شِدَّة الهمِّ والغمِّ المُقتَضي لرحمة الله تعالى ما يُمكِن أن يَشفَع الرسول ﷺ إلَّا بإِذْن الله تعالى أبدًا؛ لكَمال سُلْطان الله إذا كانت الشفاعة لا تَنفَع إلَّا بإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل هذه الأَصْنامُ المكروهة عند الله تعالى المُنحَطَّةِ عنده قَدْرًا هل يُمكِن أن تَشفَع لعابديها؟ أبدًا حتى عيسى ﷺ الذي عُبِد من دون الله تعالى لا يُمكِن أن يَشفَع لعابِديه؛ ولهذا يَقول عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ القِيامة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، ولا يُمكِن أن يَشفَع لهم، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقد سبَق أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَأذَن إلَّا إذا كان الشافِع والمَشفوع له من أهل الشَّفاعة، وقال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ ولهذا

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ شُروط الشَّفاعة ثلاثة: رِضا الله عن الشافِع، ورِضاه عن المَشفوع له، والثالِث إِذْنه بالشفاعة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ حتى هنا ابتِدائيَّة وليست غائِيَّةً؛ لأنَّ (حَتَّى) تَأتي للغاية، وتَأتي للابتِداء وتَأتي للتَّعليل، ولها مَعانٍ مُتعدِّدة مَنْ أَحَبَّ الوقوف عليها فلْيَرجِع إلى كِتاب (مُغنِي اللَّبيب) لابن هِشام[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه مُفيدٌ لطالِب العِلْم، يَقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فيها قِراءتان ﴿فُزِّعَ﴾ و(فَزَّعَ) كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالمَفْعُولِ].

وقوله تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عن قُلوب الخَلْق، أو عن قُلوب المَلائِكة، فيها قَوْلان لأَهْل العِلْم، وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- بيانُهما.

﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُشِفَ عَنْهَا الْفَزَعُ بِالْإِذْنِ فِيهَا]، و(فَزَّعَ) و(فُزِّعَ) بمَعنى: أَزال الفزَع، وليس (فَزَّع) بمعنَى: أَلحَق الفزَع، بل بمَعنى أزالَه، وهو فِعْل يُراد به السَّلْب؛ لأنَّ هناك أَفعالًا يُراد بها سَلْب المَعنَى؛ يَعنِي: ضِد هذا المَعنَى، ومِنه قولهم: قَرَّد البَعيرَ. أي: أَزال منه القُراد، وهو شيءٌ يَكون في جِلْد البَعـير دابَّة أو حشَرة صغـيرة تَعَضُّ البَعير فتَـشرَب الدَّمَ منها، وهو مِثْـلُ القَمْل للإنسان، هو قَمْل الإبِل، يَعنِي: يَلصَق في الجِلْد، وهو إذا أَمسَك الجِلْد ما يُطلِقه أبدًا إلَّا أن تُمسِكه وتَجُرَّه جرًّا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أو (فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) يَعنِي: أَزال الفزَع عن قُلوبهم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْإِذْنِ فِيهَا] أي: بالشَّفاعة، وعلى هذا فيَكون الضميرُ هنا عائِدًا على المَشفوع له، يَعنِي إذا لَحِق المَشفوع له من الهمِّ والكَرْب والغَمِّ ما

(١) مغني اللبيب (ص:١٦٦).

لَحِقه، وكذلك الخوف والفزَع فأَذِن الله تعالى له بالشَّفاعة زال الفزَع عن القُلوب؛ لأَنَّه قرُب الفرَج قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بالإِذْن فيها.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِبْشَارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فِيهَا أَيْ: فِي الشَّفَاعَةِ ﴿قَالُوا۟﴾ الْقَوْلَ: ﴿ٱلْحَقَّ﴾، أَيْ: قَدْ أَذِنَ فِيهَا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يَعود على المَشفوع له، فإن المَشفوع له قبلَ الشفاعة يَلحَقه الفزَعُ والخوفُ من ذُنوبه، أو من غير ذلك، فإذا أُذِنَ في الشَّفاعة زال الفزَع، وقالوا: ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَقول بعضهم لبَعضٍ: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قالوا القولَ الحقَّ؛ بمَعنى: الثابِت المُوافِق لَمحلِّه، وقد سبَقَ لنا أنَّ الحقَّ في الأخبار هو الصِّدْق، والحقُّ في الأحكام هو العَدْل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وهذا ما ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يَعود إلى المَشفوع لهم، وأن التَّفزيع بمَعنَى إزالة الفزَع، وهو الخَوْف بالإِذْن في الشَّفاعة، والسِّياق لا يَأباه، ولكن قد ثبَت في الحديث الصحيح عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ المُراد به غير ذلك، وأن المُراد به الملائِكة الذين هم عند الله تعالى، إذا تكلَّم الله تعالى بالوَحْيِ صُعِقُوا، فإذا صُعِقُوا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يَعنِي: أُزيل الفزَع عنها، ثُم صاروا يَتساءَلون: ماذا قال الله تعالى؟ فيُقال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وإذا جاءَتِ السُّنَّة بتَفسير القرآن كانت أَوْلى، على أننا سبَق أن قُلْنا: إنَّ القُرآن إذا دلَّ على عِدَّة مَعانٍ لا تَتناقَض حُمِل على جميع المعاني؛ لأنه أَوْسَعُ وأَعظَمُ ممَّا يَصِل إليه فِكْر الإنسان، فقد يَصِل فِكْري إلى شيء ويَصِل فِكْر الآخر إلى شيء آخَرَ، وفِكْر الثالث إلى شيءٍ ثالِث، والآية كلُّها تَحتَمِل هذه المعانيَ، فتُحمَل عليها، أمَّا إذا كان

لا يَحتَمِل إلَّا مَعنًى واحِدًا فإنه يَجِب أن يُحمَل على ما قام الدليلُ عليه.

وقال بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: حتى إذا فُزِّع عن قُلوبِهم عند الموت، ليس يومَ القِيامة (عِنْد الشَّفاعة)، ولكن إذا فُزِّع عن قُلوبهم (عِند الموت)، ولكن هذا ضعيف وإن كان قد يَرِد فيُفزَّع عن القَلْب عند المَوْت ويَعترِف بالحقِّ، فإنَّ فرعونَ حين غرِق ماذا قال؟ حتى إذا أدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤]، لكن هذا المَعنى ضَعيف، فالآيةُ دائِرة بين ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وما ثبت به الحديث الصحيح، وهي دالَّةٌ قَطْعًا على ما جاء به الحديثُ الصحيحُ، وما ذكَرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فهو مُحتَمِل ولا تَأباه الآيةُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وأمَّا إعرابُها صِفةٌ لَمصدَر محَذوفٍ؛ أي قال: [الْقَوْلَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾] ولا يَصلُح أن تَكون مَفعولًا لـ(قَالُوا)؛ لأنَّ القول لا يَنصِب إلَّا جُملة أو مَا بمَعنى الجُمْلة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠] أين مَقول القولِ؟ ﴿إِنِّى عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ جُملة، أو بمَعنى الجملة؛ كقولِكَ: قُلتُ قصيدةً، أو قُلْتُ كلِمةً. هذه بمَعنَى الجُمْلة؛ لأنَّ الكلِمة والقَصيدة والشِّعْر لا يَكون إلَّا جُمْلة.

فإن قلتَ: ما تَقول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرًا﴾ [النحل:٣٠]؟

فالجوابُ: هذه ليست مَفعولًا لـ(قالوا)، لكنَّها مَفعول لِفِعْلٍ محَذوف؛ والتقديرُ: (أَنزَل خَيْرًا).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهُوَ الْعَلِيُّ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ]، وهذا فيه إمَّا تَقصير

وإمَّا قُصور؛ لأنَّ عُلُوَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس بالقَهْر، بل عُلُوُّه ثلاثةُ أقسام: عُلُوُّ القَهر، وعُلُوُّ القَدْر، وعُلُوُّ الذات، لكنَّ المُفَسِّر -عفا الله تعالى عنَّا وعنه- كأنَّه لا يَرى عُلُوَّ الذات، والمُنكِرون لعُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقَسِمون إلى قِسْمين: حُلوليَّة، ومُعطِّلة تَعطيلًا مَحْضًا.

فالحُلولية يَقولون: إنه يَجِب عليك أن تُؤمِن بأنَّ الله تعالى في كل مكانٍ بذاته، وتُنكِرَ عُلُوَّه، إن كنتَ في المَسجِد أو كنتَ في السُّوق، أو كنتَ في البَرِّ أو كنتَ في البَحْر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذاته في ذلك المكانِ، وإن كنتَ في الحُشِّ فهو في الحُشِّ!! والحُشُّ هو: مَكان التَّخلِّي، يَعنِي -والعِياذُ بالله تعالى- ما نَزَّهوا الله تعالى عن الأَنْتان والأَقْذار -نَسأَل الله تعالى العافيةَ- ولا شَكَّ أنَّ هذا كُفْرٌ مَحْض ولا يَشُكُّ أحَدٌ في كُفْر مَنِ اعتَقَد هذه العَقيدةَ.

والطائِفة الثانية المُنكِرة للعُلُوِّ يَقولون: إنَّه لا يَجوز أن نَقول: إنَّ الله تعالى فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا يمينَ ولا شِمالَ ولا أمامَ ولا خلْفَ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُنفَصِلٌ، وهذا تَعطيل مَحْضٌ، يَعنِي: لو قيل لك صِفْ لنا المَعدوم؟ ما وَجَدْتَ أَشدَّ إحاطةً بالمعدوم من هذا الوَصْفِ، الذي ليس فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا يَمينَه ولا شِمالَه ولا خَلْف ولا أَمامَ، ولا مُتَّصِل ولا مُنفَصِل، هذا ليس بمَوجود قَطْعًا.

أمَّا الرُّسُل وأَتباعُهم فيُؤمِنون بأن الله بِذاته فوقَ كل شيء، وهذا هو الذي دلَّ عليه العَقْلُ والفِطْرة والإِجْماع والكِتاب والسُّنَّة.

ولْنَستَعرِض لهذا الأَمْرِ، وإن كان -الحمدُ لله- ظاهِرًا.

فظاهِر الكِتاب دلَّ على أن الله تعالى بذاته فوقَ عَرْشه؛ من وجوهٍ مُتنوِّعة: فتارَةً بذِكْر العُلُوِّ مِثْلَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وتارةً بذِكْر الفَوْقيَّة مِثْلَ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وتارةً بذِكْر صُعود الأشياء إليه مِثْل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وتارةً بذِكْر نُزول الأشياء منه، مِثل قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، فقَدْ تَنوَّعَتِ الأدِلَّة من كِتاب الله تعالى على عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأمَّا السُّنَّة فكذلك، دلَّتِ السُّنَّة على عُلوِّ الله تعالى بِذاته من قول الرسول ﷺ وفِعْله وإِقْراره؛ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَبُّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ»[1]، وقال ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[2]، وأمَّا فِعْله فإنَّه في يوم عرَفة وهو يَخطُب الناس عندما خطَب تلكَ الخُطْبة العظيمةَ قال ﷺ لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللهمَّ اشْهَدْ»، يَرفَع أُصبُعه إلى السَّماء ويَنكُتها إلى الناس، «اللهمَّ اشْهَدْ»[3]، هذه سُنَّة فِعْلية؛ بإِشارته ﷺ إلى السماء حين ذَكَر الله تعالى، وأمَّا الإقرارية فإنه أُتِيَ إِلَيْهِ بِجَارِيَةٍ فَسَأَلَهَا فَقَالَ: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[4]، هكذا قال، ويُعتبَر هذا إقرارًا، فقد تَنوَّعَتِ السُّنَّة بالدَّلالة على عُلوِّ الله تعالى بذاته.

وأمَّا الإِجْماع فقد أَجمَع السلَف من الصحابة والتابعين وأَئِمَّة الأُمَّة على أنَّ الله تعالى في السَّماء بذاته، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِنهم بحرفٍ واحِد أبَدًا: إن الله تعالى ليس في السماء. أو: إنَّ الله تعالى في كل مَكان بذاته.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٠٩) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأَمَّا العَقْلُ فاسأَلْ عَقْلَكَ: هل الكَمال في عُلوِّ الذات أو في نَفْي العُلُوِّ عنه؟

الجوابُ: الأَوَّل بلا شَكٍّ، عُلوُّ الذات تَدُلُّ على الكَمال، بل هي الكَمال، فإذا كان العُلوُّ هو الكمالَ، فإنَّ من المعلوم عَقْلًا أن الربَّ مُتَّصِف بالكَمال، وحينئذٍ يَثبُت له العُلوُّ عَقْلًا.

أمَّا الفِطْرة فاسأَلْ فِطْرتَكَ عندما تَسأَل الله تعالى شيئًا -افرِض أَنَّك ما درَسْتَ ولا حضَرْت في المساجد ولا شيء- إذا سأَلْت الله شيئًا أينَ ينصَرِف قلبُكَ؟

الجوابُ: إلى الأعلى؛ ولهذا كان أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُقرِّر فيقول: كان الله تعالى ولم يَكُن شَيْءٌ قبلَه، وكان عَرشُه على الماء. وما ذكَرَ استِواء العَرْش، يُريد بذلك أن يُنكِر استِواء الله تعالى على العَرْش الذي مِن لازِمِه الإقرارُ بالعُلوِّ، فقال له أبو جعفر الهمَذاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَعْنا مِنْ ذِكْر العَرْش، وأَخبِرْنا عن هذه الضَّرورةِ التي نَجِدها في نُفوسنا، ما قال عارِفٌ قَطُّ: يا الله. إلَّا وجَدَ من قَلْبه ضَرورة بطَلَب العُلوِّ»، فلَطَم الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ على رأسه وصرَخَ وقال: حيَّرَني الهَمَذانيُّ![1]. لأنَّ الدليلَ الفِطْريُّ لا يُمكِن النِّزاع فيه، ولو نازَعَك مُنازِع فيه قُلْتَ: هذا مجنون؛ فلو أن أحَدًا أَنكَر طلَب الطَّعام للجائِع فلا يُصدَّق؛ ولهذا تَحيَّر أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وعجَزَ عن الإجابة؛ لأنَّ هذا دَليل فِطْريٌّ لا يُنازِع فيه أحَدٌ.

وعليه فقد تَطابَقتِ الأدِلَّة على عُلُوِّ الله تعالى بذاته، أمَّا عُلوُّه بصِفاته سواء كانت صِفاتِ قَدْر أو قَهْر، فهذا يُقِرُّ به جميع المُنتَسِبين إلى الإسلام، حتى الجَهْميَّة والأشاعِرة وغيرُهم يُقِرُّون بأنَّ الله تعالى عالٍ عُلُوًّا معنويًّا، وهو عُلُوُّ الصِّفاتِ.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٦٤٢-٦٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٥).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] لا شكَّ أنَّ هذا ليس تَفسيرًا مُطابِقًا، وكأنَّ المُفَسِّر أَخذها مِنْ قَرْن (العَظيم) بـ(العَلِيِّ) في آية الكُرْسِيِّ حيثُ قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ففَسَّر الكبيرَ بالعَظيمِ، ولكن الصحيح أن الكبير أعَمُّ؛ لأن الكبيرَ ليس مَعناهُ العَظيمَ، بل معناه: ذو الكِبْرياء، ومَعناه أن الله تعالى لا يُماثِله شيءٌ في ذاته.

فالسَّمَوات السَّبْع والأَرَضين السَّبْع في كَفِّه تعالى كخَرْدلةٍ في كفِّ أَحدكم، يَعنِي: السمَّواتِ السَّبعَ على عِظَمِها والأَرَضين السَّبع مثلَما لو وضَع الإنسان في يَدِه خَرْدلة -وهي حَبَّة الخَرْدل التي بكِبَر حَبَّة السِّمْسِم- وهذا أيضًا تَمثيل على سبيل التَّقريب، وإلَّا فالله تعالى أعظَمُ وأجلُّ، فكل المَخلوقات بالنسبة له تعالى ليسَتْ بشيء.

فينبَغي أن نَقول: إنَّ الكبير ليس هو العَظيمَ. بل يُفيد مَعنًى آخَرَ، وهو الذي له الكِبرياء، وهو الذي لا يُنسَب إليه شيءٌ من خَلْقه، فالسَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضينَ السَّبعُ في كَفِّه كخَرْدلة في كفِّ أَحدِنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الشَّفاعة بإِذْن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ولو كانت الشَّفاعة لا تَنفَع مُطلَقًا ما صحَّ الاستِثْناء، ولو كانت تَنفَع مُطلَقًا ما صحَّ النَّفيُ، إِذَنْ فهي تَنفَع بإِذْن الله تعالى.

فإن قلت: ما وَجهُ الدَّلالة على إثبات الشَّفاعة، مع أنه نَفَى الشفاعة؟

فالجوابُ: أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَقُلْ: (ولا تَنفَع الشَّفاعة) فدَلَّ على إثباتها، لكن لا تَنفَع إلَّا بإِذْنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَظَمة الله تعالى وقُوَّة سُلْطانه، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن الشفاعة لا تكون إلَّا بإِذْنه، خِلاف المَخلوقين مهما عَظُم مُلْكهم فإنه يَدخُل الشافِع على المَلِك والسُّلْطان ويَشفَع بهم، فكُلَّما عظُم السُّلْطان ازدادَتِ الهَيْبة، وصار لا يَتكَلَّم أَحَدٌ إلَّا بإِذْن الله تعالى، كما قال تعالى في سورة: (عَمَّ يَتَساءَلونَ): ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَطْع كُلِّ سبَب يَتعَلَّق به المُشرِكون في آلِهَتهم؛ لأَنَّه قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ فهذا آخِرُ سبَب يُمكِن أن يَتعَلَّق به المُشرِكون، ومع ذلك نَفاه الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كرَمِ الله على كُلٍّ من الشافِع والمَشفوع له؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتكلَّم بكَلامٍ مَسموع؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ بناءً على القَول الراجِح في معنَى الآيةِ؛ لأنه لولا أن المَلائِكة يَسمَعون كَلامه تعالى لم يُصعَقوا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلام الله ليس ككلام المَخلوقين، بل هُو أَعظَمُ؛ لأَنَّ السامِع له يُصعَق إلَّا أنَّ يُثبِّته الله؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ قول الله كُلَّه حَقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرُّبوبية؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات عُلُوِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، وهو يَنقَسِم إلى عُلوِّ الذات وعُلوِّ الصِّفات، وكِلاهما ثابِت لله.

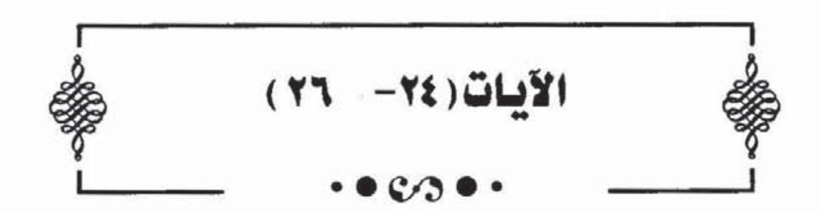
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْبات الكِبرياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن للمَلائِكة عُقولًا وفَهْمًا وإِدْراكًا وقُلوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولكن هل قُلوبهم كقُلوب الآدَمِيِّين؟

الجوابُ: الله أَعلَمُ، لا نَعلَم كيفيَّتها، والمَلائِكة صُمْدٌ، لا يَأكُلون ولا يَشرَبون، وليس لـهم أَجواف ولا أَمعاءٌ، لأَنَّه لا يَحتاج إلى الجَوْف والأَمْعاء إلَّا مَن يَأكُل ويَشرَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائِكة يَتكلَّمون: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

• • ❁ • •



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٤-٢٦].

•••

قوله تعالى: ﴿مَن﴾ اسمُ استِفْهام، والمُراد به التَّحدِّي، تَحدِّي هَؤلاءِ المُشرِكين الذين يَعبُدون مع الله غيره، وهل هذه الأَصنامُ تَرزُقهم من السَّموات والأرض؟

الجوابُ: لا، ولكن الذي يَرزُق هو الله تعالى، فيَتَحدَّاهم بالسُّؤال: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: (مِنْ) لابتِداء الغاية؛ أي: أنَّ الرِّزق يَأتِي من السَّموات، والرِّزق بمعنى: العَطاء، فما هو الرِّزق من السَّموات؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمَطَر]، فإنَّ المَطَر رِزقٌ يَنزِل إلى الأرض فتَنبُت، وأمَّا الرِّزْق من الأَرْض فأَمْره ظاهِر ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ثُم إننا نَقول بأنَّ الرِّزق من السَّمَوات أشمَلُ من المَطَر؛ فإن السَّموات يَنزِل منها المطَر ويَنزِل منها المَنُّ والسَّلْوى، وربما نَقول: إنَّ الطُّيور في جَوِّ السماء أنها من رِزْق السماء؛ لأنها تَأتِي من فَوقُ، فكُلُّ ما يَأتي مِن فَوقُ فإنه يَصدُق عليه أنه رِزقٌ من السَّموات.

والمطَر يَنزل مِن سماءٍ واحدةٍ، مِن العُلو؛ ويُراد بالسَّموات أحيانًا جهةَ السمواتِ كما في قولِه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ في السَّمواتِ، معَ أنَّه في العُلو من جِهة الغَرب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخِطاب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، والمُخاطَب في قوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ المُشرِكون الكُفَّار فبماذا يُجيبون؟ أَحيانًا يُجيبون بالصواب كما في قوله تعالى في سورة يُونُس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] هذا جوابٌ صحيح، وأَحيانًا لا يُجيبون يَتلعْثَمون أو يَأبَوْن أن يَتكلَّموا عِنادًا وخوفًا من الإِلْزام؛ لأنهم إذا قالوا: الله. أُلزِموا بألَّا يَعبُدوا إلَّا الله تعالى؛ كيف تَعبُدون مَن لا يرزُق؟!

فهُمْ أحيانًا يُجيبون بالصَّواب ويَقولون: الله. ثُم يُكابِرون ويُعانِدون ويَقولون: (إِنَّما نَعبُدهم شُفعاءَ لنا عِند الله تعالى؛ ليُقرِّبونا إلى الله تعالى زُلْفى)؛ أي: ما نَعبُدهم لِذَواتهم، وأَحيانًا يَأبَوْن الجوابَ يَتلعْثَمون؛ لأنَّ الحقَّ ثَقيل عليهم.

فإذا لم يَقولوا شيئًا فقُلِ: الله؛ ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يرزُقكم من السَّموات والأرض. فإن أَبَوْا بأن قالوا: لا، هو غَيرُه. ولكن لا يَملِكون أن يَقولوا: هو غيرُه. فقُلْ: مَن؟ أَعِدْ عليهم السؤال مرَّةً ثانيةً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ] يَعنِي: إن لم يَقولوا: الله، فأنت قُلْ هذا وأَعلِن هذا، [لا جوابَ غيره]، يَعنِي: لا يُمكِن أن يُجيب أَحَد بغير هذا الجوابِ، وإن أَجاب فقُلْ له: أين ذلك؟ وكيف يَكون؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فإذا كان هو الله، فما الواجِب علينا نَحنُ؟ إذا كان الذي يَرزُقنا هو الله فمِن أين نَطلُب من الرِّزْق؟ من الله تعالى، والذي أحَقُّ أن يُعبَد هو الذي يَرزُق.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾: ﴿وَإِنَّآ﴾ الضمير يَعود على النَّبيِّ ﷺ ومَن آمَن معَه، ﴿أَوْ﴾ حرف عَطْف (إيَّا) مَعطوفة على اسم (إنَّ)؛ ولهذا جاءَت بالضمير المُنفصِل المَنصوب؛ وخبَرُ المُبتَدأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعنِي: أننا لا نَخرُج عن إحدى هاتَيْن الحالَيْن: إمَّا الهُدى، وإمَّا الضَّلال؛ ولا يَخرُج أحَدُنا عن ذلك؛ فإمَّا نَحنُ على الهُدى وأنتم على الضَّلال، وإمَّا نحن على الضَّلال وأنتُم على الهُدَى، وأمَّا كلُّنا على الهُدى أو كلُّنا على الضَّلال فلا؛ لأنَّ قولَنا وقولهم مُتَناقِض؛ لأنه ليس بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال، والنَّقيضان لا يَجتَمِعان ولا يَرتَفِعان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وليس هُناك ثالِثٌ؛ فماذا بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال!.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أحَدُ الفَريقين ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ولم يَقُل: (لَفي هُدًى أو في ضَلال) ولم يَقُلْ: (لعَلَى هُدًى) أو (ضَلال)؛ لأن الذي على هُدًى على جادَّة بيِّنة عُلْيا واضِحة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وصاحِب الضَّلال مُنغَمِس في ضَلاله تائِه حائِر ليس له حَقٌّ من العُلوِّ، بل هو مَغمور بالجَهْل بكل جانب؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعلوم أن الظَّرْف مُحيط بالمَظروف؛ فالضَّلال مُحيط بِهِم قد أَعمَى بصائِرَهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ يَعنِي: أننا على هُدًى ظاهِر بَيِّن عالٍ

﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ﴾ مُبين مُنغَمِس في الجَهْل والضَّلال لا نَدرِي أين يَذهَب!

وتَأمَّل ما في هذه الآيةِ من الإِنْصاف، فهو إِنْصاف تامٌّ لا جِدالَ فيه؛ يَقول: أَنَا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين؛ فهذا إِنْصاف؛ فلو قلت: أنا على هُدًى وأنت على ضَلال صار هذا جَـوْرًا، ولا يُطيـعك أحَد؛ لأن خَصْمك سيَقول: (بل على العَكْس: أنا على هُدًى وأنت في ضَلال!)؛ فإذا أَنصَفتَ وقُلتَ: أنا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين، فإن ذلك إِنْصاف لا أحَدَ يُجادِل فيه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المُبين مِن الرُّباعيِّ بمَعنى: بَيِّن، من الثُّلاثي؛ لأن (أَبان) تَأتِي مُتعَدِّية وتَأتي لازِمة؛ فتَقول: (أَبان الحقَّ) بمَعنَى: أَظهَره، وتَقول: (أَبان الصُّبْح) و(بان الصُّبْح) بمَعنَى: ظهَر.

إِذَنْ: ﴿مُّبِينٍ﴾ تَقَع في سِياق بمَعنَى: مُظهِر، وتَقَع في سِياق بمَعنَى: ظاهِر، فمثَلًا في ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بمَعنَى: ظاهِر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] بمَعنَى: المُظهِر، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ فهُوَ بمَعنَى: المُظهِر. أمَّا (بانَ) بدون هَمْزة فهي بمَعنَى ظهَر لا غيرَ، ولا تَأتي بمَعنَى: مُظهِر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الإِبْهام تَلطُّف بهم، داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقوا له]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الإِبْهام] الإبهام في: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ فلم يَقُلْ: نحن على هُدًى وأنتم على ضَلال، أو نحن على ضَلال وأنتم على هُدًى، بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾، وهذا إبهام؛ لأنه لا يُدرَى أهؤلاءِ أَمْ هؤلاءِ؛ فيَقول: إن هذا الإبهامَ فيه تَلطُّف بِهِم داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقُوا له، هذا من جِهة مُعامَلتهم، وفيه أيضًا ما أَشَرْنا إليه قبلُ، وهو الإنصاف والعَدْل وعدَم الجَوْر، فمَعناه: أننا نَقِف

معَكم مَقام المُنصِف؛ فإمَّا نحن على الحقِّ وأنتُمْ على الباطِل، وإمَّا أنتُمْ على الباطِل وأنتُمْ على الحقِّ، ليس هناك سَبيل ثالِث.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأَنَّنا بَريئُون مِنكم، ﴿قُل﴾ لهم مُخاطِبًا إيَّاهم في مُجادَلتهم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ والجُرْم والإِجْرام بمَعنَى: الذَّنْب؛ يَعنِي: الذي وقَعْنا فيه من الإِجْرام لا تُسأَلون عنه؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:١٣٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالإنسان لا يُسأَل عن جُرْم غيرِه، ولا يُسأَل غيرُه عن جُرْمه، كذلك لا نُسأَل عمَّا تَعمَلون من إِجْرام أو غيرِه.

وفي هذه الجُمْلةِ في الحقيقة غَضاضة على النَّفْس أكثَرَ من الغَضاضة على الخَصْم: فبالنِّسْبة لنا قُلْنا: لا تُسأَلون عمَّا أَجرَمنا؛ أوَّلًا: وَصَفْنا عمَلَنا بأنه إِجْرام، وثانيًا: وصَفْناه بالفِعْل الماضي الدالِّ على الوُقوع: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

وفي الخَصْم قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وليس عمَّا تُجرِمون؛ وكل هذا مِن باب التَّلطُّف، والله يَعلَم مَن المُجرِم مِن غيره، لكن لأَجْل أن نُقيم الحُجَّة على هؤلاءِ بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العَدْل والإِنْصاف، بل بما ظاهِره الغَضاضة علينا؛ وثانيًا أنه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يَقُل: عمَّا عمِلْتم. ومَعلوم أن الماضِيَ مُحقَّق الوُقوع، والمُضارِع قد يَقَع وقد لا يَقَع فـ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يَعنِي: ما عمِلْتم.

فتأمَّلْ كيف كانت هذه المُحاجَّةُ في ظاهِرها الغَضاضة على المُسلِمين؛ ففي الأوَّل: وإنَّا أو إيَّاكُم. هذه مَرتَبة، وهي كافِية في إقامة العَدْل والإنصاف، لكن الثانية أعظَمُ منها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظير هذا: ما وقَـعَ من النَّبيِّ ﷺ مع قُرَيْشٍ في صُلْـح الحُدَيْبِـية مِن أن مَن ذهَب من المُسلِمين إليهم لا يَرُدُّونه، ومَن جاء من المُشرِكين مُسلِمًا إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه يَرُدُّه؛ فعِندما تَنظُر إلى هذا الشَّرْطِ تَجِد أنه شرطٌ الرابِحُ فيه هُمُ المُشرِكون؛ ولهذا قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَ نعطِي الدَّنيَّة في دِيننا؟ ولماذا نَتنازَل هذا التَّنازُلَ ونحن على الحَقِّ وهُم على الباطِل؟! ولكن الرسول ﷺ أجابه بقوله: «إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ عَاصِيَهُ وَهُوَ نَاصِرِي»، فانظُرْ إلى الثِّقة بالله في هذا المَقامِ الضَّنْكِ الذي لم يَصبِر عليه أَجلَدُ الصحابة كعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَجابه ﷺ بكلام هادِئ، كلام واثِق بالله، جازِم بالنَّصْر: «إِنِّي رَسُولُ الله»، والرسول يَأتَمِر بأَمْر مَن أَرسَله «وَلَسْتُ عَاصِيَهُ»، هذا بالنِّسبة للطاعة؛ ثُمَّ الثِّقَة: «وَهُوَ نَاصِرِي»، كقول مُوسَى لَمَّا قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فما أَعظَمَ ثِقةَ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام بنَصْر الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسأَل الله تعالى أن يَهَب لنا من الثِّقة به ما يَزداد به إيمانُنا وتَوكُّلُنا.

وأَقول: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بهذه الشُّروطِ مع أن فيها غَضاضةً على المُسلِمين في ظاهِرها، ولكن كان في هذا الاتِّفاقِ فَتْحٌ عَظيم سمَّاه الله عَزَّوَجَلَّ فتحًا فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد:١٠]، فسَمَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَتْحًا؛ وقال الرسول ﷺ: «أَمَّا مَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ فَسَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَلَا نُرِيدُهُ لَا رَدَّهُ الله»، وحصَل هذا في قِصَّة أبي بَصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى انتَهى الأَمْر إلى إِلْغاء الشَّرْط من قِبَل المُشرِكين.

والشاهِدُ: أن صاحِب الحَقِّ وإِنْ أَتَى بما ظاهِره الغَضاضة فإنه واثِق؛ فهنا قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وانظُرْ إلى الثِّقة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القِيامة]، وهذا الذي ذكَرَه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا شَكَّ أنه مُحتَمل في الآية، ويُحتَمل أن الجَمْع أعَمُّ من ذلك، وهو الجَمْع في القِتال والجَمْع يوم القِيامة يَجمَع بَيْننا ربُّنا في الدُّنيا في القِتال كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الفرقان:٤١]، فهؤلاء وهؤلاء جَمَع الله تعالى بينهم، فيُمكِن أن يُراد بقَوْله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدنيا في القِتال وفي الآخِرة للفَصْل، ثُم بعد ذلك يَفتَح بَيْننا، يَحكُم بَيْننا بالحَقِّ، فيُدخِل المُحِقِّين الجَنَّة والمُبطِلين النار.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ يَعنِي: يَنصُر بعضنا على بَعْض في الدُّنيا، والمُستَحِقُّ للنَّصْر منهمُ المُسلِمون بلا شَكٍّ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، فيَجمَع الله تعالى بينَنا، ثُم يَفتَح بينَنا بالحَقِّ، والحَقُّ يَعنِي: بالعَدْل الذي لا جَورَ فيه.

وإنما قُلْنا: إن الحَقَّ هنا هو العَدْل؛ لأنه وُصِف به الحُكْم قال تعالى: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وقد أَشَرْنا فيما سبَق إلى أن الحَقَّ إن أُضيف إلى الأَخْبار فهو بمَعنَى الصِّدْق، وإن أُضيف إلى الأَحْكام فهو بمَعنَى العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكِم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحكُم به] ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ صِيغة مُبالَغة مِثْل (الرَّزَّاق) صِيغة مُبالَغة، وإنما سَمَّى الله تعالى نَفْسه بالفَتَّاح؛ لكَثْرة فُتوحاته على خَلْقه وحُكْمه بينهم.

والفَتْح يَأتِي بمَعنَى: النَّصْر والحُكْم بين الناس والفَصْل، فله مَعانٍ بحسَب السِّياق، فالله تعالى هو الفَتَّاح الذي يَفتَح على عِباده بالنَّصْر، ويَفتَح على عِباده بالعِلْم، ويَفتَح على عِبادة بالفَهْم، ويَفتَح على عِباده بحُسْن النِّيَّة والقَصْد؛ فهو مُتضَمِّن لأَشياءَ كثيرةٍ؛ ولهذا جاء بصِيغة المُبالَغة ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو ذو العِلْم الواسِع، وقد سبَقَ لنا أن عِلْم الله أَزَليٌّ أبَديٌّ؛ أزَليٌّ لم يُسبَق بجَهْل، أبَديٌّ لا يَلحَقه نِسيان قال الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾، يَعنِي: لا يَجهَل ما سيَأتي ولا يَنسَى ما مضَى.

وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحيط بكُلِّ شيء جملةً وتَفصيلًا؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، فكل شيء فالله تعالى عالِم به جُملةً وتفصيلًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب مُناظَرة المُشرِكين ومُحاجَّتِهم، ويُؤخَذ الوُجوب من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لأنَّ الأصل في الأَمرِ الوُجوب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي أن يُستَدَلَّ بالأَوْضَح والأَبيَن، فإن الرِّزق من الله عَزَّوَجَلَّ أَمْر مَعلوم لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَقول: إنه يُنزِل المَطَر أو أنه يُنبِت النَّبات. وفي باب المُناظَرة يَنبَغي للإنسان أن يَستَدِلَّ بما هو أَبيَنُ وأَوْضَحُ، وهذه طريقة القُرآن كما سبَقَ لنا في (قواعِد التفسير).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز إجابة السائِل عمَّا سأَل فيما هو واضِح؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، ومِثاله من الأُمور العادِيَّة، أن تُسأَل مثَلًا: مَن الذي جاءَ بكذا وكذا؟ فتَتَوقَّف أو تَتَلَعْثَم؛ إمَّا جَهْلًا أو مُكابَرةً، فأَقولُ: أَلَيْس فُلان هو الذي جاء به فأُقرِّره.

وإجابة السائِل إنما تكون في الأُمور الواضِحة، أمَّا في الأمور غَيرِ الواضِحة فقَدْ يُعارِض، ولا يَكون جوابُه مُقنِعًا، لكن في الأمور الواضِحة للسائِل أن يُجيب نَفسه إذا تَلَعْثَم الخَصْمُ ولم يُجِب، أمَّا إذا أَجاب فالأَمْرُ واضِح، وهذا الاستِفْهامُ المَوْجود في الآية الكَريمة أَجاب عنه المُشرِكون بالحَقِّ في مَوْضِعِ آخَرَ في سورة يُونُس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز مُحاجَّة الخَصْم بما يُعرَف -عند عُلَماء المناظرة والجَدَل- في بابِ المُناظَرة بالسَّبْر والتَّقْسيم، فالسَّبْر يَعنِي: تَتبُّع الشيء، والتَّقسيم يَعنِي التَّرديد بين هذا أو هذا، فمَثَلًا هُنا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإذا تَتَبَّعنا الحالَ وَجَدْنا أن حال كلٍّ مِنَّا لا تَخرُج عن حالين: إمَّا هُدًى، وإمَّا ضَلال، وهي إمَّا لنا، وإمَّا لكم، وليس هناك شَيْءٌ ثالِث، وهذا يُعرَف بالسَّبْر والتَّقسيم.

ونَظيرُه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، هَذِه دَعْواهُ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم:٧٨]، يَعنِي: هل يَعلَم الغَيْب أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله تعالى أَعلَمَهُ بذلك وعَهِد به إليه، والقِسْم الثالِث الكَذِب؛

ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [مريم:٧٩]، كلَّا: أي أنه لم يَطَّلِعِ الغَيْبَ، ولم يَتَّخِذ عند الرحمنِ تعالى ﴿عَهْدًا﴾، عهدًا: الشيءُ بين هذا وهذا حتى يَتبيَّن أنه لا بُدَّ أن يَكون أحدَ الأَمْرين.

مِثال ذلك: نحنُ أو أَنْتم الآنَ أمامَنا طريقان هُدًى أو ضَلال؛ إمَّا نحن على الهُدَى وأَنْتم على الضَّلال، أو نحن على الضَّلال وأَنتُم على الهُدَى، كذلك الآيَةُ التي في سُورة مريمَ عَلَيْهَاالسَّلَامُ واضِحة جِدًّا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨] وجهُ ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: هل هذا اطَّلَع الغَيْبَ وعَلِمَ أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا أم اتَّخذ عند الرحمن سبحانه عَهْدًا، أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَخْبَره وعَهِد له بأنه سيُؤتيه مالًا وولَدًا؛ لأن دَعْواهُ هذه إمَّا أن تكون كذِبًا أو عنده عِلْم من الغَيْب أو عَهْد من الله تعالى، قال الله تعالى في هذا: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: ولا هذا ولا هذا، إذا انتَفَى هذا وهذا ماذا يَبقَى له؟ يَبقَى الكَذِب أنها دَعوَى كاذِبة لا حقيقةَ لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٩-٨٠].

ومنه أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، والجوابُ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والجوابُ: أنهم قالوا على الله تعالى ما لا يَعلَمون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّلطُّف مع الخَصْم والتَّنزُّل معه للوصول إلى الإقرار بالحَقِّ، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ هذا التَّنزُّلَ في غاية التَّنزُّل مع الخَصْم والتَّلطُّف معه؛ ليُقِرَّ بالحَقِّ، وانظُرْ إلى نَحوٍ من ذلك:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ومعلومٌ أنَّ الله تعالى خَيرٌ، ولكن من باب التَّنزُّل معهم قِيل لهم: الله تعالى خيرٌ أم أَصنامُكم وآلِهتُكم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: المُبالَغة في التَّنزُّل مع الخَصْم، وتَحمُّل الغَضاضة للوُصول إلى الغاية المَقصودة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ هذا التَّنزُّل مع الخَصْم وتَحمُّل الغَضاضة: الشروطُ التي وقَعَتْ بين النبيِّ ﷺ وبين قُرَيْشٍ في صُلْح الحُدَيْبية[1]؛ وكانت النَّتيجة والعاقِبة للرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يُسأَل عن عمَلِ غَيْره ولا يُسأَل غيرُه عن عمَلِه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، كلُّ إنسانٍ وعمَله، ويُستَثْنى من ذلك ما إذا كان عمَلُ الغير ناشِئًا عن عمَلِك، بأن تكون أنت الدَّالّ عليه أو المُعينَ عليه، فإنَّ لك من وِزْره بقَدْر عمَلِكَ.

وأمَّا قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، فهَذا لا يُخالِف الآياتِ الكريمةَ؛ لأنَّ حقيقة الأمر أنَّ وِزْر الغير مَبنِيٌّ على وِزْرك، فيَكون من فِعْلك فيَدخُل في إجْرامِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السُّؤال عن العمَل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ كُلٌّ مَسؤولٌ عن عمَله، ولو كان السُّؤال مُنتَفيًا مُطلَقًا، ما صحَّ أن يُقال: لا تسألون عمَّا أجرَمْنا، فكُلُّ إنسان مَسؤولٌ عن عمَله ولا بُدَّ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧]، وما دام الإنسان يُؤمِن بذلك، بأنه سيُسأَل عن عمَله، فسوف يَحرِص غاية الحِرْص، على أن يَكون عمَله مُوافِقًا لشَرْع الله تعالى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ البَعْث والجَمْع، وهذا الجَمْعُ ثابِت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، ويَدخُل فيه أيضًا الجَمْعُ في الدنيا في القِتال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ على القَدَرية بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ ومَعلومٌ أن اجتِماعنا من فِعْلنا، فأضافَه الله تعالى إلى نَفْسِه؛ لأنه هو المُدبِّر له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُقدِّر له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ كُلُّه حَقٌّ وعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل الذي ليس فيه ظُلْم ولا جَوْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات ما قرَّره أهل السُّنَّة والجماعة من أنَّ اسم الله تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمان به إلَّا بالإيمان بكونه اسْمًا، وبما تَضمَّنه من صِفة وبما تَضمَّنه من أثَر وحُكْم؛ لقوله: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، ثُم قال بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ فدلَّ على أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المُتعدِّية تَتضمَّن الأحكام والآثار المُترتِّبة على ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أَسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهُما: (الفتَّاح العليم)، وكما سبَقَ في الشرح: أن (الفتَّاح) تَشمَل مَعانِيَ كثيرةً، الفَتْح بالنَّصْر وبالعِلْم وبالفَهْم وبالقَصْد الحَسَن وبغير ذلك، يَعنِي أنها اسْمٌ واحِدٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْبات العِلْم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وأنه صِفة من صِفاته الثابِتة اللازِمة؛ لأنه مَوْصوف به أَزَلًا وأَبَدًا في كِتاب لا يَضِلُّ ربي ولا يَنسَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تهديد المُناظِر بالجزاء المَجزوم به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لأنَّ هذا يَتضمَّن التهديد؛ لأننا نَعلَم أنَّ الله إذا فَتَح بينهم فسيَكون الحقُّ مع المُسلِمين، بهذا عَرَفنا التَّرديد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والذين على هُدًى همُ المُسلِمون، وأن أُولئك على الضَّلال؛ لأنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الآية فيها تَرديدٌ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَنْ الذي على الهُدَى؟

الجوابُ: همُ الذين يَفتَح الله تعالى عليهم ويَنصُرهم على أَعدائِهم بالحقِّ.



الآية (٢٧)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ:٢٧].

•• ••

قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ يقول المُفَسِّر: [أَعلِموني ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾] وعلى تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَكون هناك جُمْلة مَحذوفة: (أَروني الذين أَلْحَقْتم به شُركاءَ ماذا صنَعوا؟ هل خَلَقوا؟ هل رَزَقوا؟ هل فَتَحوا؟ هل هَدَوْا؟) كل ذلك لم يَكُن، ويُحتَمَل أن يَكون ﴿أَرُونِيَ﴾ أبصِروني إيَّاه، من رُؤْية العَيْن، كما قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر:٤٠]، وأيًّا كان فالمُراد بهذا الاستِفْهامِ التَّحدِّي؛ تَحدِّي هؤلاءِ المُشرِكين الذين جعَلوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شُركاءَ قُلْ: هاتوا الشُّركاءَ أَروني ماذا صنَعوا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يَعنِي: جعَلْتموهم شُركاءَ في العِبادة، لا في الخَلْق والرِّزْق؛ لأن المُشرِكين في عهد الرسول ﷺ لم يَدَّعوا أَبَدًا أن أَصنامهم شَريكة مع الله تعالى في الخَلْق والرِّزْق والتدبير أبَدًا، بل كانوا مُقرِّين بتَوْحيد الرُّبوبية، لكنهم يُنكِرون إفراد الله تعالى بالعِبادة فيَعبُدون مع الله تعالى غيرَه، وهذا لا يَنفَعهم؛ أي أن إِقْرارهم بالرُّبوبية لا يَنفَعهم مع إنكارهم لتَوْحيد الأُلوهية؛ نَقول: أَروني الذين أَحَقُّ من شُركائي في العِبادة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْع لهم عنِ اعتِقاد شَريك، أو رَدْع لهم أو إبطال لما يُمكِن أن يَدَّعوه من اعتِقاد الشريك، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لا شَريكَ له، ففيها إبطال شِرْك هَؤلاءِ، بل إِبطالٌ آخَرُ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله، الجُملةُ هذه مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، وكِلاهما مَعرِفة، وقد قال أهل البَلاغة: إنه إذا عُرِّف المُسنَد والمُسنَد إليه في الجُملة الخبَرية كانت دالَّة على الحَصْر؛ مثال ذلك: تَقول: زَيْد قائِم. وتَقول: زيدٌ القائِمُ؛ الأُولى: زَيدٌ قائِمٌ. لا تَمنَع أن يَكون غيرُه قائِمًا، والثانية: زَيْدٌ القائِمُ. تَدُلُّ على الحَصْر، أي: أنه وحدَه القائِمُ؛ وهنا: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، يَعنِي: ليس مَعبودٌ غير الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب على أَمْره الحَكيم في تَدبيره لِخَلْقه، فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] في هذا قُصور جِدًّا.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب] سبَقَ لنا أن العِزَّة لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، فهو عزيز القَدْر مثل قولِنا: فلان عَزيز عليَّ. أي: قَدْره عِندي عظيم، وعِزَّة القَهْر مثل قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني فيه عِزَّة الامتِناع، أي: أن الله تعالى يَمتَنِع أن يَنالَه سُوء؛ لعِزَّته، ومنهم قولهم: (أَرْض عِزاز) أي: قوِيَّة صُلْبة.

أمَّا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فتَقدَّم أن الحكيم مُشتَقٌّ من الحُكْم والإِحْكام، وأن الحُكْم كونيٌّ وشرعيٌّ، والإحكام يَكون في الكونيِّ والشرعيِّ في وَصْفه أو في صورته وغايته، وحينئذ تَكون الحَكيم دالَّة على أربعة أُمور: حُكْم كونيٌّ وحُكْم شرعيٌّ، وكل مِنهما مُحكَم في صُورته التي هو عليها وفي الغاية منه، فتكون المَجموع أربعة؛ اثنان في اثنين بأربعة.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تَدبيره إلى خَلْقه فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] فهذا خطَأ؛ لأن الشَّريك في المُلْك ما ادَّعاه المُشرِكون، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه في الأوَّل يَقول: شُرَكاءُ في العِبادة، فحِينئذ يَكون الصوابُ: فلا يَكون له شَريك في عِبادته، فما دام هو الذي له العِزَّة والغلَبة والحُكْم والحِكْمة فإنه لا يَنبَغي أن يَكون له شَريك في العِبادة، بل العِبادة له وحدَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها ممَّا سبَق مِن أنه من آداب المُناظَرة سُلوك التَّحدِّي فيما يُعلَم امتِناعه من الخَصْم؛ لأنَّك إذا تَحدَّيْته في أمرٍ لا يُمكِنه وظَهَر عَجْزُه تبيَّن بُطلان دَعواه، بخِلاف ما إذا تَحدَّيْته بأمرٍ يُمكِنه أن يَفعَله فإن هذا ضرَر عليك.

فلا تَتَحدَّى الخَصْم إلَّا بأَمْرٍ يُعجِزه ولا يَتمكَّن منه هنا، يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يَعنِي: أَعلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نفَعوا؟

الجوابُ: لم يَخلُقوا شيئًا، ولم يَنفَعوا شيئًا، ولم يَدفَعوا ضرَرًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وقوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يُستَفاد منها: أن الشِّرْك يَكون في العِبادة، كما يَكون في الخَلْق والتَّدبير، بمَعنَى أنَّ الشِّرْك يَكون في الأُلوهية كما يَكون في الرُّبوبية، ووجهُه: أنَّ هؤلاءِ المُشرِكين لم يَكونوا يُشرِكون في الرُّبوبية ولكنَّهم يُشرِكون في الأُلوهية والعِبادة.

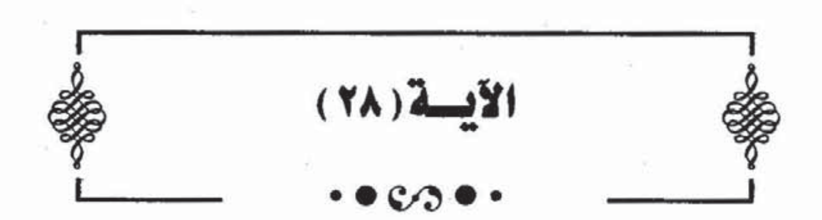
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يُمكِن أن يُرِيَ أحدٌ من الناس أن لهذه الأَصْنام شيئًا من الخَلْق أو الرِّزْق أو التَّدبير، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لا يُمكِن أن تُرُوني شيئًا من هذه الأَصنامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ اسْمَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهما: ﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾، وما تَضمَّناه من صِفة، وهي: العِزَّة والحِكْمة والحُكْم، يَعنِي الحكيم ذو الحُكْم والحِكْمة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمكِن أن تَقَع سَفَهًا؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ وهو الذي لا يَقَع في فِعْله سَفَه، وهذا شيء مَعلوم بالضَّرورة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُغلَب؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾، وإذا آمَنْت بذلك واستَنْصَرْت به تَبَارَكَ وَتَعَالَى علِمْتَ أنك لا تُغلَب.

• • ۞ • •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

•••

سبَقَ لنا أن المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فصَّل في قوله في تفسير (العزيز) [بِغَالِبٍ]، وفي قوله: الحَكيمُ [بِتَدْبِيرِهِ لِلْخَلْقِ]، وأَخطأَ أيضًا في قوله: [فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ]؛ لأنه ليس المَقام مَقام نَفيِ الشريك في المُلْك، إنها المَقام مَقام نَفيِ الشَّريك في العِبادة، إذ إنَّ هَؤلاءِ المُشرِكين يَعترِفون بأن الله تعالى لا شَريكَ له في مُلْكه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ حالٌ من الناس قُدِّم للاهتِمام، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾، وهذا الاستِثْناءُ يُسمُّونه استِثْناءً مُفرَّغًا من أَعَمِّ الأَحْوال يَعنِي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ لأيِّ حال من الأحوال إلَّا لهذه الحالِ، يَعنِي: ﴿إِلَّا﴾ للناس ﴿كَآفَّةً﴾ بمَعنَى: جميعًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الإِرْسال مَعنَاه: الأَمْر بتَبليغ الشيء؛ فأنت إذا أَرسَلْت شخصًا من الناس إلى شخص آخَرَ مَعناه أنك أَمَرْته أن يُبلِغ شيئًا ما إلى المُرسَل إليه؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير (الرسول): وهو الذي أُوحِيَ إليه بشَرْعٍ وأُمِرَ بتَبْليغه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ مَعناه: همُ البَشَر، وسُمُّوا ناسًا

من قولهم: أَنِس. إذا تَحرَّك وعمِل، وعلى هذا فيَكون الناس اسْمًا مُشتَقًّا، وليس اسْمًا جامِدًا، قالوا: وأَصْله: (الأُناس)، لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة الاستِعْمال، ومثل ذلك قولُهم: شَرٌّ وخَيْر. كأَنْ تَقول: هذا خيرٌ من هذا. بمَعنَى: أَخيَرُ مِن هذا، فحُذِفتِ الهَمْزة للتخفيف؛ لكَثْرة الاستِعْمال، قالوا: ومِن ذلك (الله)، وأَصلُه الإِلَهُ؛ حُذِفتِ الهَمْزة للتَّخفيف؛ لكَثْرة الاستِعمال، على أن هذه المَسألَةَ الثانِيةَ الأَخيرة فيها شيء من النَّظَر؛ لأن (الإِله) تَأتي إلى جانِب (الله)، وتَقول: هو الله الإِلَهُ العَظيمُ.. إلى آخِره.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ]، وهذا قُصـور من المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأننا إذا قُلْنا: إنك أُرسِلْـت إلى كُفَّار مَكَّةَ فغيرُهم لم يُرسَل إليهم، وهذا قُصور عظيم جِدًّا؛ كيف تَأتي كلِمة (الناس) في مَقام الرِّسالة ونَقول: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ.

والصوابُ: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ وغَيْرهم، وكُلُّ الكُفَّار إلى يوم القِيامة، وليس في حَياته فَقَطْ، إلى يوم القيامة للناس عُمومًا.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ أي: مُبشِّرًا للمُؤمنين بالجَنَّة، ونَذيرًا: مُنذِرًا للكافِرين بالعذاب، بَشيرًا: حالٌ أيضًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا﴾ (فَعيلٌ) بَمعنَى (مُفعِّل) أو (بَشير) بمَعنى: ببِشارة، و(فَعيل) تَأتي بمُعنَى (مُفعِّل) كما أَسلَفْنا ذلك كثيرًا، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٗا﴾ للمُؤمِنين بالجَنَّة ﴿وَنَذِيرٗا ﴾ للكافِرين بالنار، ويَنبَغي أن يُقال: بَشيرًا للمُؤمِنين بالجَنَّة -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ- ونَذيرًا للعاصِين بالعُقوبة؛ ليَشمَل الإنذارَ عن الكُفْر والإِنْذار عن المَعاصي، بمَعنَى: أنه حتى المَعاصي رُتِّبَت عليها عُقوباتٌ، من أَجْل أن تَردَع الإنسان عن فِعْلها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دليل على أن مُحَمَّدًا ﷺ عَبْد مَأْمور لا رَبٌّ آمِرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُموم رِسالة النبيِّ ﷺ على رَأْيِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فهو كَقَوْله ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]، أو لقوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ (الناس) هُنا تُفيد العُموم؛ لأن فيها رَأْيًا آخَرَ يَقول: (كافَّة) بمَعنَى: (كَافٌّ)؛ يَعنِي: إلَّا تَكُفُّ الناس عن الشِّرْك والعِصيان، أو إلَّا كافَّة للناس، أي: جامِعًا لهم على التَّوْحيد والإِخْلاص، وعلى هذا فتكون حالًا من الكافِ في قوله تعالى: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ والتاء فيها على هذا المَعنَى للمُبالَغة، كقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا، وكما يُقال: هذا عَلَّامة، أي: علَّام، لكن تكون التاء للمُبالَغة، فصار عِندنا في (كافَّة) قَوْلان: أن تَكون حالًا من الناس مُقدَّمة عليها، وأن تكون حالًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وعلى هذا الوَجْهِ تكون ﴿ كَآفَّةً ﴾ بمَعنَى: (كافّ) أي: جامِع، أو (كافّ) أي: مانِع تَكُفُّ الناس، ونَستَفيد العُموم من قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ رسالة النبيِّ ﷺ تَتَضمَّن شَيْئَيْن: هُما البِشارة والإِنذار، البِشارة للطائِع بالثواب، والإنذار للعاصِي بالعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وهي التَّبشير والتَّنذير؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثَرَ الناس لا يَعلَمون الحِكْمة من إرسال الرسول ﷺ، ولا يَعلَمون أنَّه رسول، أمَّا الأوَّل فواضِح: أنَّ أكثَرَ الناس لا يَعلَمون الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وأمَّا الثاني ففيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالة بلَغَتْ أكثَرَ الناس، وستَبلُغ الناس جميعًا حتى تَقوم عليهم الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الأكثَرية لا يَلزَم أن يَكون الصوابُ معها، لأن أكثَرَ الناس لا يَعلَمون فهُمْ في جَهْل، إذ إنَّ المُتمَسِّك بالأديان قَليلٌ، والمُتمَسِّك بالأديان هو صاحِب العِلْم، وهو صاحِب اليَقين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسباب، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على المَعنَى الأَخير الثاني الذي هو (كافَّة) بمَعنَى: مانِع؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سبَب، وليس بمُوجِب، فهو سبَب للهِداية، ولكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات أَفعال الله تعالى الاختِيارية، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ لأنَّ هذا فِعْل من الأفعال المُتعلِّقة بمَشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقامة الحُجَّة على الخَلْق؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ فلَمْ يَبقَ لأَحد حُجَّة على الله بعد الرُّسُل، وهل يُؤخَذ

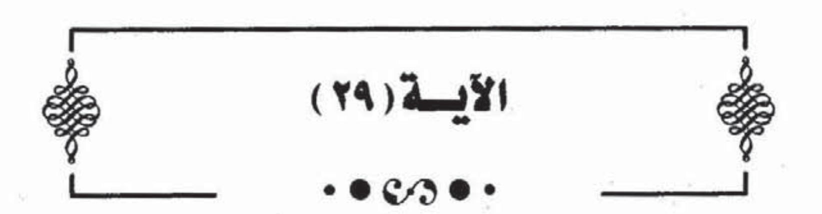
منها عُذْر مَن لم تَبلُغه الرِّسالةُ؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرسالةُ لم تَتَحصَّل له بِشارة ولا نِذارة.

فَإِنْ قِيلَ: ما حُكْم مَن لم تَبلُغه الرسالة؟

فالجوابُ: حُكْمه أنه لا يَخلُو من أَمْرين: إمَّا أن يَكون مُقصِّرًا في طلَب الحَقِّ فهذا لا عُذرَ له؛ لأنه مُقصِّر، وإمَّا ألَّا يَكون مُقصِّرًا بحيثُ لم يَبلُغْه أيُّ شيء عن الرِّسالات، ولم يَطرَأ في قلبه أيُّ شيء من ذِكْر الرِّسالات فهذا نَقول: إنَّه يُحكَم له في الدنيا بما هو عليه من دِين، وأمَّا في الآخِرة فأَمْره إلى الله تعالى، ما نَشهَد عليه بشيءٍ.

• • ۞ • •



الآيــة (٢٩)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩].

•••

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعنِي: المُكذِّبين للرسول ﷺ الذين تَوَعَّدوا بالعذاب والنَّكال فيقولون مُتَحدِّين ومُستَبعِدين ومُنكِرين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: ﴿مَتَىٰ﴾ اسمُ استِفْهام المُرادُ به الإِنْكار والتَّحدِّي.

وقوله: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ أي: بالعَذاب الذي وَعَدْتُمونا به، ويُحتَمَل أن يَكون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالنَّصر لكم؛ لأنَّ المَعروفَ أنَّ الوَعْد بالخَيْر وبالشَّرِّ وَعيدٌ، ولكن قد يُقال: إن الوعيدَ لهؤلاء الكُفَّارِ هو بالنِّسبة للمُؤمِنين مَعدوم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعَذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه، يَعنِي: إن كُنْتم صادِقين بما تَقولون من أنَّ العَذاب سيَحِلُّ بنا وسنُعاقَب، والصِّدْق: هو الإِخْبار بما يُوافِق الواقِع، والكَذِب: الإِخْبار بما يُخالِف الواقِع، فإذا قلتَ: (قدِم زَيْدٌ البلَد) ولم يَكُن قدِمَ فهو كذِب؛ لأنـه خِلاف للواقِع، وإذا قلـتَ: (قدِمَ زَيْد البَلَد) وقد قدِم فهو صِـدْق؛ لمُوافَقة الواقِع، فيَقولون: إن كُنْتم صادِقين فمتى يَكون هذا؟

وهذا كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الساعة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾

[الشورى:١٧-١٨]، فالكُفَّار يَستعجِلون العذاب تكذيبًا للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٤-٢٠٧]، يَعنِي: أي شيء يُغنِي عنهم، فمهما طال بهمُ الأَمَدُ فإن المَسألة محدودة مَعدودة ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ فهُمْ يَتَحدَّوْن ومع ذلك أحيانًا يَتحدَّوْن كذِبًا، فإنهم قالوا حين أُخبِروا بالبَعْث، قالوا مُتحدِّين للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، وهل قِيلَ لهم: إن آباءَهُم يَأتون الآنَ. حتَّى يُوجِّهوا الصورة إلى هذا؟ لا، بَلْ قِيل لهم: إن آباءَهُم سيُبعَثون يومَ القِيامة. لكنهم يُموِّهون على العامَّة بمِثْل هذه الدَّعاوَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَمرُّد الكُفَّار في طُغيانهم حيث قالوا مُتحدِّين للرُّسُل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ وهذا غايةُ ما يَكون في التَّمرُّد والطُّغيان؛ لأنهم لو كان عِندهم أَدنَى شيءٍ من الإيمان لكانوا يَخافون ممَّا أُوعِدوا به؛ لكن لتَمرُّدهم وطُغيانهم -والعِياذُ بالله تعالى- قالوا هذا القولَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم كذَّبوا الرُّسُل فيما قالوا؛ لقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ الأساليب التي يَقوم بها دُعاة الباطِل حيثُ يَتحدَّوْن أهل الحقِّ بمِثْل هذا التَّحدِّي مع العِلْم بأن الوعيد بالعَذاب أو نَحوه كالآيات تَمامًا،

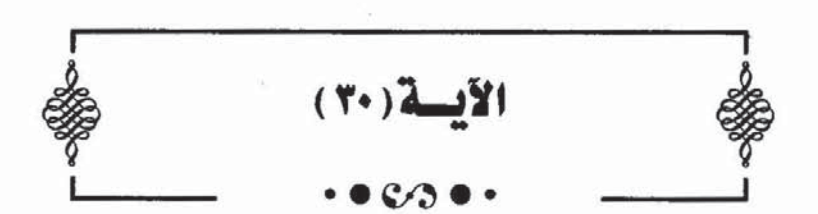
والآياتُ عِند الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠]، وكذلك العذابُ الذي وُعِدت به الرُّسُل ليس هو بأيديهم حتى يَقولوا: أَرُونا العذابَ قال هذا العذابُ! والعَذاب عند الله تعالى!!.

ولهذا كان جوابُ الرُّسُل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠]، فالأَمْر ليس كلَّما طلَبْتم أَعطَيْناكم، ولكن هناك شيء فوقَنا جميعًا، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يُقدِّر هذه الأشياءَ، فكما أن المُشرِكين إذا طلَبوا آياتٍ يُقال لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإذا طلَبوا نُزول العَذاب نقول: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، وليس الأَمرُ إلينا.

وهم لا يَقولون ذلك إلَّا تموِيها على الناس وتَغريرًا بالعامَّة، فيَقولون: انظُرْ هؤلاءِ يَتوعَّدوننا إذا كفَرْنا بهم بالعَذاب! فأين العذابُ!.

المُهِمُّ: أننا نَأخُذ من ذلك: بيان أساليب دُعاة الضَّلال حيثُ يُنوِّعونها بكل ما يَستَطيعون من الشِّدَّة وإضلال الخَلْق.

• • ۞ • •



الآية (٣٠)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

•●๑●•

وهو يوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿مِّيعَادُ﴾ يُحتَمَل أن يَكون ظَرْفَ مَكان أو زَمان، ويُحتَمَل أن يَكون مَصدَرًا مِيمِيًّا؛ والمَعنى: أنَّ لكم وَعْدًا يكون في يوم لا تَستَأخِرون عنه ساعةً ولا تَستَقدِمون عليه، وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته البالِغة قَدَّر لكل شيءٍ أجَلًا مُعيَّنًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، فكل شيء بمِقدارٍ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومُحدَّد بأَجَله، فالعَذاب لا يُقدِّمه استِعْجالهم ولا يُؤخِّره، إذا جاء لا يَتقدَّم ولا يَتأَخَّر.

وفي هذا الجوابِ من التَّهديد لهم ما هو ظاهِر، كما لو قُلتَ لإنسانٍ: إنَّ عِندي لك مَوعِدٌ لا يَتقدَّم ولا يَتأَخَّر. فالمَعنَى: احذَرْ من هذا اليومِ.

وقول المُفسِّر: [هُوَ يَوْم الْقِيَامَةِ] هذا لا شَكَّ أنه مُحتَمَل، لكن فيه احتِمالٌ آخَرُ، أنه يوم القيامة ويوم مَوْتهم أيضًا، فإن يوم مَوْتهم يُشاهِدون العَذاب، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

فهذا اليومُ يجدون فيه العذاب قبل يوم القِيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وفي سورة الدُّخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٠-١٦]، وهذا حَصَل في بَدْر حين قُتِل شُرَفاؤُهم وساداتُهم.

من فوائد الآية الكريمة:

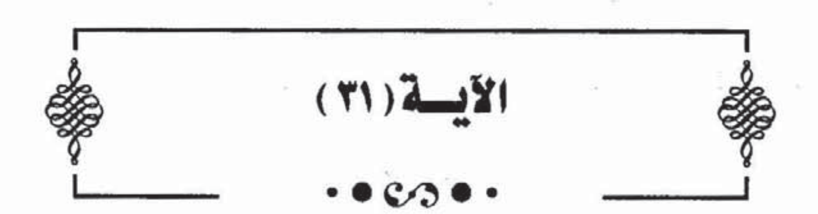
الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أنَّ العذاب مُؤقَّت، لا يَتقدَّم باستِعْجالِ مَنِ استعجَله ولا يَتأخَّر بطلَب مَن طلَب أن يُؤخَّر.

ونَظيرُ ذلك قولُه تعالى عن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ محررة مُنظَّمةٌ كلَّ شيءٍ بأجَل مُقدَّر، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٣١)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١].

•••

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ] لا ينبغي أن نُخصِّص ما عمَّمه الله عَزَّوَجَلَّ، فالصواب: وقال الذين كفروا من أهل مكَّةَ وغيرِهم، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ -والعِياذُ بالله تعالى- أَتَوْا بـ(لَن) الدَّالَّة على تأكيد النَّفي، ولم يَقولوا: لا نُؤمِن. بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ يُؤكِّدون انتِفاء إيمانهم بالقُرآن في المُستقبَل.

وقوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ هذه الإِشارة للقَريب تَحقيرًا له، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وَزْن (فُعْلان) فهل هو بمَعنَى: المَقروء، أو بمَعنَى: القارِئ، أو هو مَصدَر بمَعنَى الجَمْع؟

الجوابُ: أنَّ فيه خِلافًا عِند عُلَماء العَرَبية رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصوابُ: أنه مُتضَمِّن للمَعاني كُلِّها فهو قارِئ؛ أي: جامِع؛ لأنه مُهَيْمِن على الكُتُب السابِقة وجميع ما فيها

من المَصالِح مَوْجودٌ فيه وهو مَقروء؛ لأنَّ الناس يَقرَؤُونه ويَتْلونه، وهو جَمْع أيضًا؛ لأنه جامِعٌ لكل شيء والفُعْلان بمَعنَى المَصدَر وارِد ومَوْجود في اللُّغة العربية، مثل: الشُّكْران والكُفْران والنُّكْران، وما أَشبَه ذلك.

والمُراد بالقُرآن هنا الكِتاب الذي أَنزَله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مُحمَّد ﷺ وهو اسمٌ خاصٌّ به بهذا القُرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: ولا نُؤمِن بالذي [تَقدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ الدَّالَّيْنِ عَلَى الْبَعْثِ بِإِنْكَارِهِمْ لَهُ] يَعنِي ولا نُؤمِن أيضًا بالذي بين يَدَيْه، والمُراد على رَأْيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما بَيْن يَدَيْه: ما سبقَه، وليس ما يَأتِي بعدَه، ويُحتَمَل أن المُراد بقَوْله: ولا بالَّذي بين يَدَيْه، أي: ما يَأتي ممَّا أَخبَر به، فإنَّ ما بين يدَيِ الشيء مُستقِرٌّ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:١١٠]، والمَعنَيان صَحيحان، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِل مَعنيَيْن صَحيحين لا يَتنافَيان وجَبَ حَمْلُها على الجميع؛ لأنَّ القُرآن شامِل وواسِع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولا بالَّذي يَأتِي بعده ممَّا أَخبَر به أو (ولا بِالَّذي بين يَدَيْه) ما تُقدِّمه من الكُتُب كالتَّوْراة والإنجيل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ﴿وَلَوْ﴾ شَرْطية، وفِعْل شَرْطها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وهي غيرُ جازِمة وجوابُها مَحذوف؛ أي: لرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا، وجوابُ الشَّرْط في مِثْل هذا التَّركيبِ أَعظَمُ من ذِكْره؛ لأن النَّفْس تذهَب في تَقديره كل مَذهَب من الفَظاعة والبَشاعة.

و(لو) تَأتي باللُّغة العَرَبية على عِدَّة مَعانٍ؛ تَأتي بـ(ما) الشَّرْطية كما هنا، وتَأْتي

مَصدَرية كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ] قصَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضميرَ على الرسول ﷺ، مع أنه يَحتَمِل أن يَكون المُراد به كلُّ مُخاطَب؛ يَعنِي: ولو تَرَى أيُّها المُخاطَب حالَ هَؤلاء لرَأَيْت أمرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: (وَقْت) أو (حين) فهي ظَرْف زمان، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُبتَدأ و﴿مَوْقُوفُونَ﴾ خبَرُه، والمُراد بالظالِمين هنا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْكَافِرُونَ]، وإنما خصَّها بالكافِرين مع أنَّ الظُّلْم أَعمُّ بقرينة السِّياق، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ في آخِرها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ:٣٣]، فكان المُراد بالظالِمين هنا الكافِرين.

وهل كل ظالِمٍ كافِر؟

الجوابُ: لا؛ ولهذا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: نَحمَد الله تعالى أَنْ لم يَقُل: والظالِمون هم الكافِرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مَحبوسون، فمَعنى (وَقَفَه) أي: حبَسَه، ومِنه سُمِّيَ الوَقْف للمال الحَبيس الذي تُحبَس عَيْنه وتُسبَّل مَنْفَعته، فمَعنى ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ أي: مَحبوسون عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ مِثل هذا الفِعْلِ العظيمِ الدالِّ على العظَمة يَتَناسَب مع الرُّبوبية، لكَمال رُبوبيته عَزَّوَجَلَّ وكَمال مُلْكه وسُلْطانه، تَجِد هؤلاءِ الظَلَمةَ الذين عندهم من العُتُوِّ والاستِكْبار والعِناد في الدنيا في أذَلِّ شيء أمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ﴾ بمَعنَى: يَرُدُّ؛ وعلى هذا فتكون مُتعَدِّية؛ لأن رَجَع تَأتي لازِمةً وتَأتي مُتعَدِّية، فقَوْلُك: رجَعْتُ من مكَّةَ إلى المدينة. هذه لازِمة؛ لأنها لم تَنصِب المَفعول، وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣]، هذه مُتعَدِّية، وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فهذه مُتعَدِّية؛ أي: يرُدُّهم، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هنا مُبهَم ومُجمَل، ثُمَّ فصَّله بقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

وفائِدة الإِبْهام المُفصَّل عظيمة؛ لأنه إذا أَجمَل أَوَّلًا وأَبهَم، فإن النَّفْس تَتطلَّع إلى بيان ذلك الشيءِ وتَفصيله، فعندما أَقرَأُ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَكون ذِهْنك؟

الجوابُ: يَكون ذِهْنك مُتطَلِّعًا إلى بيان هذا القولِ الذي يَتَراجَعونه، لكن لو قال: «ولو تَرَى إذِ الظالِمون مَوقوفون عند رَبِّهم يَقول الذين استُضْعِفوا» هكذا جاءَت لم يَكُن لها من التَّمكُّن في الذِّهْن مِثل ما كان لها حينما أُبهِمَ القَوْلُ، ثُم بُيِّنَ أو أُجمِل، ثُم فُصِّل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَقولون؟ [﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الأَتْباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرُّؤُساءِ ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صَدَدْتُمُونا عَنِ الإِيمانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بِالنَّبِيِّ] (لولا) هذه شَرْطية، ويُقال فيها: حَرْف امتِناع لوجوب؛ لأنه امتَنَع جوابُها؛ لوجود شَرْطها، وتَأتي (لولا) الشَّرْطية كما هنا، وتَأتي للتَّحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] وتَأتي للنَّفْي، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]، المَعنَى: فما كانت قَرية آمَنَتْ فنفَعها إيمانُها إلَّا قوم يُونُسَ لَمَّا آمَنوا، وهنا يَقول: لولا أَنتُمْ.

وابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وَبَعْدَ لَـوْلَا غَالِبًا حَـذْفُ الخَـبَرْ حَـــتْمٌ.................[1]

فالمُبْتَدَأ مَوجـود هنا وهو (أنتُم)، والخَبَر مَحذوف قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِه: [صَدَدْتُمُـونَا] وعَرَف أنـه في هـذا اللَّفْظِ من قولهـم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ فلا نُقدِّر هنا: لولا أنتم مَوْجودون؛ لأنَّ الصدَّ أَخصُّ من مُطلَق الوجود، وإذا كان لنا طريقٌ إلى تَقدير الأَخصِّ فهو أَوْلى من تقدير الأَعَمِّ.

ولهذا قُلْنا: إن القارِئَ إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) يُقدِّر المُتعَلِّق بقوله: أَقرَأُ. لا بقَوْله: أَبتَـدِئ؛ لأنَّ (أَبتَدِئ) عامَّة و(أَقرَأُ) خاصَّة، وهنا يُمكِن أن نَقـول: لولا أنتم مَوْجودون. لكن ما دُمْنا نَجِد فِعْلًا أَخصَّ وهو الصدُّ المَدلول عليه بقوله تعـالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ فإنه يَجِب أن نُقدِّر لولا أَنتُـمْ صدَدْتُمُونا ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا هو جَواب الشَّرْط لكُنَّا مُؤمِنين؛ ولهذا اقترَن باللام.

وقوله: [﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالنبيِّ] ﷺ، والأصحُّ أنَّه أَعَمُّ، أي: لكُنَّا مُؤمِنين بما تَشمَله رِسالة النبيِّ ﷺ، من الإيمان بالله تعالى، ومَلائِكته وكتُبِه ورُسُله واليوم الآخِر، وبغير ذلك ممَّا يَجِب الإيمان به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عُتوِّ هؤلاءِ الكافِرين، وأنهم لم يَرجُوا الإيمانَ، بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبالغَتُهم في الطُّغْيان والعُدوان، حيث أَشاروا إلى القرآن الكريم

(١) الألفية (ص:١٨).

بما يَدُلُّ على التَّحـقير في قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فـإن الإشارة هُنا بالقـريب لدُنُوِّ مَرتَبَته على زَعْمهم.

وفيـه أيضًا من تَماديهم في الطُّغْيـان أنهم قالوا: لن نُـؤمِن به، ولا بالذي بين يَدَيْه. سواءٌ قُلْنا: إن الذي بين يَدْيه: ما أَخبَر به عن المُستَقبَل، أو: ما سَبَقه من الكُتُب؛ فإن هذا يَدُلُّ على المُبالَغة في العُتُوِّ والعِناد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلخ؛ بيانُ عِظَم عُقوبة هؤلاءِ المُكذِّبين؛ لأن تَقدير الجَواب يَدُلُّ على ذلك، وقد قدَّرْناه في تفسيرِنا: بأنه لرأَيْت أمرًا عظيمًا أو فظِيعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفْر ظُلْم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ثُمَّ قـال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ويُؤيِّـد ذلك قولُه تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حُسْن الإظهار في مَوْضع الإِضْمار إذا اقتَضَتِ البَلاغة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: ولو تَرى إذ هُمْ مَوْقوفون.

وللإِظْهار في مَوْضِع الإِضْمار فوائِدُ:

منها إرادةُ العُموم، بحيث يَشمَل هؤلاءِ المَذكورين وغيرَهم.

ومنها بَيانُ وَصْف لمَن يَعود الضمير عليه لم يَكن مَوجودًا من قبلُ، بمعنى: التَّسجيل عليهم بما يَقتَضيه هذا الوَصْفُ، إذ إنه لو قيل: ولو تَرى إذ هم مَوْقوفون ما استَفَـدْنا أن هؤلاءِ كانـوا ظالِمين، فلما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سجَّل عليه أنه ظُلْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والجزاء؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهو أحَدُ أركان الإيمان السِّتَّة التي لا يَتِمُّ الإيمان إلَّا بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إظهارُ النَّـدَم من هـؤلاء حيثُ صار كلُّ واحِـد منهم يَحمِل الأفعال السَّيِّئة على الآخَر؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن من الفَصاحة: ذِكْر القول مُجمَلًا، ثُم يُفصَّل، فإن هذا من البَلاغـة؛ لِمَا أَشَرْنا إليه من التفسير من أنه ذَكَر مُجمَـلًا تَشوَّفتِ النفسُ إلى مَعْنـاها والتَّفصيلِ فيه، حتى يَرِد إليها وهي مُشتاقة إليه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات الأسبـاب؛ تُؤخَذ من قـوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، وهو صحيح من وجهٍ؛ وهو أنهم سبَب في إضلالهم، لكنه لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قُدْرة واختِيارًا، وأَرسَل إليهم الرُّسُل، وبيَّن لهم الحقَّ؛ فنحن نَقـول: نعَمْ، لولا هؤلاءِ الدُّعـاةُ لكانوا مُؤمِنين؛ لأن الدَّعْـوة تَسلَم من المُعارِض، ولكنه لا عُذْرَ لهم؛ لأنهم باستِطاعَتهم أن يُخالِفوهم ويُؤمِنوا.

• • ۞ • •



الآية (٣٢)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢].

• ● ● •

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ ردُّوا عليهم القولَ: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ فكان الرَّدُّ هو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾؟ والاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، يَعنِي: لم نَصدَّكم عنِ الهُدَى بعد إذ جاءَكُم، بل أنتم الذين اختَرْتُمُ الكُفْر، وهنا صدَق قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦]، فهنا قال تعالى: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ يَعنِي: نحن مُتبَرِّئون مِنكم، ولا أَجبَرْناكم على الكُفْر، بل أنتم الذين اختَرْتم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿صَدَدۡنَٰكُمۡ﴾ أي: صرَفْناكم.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ هذا من باب تَحقيق مَجيءِ الهُدَى ووضوحه، وهذا إقرارٌ من هؤلاءِ الرُّؤَساءِ المُستكبِرين على أنَّ الهُدى قد جاء وبان ووضَح ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَقدِيرها: [لَا] إشارة إلى أنَّ الاستِفْهام هنا للنَّفْي، وكُلَّما جاءت كلِمة (لَا) بعد الاستِفْهام فإن تَرجَمَتها أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أن الاستِفْهام هنا للنَّفْي، ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ في أَنفُسِكم

-والعِياذُ بالله تعالى- في الدُّنيا تَجِد يَأتي إليه المُستكبِر هذا الرئيسُ يَدعوه بلُطْف تامٍّ، وفي الآخِرة يَلعَن بعضُهم بعضًا، ويَتبَرَّأ بعضُهم من بعضٍ.

وانظُرْ إلى مَلِك غسَّانَ لَمَّا بلَغه أن النبيَّ ﷺ هجَرَ كَعْبَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرسَل إليه خِطابًا لطيفًا رَقيقًا وقال له: إنه بلَغَنا أن صاحِبَك قد هجَرَك، فأْتِ إلينا نُواسِكَ[1]. انظُرْ إلى التَّلطُّف!! ولكن لم يَنخَدِع كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لإيمانه، وخاف أن يَنخَدِع في المُستقبَل فذهَبَ إلى التَّنُّور وأَوْقَد هذه الورَقةَ، وهكذا كل شيء تَخشَى على نَفْسك منه في المُستقبَل يَجِب عليك أن تُتلِفَه، لا تَقُلْ: إني الآنَ ما يُمكِن أن أَفعَل هذا الشيءَ أبدًا، ولا يُمكِن أن أَضِلَّ به، صحيح أنك في بادِئ البَدْء قد لا تَنخَدِع، لكنَّ الشيطان يَعمَل عمَله؛ ولهذا يَجِب عليك أن تُتْلِفَ كُلَّ ما تَخشَى أن تكون عاقِبَتُه عليك وخيمةً.

الحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ في الآخِرة ما يَتوَدَّدون ولا يَتلطَّفون ولا يَفهَمون هؤلاءِ الأَتباعَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ والإجرام هو الذَّنْب الذي لا يَرتَفِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا مُستكْبِرين مُستَعْلين على المَرؤُوسين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ تَبرُّؤِ المَتبوعين من الأَتْباع؛ لقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ

---

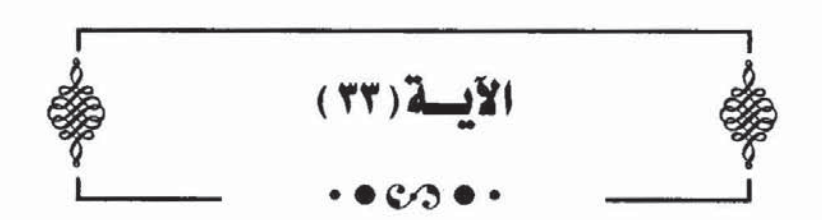
(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، ويُشير إلى هذا في قوله تعالى في سُورة البقَرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دَليلٌ على أن الهُدى قد تَبيَّن لهؤلاءِ الكُفَّارِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، وهذا إقرار مِنهم واعترِاف بأن الهُدَى قد جاء، ولكِنَّهم استَحبُّوا العَمَى على الهُدَى؛ نَسأَل الله العافِيَةَ!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الإِجْرام لهؤلاءِ الأَتباعِ من مَتبوعيهم، حيث قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، فأنتم الذين فعَلْتم هذا بأَنفُسكم، فلا تَلومونَنا ولُوموا أَنفُسكم، وهو نَظيرُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢].

• • ۞ • •



الآية (٣٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

•●◦◦●•

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضراب على إضرابهم، فأولئك: قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ إضراب عَنْ قولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فأَضرَبوا عنهم، يَعنِي: قابَلوهم بإضرابٍ آخَرَ، قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مَكْرٌ فيهما مِنكم بِنا، مَكْر الليل والنهار، و(مَكْر) هنا مُضاف إلى الليل، على تقدير (فِي)؛ لأنَّ الإضافة قد تكون على تقدير (مِنْ)، وعلى تَقدير اللام، وعلى تَقدير (فِي)؛ فإن كان الأَوَّل من الثاني؛ يَعنِي بأن كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل؛ فهو على تقدير (مِن)، وإذا كان الثاني ظَرْفًا للأَوَّل فهو على تقدير (فِي)، وما عدا ذلك فعلى تقدير اللَّام.

وتكون الإضافة على تقدير (مِن) إذا كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل، وعلى تقدير (فِي) إذا كان الثاني ظَرْفًا للأَوَّل، وعلى تَقدير اللَّام فيما عدا ذلك، نحو: خاتَمُ حديد، على تقدير (مِنْ)، ومِثاله: ثَوْبُ خزٍّ، على تقدير (مِن).

وعلى تقدير (فِي): مَكْرُ الليلِ، أي: مَكْرٌ في الليل.

ما هو المَكْر؟

قالوا في تَعريف المَكْر: إنَّه التَّوصُّل بالأسباب الخَفِيَّة إلى الإيقاع بالمُقابِل؛ يَعنِي: بالذي قابَلَك، أو إن شِئْت فقُلْ: بالخَصْم. و(مَكْر الليلِ) أُضيف المَكْر هُنا إلى اللَّيل؛ لأنَّه ظَرف، والنَّهار كذلك.

أمَّا من أيِّ جِهة وقَع هذا المَكْرُ فهو من المُستكبِرين؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَكر فيهما مِنكم بنا] يَعنِي: أنتم تَمكُرون بنا ليلًا ونَهارًا، تَأتون إلينا تَخدَعوننا تَقولون -مثَلًا-: مُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد لن يَنتَصِر، ومُحمَّد خالَف آباءَه، ومُحمَّد سبَّ آلِهَتنا؛ وما أَشبَه ذلك، وهكذا عادة الرُّؤَساء بالنسبة للأَتْباع يَأتون بهم على سبيل المَكْر والخِداع؛ وزعيمهم في ذلك إبليسُ حيث قاسَمَ آدَمَ وحواءَ؛ قاسَمَهما: إني لكما من الناصِحين، يَعنِي: أَقسَم لكُلِّ واحِد منهما، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]، فهؤلاء الكُفَّارُ المُستكْبِرون السادة والرُّؤَساء لا يُمكِن أن يَخدَعوا هؤلاء إلَّا بمَكْر؛ لأن الحقَّ مَقبول لدى الفِطَر، ولا يُمكِن صدُّ هذه الفِطْرةِ إلَّا بخِداع ومَكْر.

فلهذا انتَبِهوا لدعوة أهل الشَّرِّ والفَساد فإنهم لن يَأتوا إليكم ويَقولوا -مثَلًا-: ازنُوا! اشرَبوا الخَمْر! ولكنهم يُخادِعون، ويَأتون بأسباب الزِّنا وطُرُق الزِّنا بسبيل التَّقدُّم والحُرِّية والمُساواة وما أَشبَه ذلك؛ فمثَلًا: خلُّوا المَرأةَ تَخرُج للسُّوق مُتبَرِّجةً، وخلِّها تُشارِك الإنسان في العمَل، ودعوها تُشارِكه في الدِّراسة ودعوها تكون إلى جَنْبه في الكُرسيِّ، فأنتم إذا جعَلْتم المرأةَ تُخالِط الرَّجُل وتَمشِي معه زالت الغَريزة الجِنْسية في نفوس كل واحد منهما، لأنه سيَكون الأمر عاديًّا بينهما، فجُلوسه لجَنْب امرأة كجُلوسه بجانب ذكَرٍ، لكن إذا حبَسْتم ذلك وقُلْتم: إن الرجال هنا

والنِّساء هنا. اشتاقَتْ نُفوس كلٍّ واحِد منهم إلى الآخر، وحينئذٍ يَزداد طلَبُ الرجُل للمرأة والمرأةِ للرجُل!!

وانظُرْ كيف هذا الخِداعُ؟! وماعلِموا أنهم إذا اختَلَطوا حصَل الزِّنا، بل لمُجَرَّد الاختِـلاط تَحصُل مَفسَدة وما حصَلت الحوامِـلُ سِفاحًا والعاهِراتُ والفاجِـراتُ إلَّا بالاختِلاط، لكِنَّ هؤلاءِ الدُّعاةَ إلى الشَّرِّ يَمكُرون بالناس؛ لأنهم لو أَتَوْا بالبَشِع على وجهه هكذا نفَرَت منه النُّفوس، ولا قبِلَته، لكن يَأتون بصِيغة المَكْر والخِداع والمُبرِّرات الفاسِدة حتى يَقبَله ضُعفاء النفوس، ومَن ليس عندهم نظَر عَميق.

فالسَّطْحيُّون يَقبَلون مثل هذا الغُرورِ، ولكِنَّ المُتعمِّقين في النظَر يَرفُضون هذا رَفضًا باتًّا، ويَقولون: إن تَلبُّس هَؤلاءِ بالإِصْلاح ما هو إلَّا خِداع ومَكْر؛ هذا مَعنى قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

ففي هذا من الفَوائِدِ: دليل أن الرُّؤَساء يَدْعون ليلًا ونَهارًا لا يَسأَمون لباطِلهم وصَدِّ الناس عن دِين الله عَزَّوَجَلَّ، وأَهْلُ الخير نائِمون إلَّا مَن رَحِم الله -لكن غالِب دُعاة الخير مع الأَسَف نائِمون، وليس عِندهم اليَقَظةُ أيضًا- فليس عِندهم اليَقَظة لمَكْر هؤلاء الماكِرين الخـادِعين، يَأخُذون بالظاهِر، ولا يَعلَمـون أن هؤلاءِ الخُبَثاءَ شَرٌّ من الذين يَتَظاهَرون بالسُّوء؛ ولهذا قال الله في المُنافِقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وأَتى بالجُمْلة المُفيدة للحَصْر ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، وقد تَقدَّم أنه إذا عُرِّف الرُّكْنان في الجُمْلة الخَبَرية صارَت دالَّةً على الحَصْر. نَسأَل الله تعالى لنا ولكُمُ العافِية والسلامة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾: ﴿إِذْ﴾ هذه ظَرْف بمَعنى: وَقْت؛ يَعنِي: وقت أَمْرِكم إيَّانا تَأمُروننا، وانظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾ كيف

يُفهِم بأن هؤلاء الذين استكبروا وهُمْ الرُّؤَساء ليسوا يُشيرون عليهم إشارة، وإنما يَأمُرونهم أمرًا؛ لأنهم يَعتَقِدون أن لهم السُّلْطةَ عليهم، وفَرْق بين الأَمْر المُقتَضِي لاستِعْلاء الآمِر ومُعاقَبة المأمور إذا خالَف وبين المَشْورة؛ لأن المُشير ليس يَأمُر أَمْرًا، ولكنه يَعرِض الشيء على سبيل التَّزيِين لصاحِبه، أمَّا أَنْ يَأمُره أمرًا فلا.

وهنا قال تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ نَسأَل الله تعالى العافيةَ! هذا من أَشَدِّ المُنكَر أن يَأمُر الإنسان غيرَه بالكُفْر ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، والكُفْر بالله تعالى يَدور على شَيْئَيْن: تكذيب بالخَبَر، واستِكْبار عن الطلَب، فالكُفْر يَدور على هذين الأمرين: إمَّا تَكذيب بالخَبَر، وإمَّا استِكْبار عن الطلَب، يَعنِي: تَرْك الأَمْر، وفِعْل النَّهْي.

ومن ذلك التكذيبِ بالخبَر إنكارُ الله تعالى بالكُلِّية بأَنْ لا يُصدِّق الإنسان بوُجود الله عَزَّوَجَلَّ أَوْ لا يُصدِّق برُبوبيته أو بأُلوهِيَّته أو بأسمائه وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أَيْ: [شُركاءَ] ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الأَنْداد جَمْع نِدٍّ، والنِّدُّ هو النَّظير، وجَعْلُ الأنداد لله تعالى شِرْك؛ ولهذا فَسَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأَنْداد بأنه الشُّركاء، وفي قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ دليلٌ على أنهم لم يَكفُروا بالله، أَيْ: بوُجوده، لكن كفَروا بحُقوقه؛ لأن لازِمَ جَعْل الأَنْداد: أن يَكون هناك شَيْء مَوْجود له نِدٌّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّواْ﴾ أَيِ: الفَريقان ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ فسَّرها بعض العُلَماء بـ(أَظهَروا) فمَعنَى ﴿وَأَسَرُّواْ﴾: أَظهَروا سِرَّهم في النَّدامة، وفسَّرها آخَرون بـ(أَخفَوْا) النَّدامة؛ أمَّا الذين فسَّروا أَسَروا بـ(أَخْفَوْا) فظاهِر جِدًّا؛ لأننا نَعرِف جميعًا أن الإسرار بمَعْنى الإِخْفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وأمَّا مَن فسَّره بـ(أَظهَروا) فقالوا:

إن (أَسَرَّ) من أفعال الأَضْداد؛ لأن في اللغة العَرَبية أفعالًا تَدُلُّ على المعنى وضِدِّه، تُسمَّى الأضداد.

وقد أَلَّفَ عُلَماء اللغة العربية بذلك كُتُبًا سمَّوْها (الأضداد في اللغة)، يَأتون بالكلِمة ويُبيِّنون مَعناها الذي يَتضمَّن الشيء وضِدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [الليل:١٧] قال بَعْضهم: مَعناها: (أَدبَرَ)، وقال آخَرون: مَعناه: (أَقبَل)، ومعلومٌ أن (أَدبَرَ) و(أَقبَلَ) ضِدَّانِ.

وأَيُّهما أقرَبُ إلى الصواب في هذه الآيةِ: (أَسَرَّ) بمعنى: (أَخفَى) أو (أَسَرَّ) بمَعنى: (أَظهَرَ)؟

الجوابُ: بمَعنَى: (أَخفَى)، ولا يُمكِن أن نَجمَع بين القَوْلين إلَّا إذا نزَّلْناهما على اختِلاف حالين، أو على اختِلاف شَخْصين، على اختِلاف حالين: بمعنى أنهم أحيانًا يُخفُون وأحيانًا يُعلِنون، أو باختِلاف شَخْصين: بمعنى أن بعضَهم يُسِرُّ وبعضهم يُعلِن، أمَّا أن نَحمِلها على المَعنيَيْن في آنٍ واحِد من شخص واحِد فهذا لا يُمكِن؛ للتَّضادِّ -جمع بين ضِدَّيْن- وهذا مُستَحيل؛ وللنَّظَر أَيُّهما أَوْلى بالصَّواب:

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يَعنِي: أَخفَوْها حين رأَوُا العذاب؛ وأَخْفَوْها حين رأَوُا العذاب لأَجْل أَنْ لا يُعاب عليهم فيَظهَر للناس أنهم نادِمون على ما صنَعوا وهذا دائِمًا يَقَع حتى في أمور الدُّنيا إذا عرَف الإنسان أنه أَخطَأ في تَصرُّف ما: تَجِده يُخفِي خَطَأه ولا يُظهِر أنه نادِم، ولا أنه مُكترِث بهذا الشيءِ، قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ(١)

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

فبعضُ الناس يَتحمَّل ولا يُرِي غيرَه أنه نادِم، أو أنه ضجِر، أو ما أَشبَهَ ذلك.

ويُقال: إن رجُلًا عاد شَخْصًا مريضًا، وكان هذا المريضُ مُدنفًا أَيْ: مرَضه شديد، فقال له: كيفَ حالُكَ؟ فقال: الحمد لله طيِّب، وأنا -يَفتَخِر بنفسه كما قال الشاعِرُ:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فقال له الذي عادَه: ولكِن:

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ[1]

يَعنِي: لو تَجلَّدْت وقبلت الموت لا يَنفَع ذلك.

والشاهِد: أن الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخْفَوْا). قالوا ذلك لِئَلَّا يُعابوا على ما صنَعوا.

أمَّا الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى (أَظهَروا). فقالوا: إن الآياتِ كثيرةٌ تَدُلُّ على ندَمهم، وأنهم أَظهَروا ذلك ونَدِموا على ما صنَعوا، ولكن ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] الذي أَسَرَّ هُمُ الفَريقان -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ-: الذين استكْبروا والذين استُضْعِفوا.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: ﴿لَمَّا﴾ بمَعنَى (حِين)، وتَقدَّم قريبًا أن ﴿لَمَّا﴾ تَأتِي في اللغة العربية على أربَعة أَوْجُهٍ.

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي من نفس قصيدته السابقة، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

والرُّؤْية هنا بصَرية، أَيْ: عايَنوه بأَعيُنهم وأَسرُّوا النَّدامة، لكن والله لا يَنفَع النَّدَم حينذاك، فالنَّدَم حين يَرى الإنسانُ العذابَ لا يَنفَعه، إنها يَنفَع قبل أن يَرى العذاب، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: أَخفاها كلٌّ عن فَريقه مَخافةَ التَّعيير] واضِحٌ أن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّر (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخْفَوْا).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمَعنَى: (صيَّرْنا) أَيْ: صيَّرْنا الأغلالَ.

والأغلالُ جمع غُلٍّ، وهو ربط اليَدين بعضها إلى بعض، وتَعليقهما في العُنُق، نَسأَل الله العافيةَ! ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وأعناق جَمْع عُنُق وهي الرقَبة.

وقوله: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هل هم الذين استكبروا أو الذين استُضْعفوا؟

الجوابُ: كلا الفريقين؛ لأن هـؤلاءِ كُفَّار دُعاةٌ إلى الضلال، وأُولئـك كُفَّارٌ مُقلِّدون بعد أن جاءَهُم الحقُّ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ فالكُلُّ كافِر، فجعَل الله تعالى الأغلالَ في عُنُق هؤلاءِ وهؤلاءِ، فهل نفَعَتْ أحَدًا منهم مُحاجَجَتُه؟ أبدًا، وإنما هو من أَجْل إظهار العَداوة بينهم، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، فهذه حالُ أهل النار يومَ القِيامة أعداءٌ، ولَعْن وسَبٌّ وشَتْم.

ولكنِ المُتَّقُون -اللهمَّ اجْعَلْنا وإيَّاكم مِنهم- على العَكْس من ذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ﴾ ما]، يَعني: أنها بمَعنى: (ما)، أي: أن الاستِفهام هنا بمَعنى النَّفيِ: هل يُجزَوْن إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلون، يَعنِي: هل يُكافَؤُون إلَّا على ما عمِلوا فقَطْ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا.

فالاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، وقد تَقدَّم: أن النفيَ إذا صيغ بصيغة الاستِفهام كان مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي، يَعنِي: أنه لا يُمكِن أبدًا أن يُجزِيَ أحَدًا إلَّا ما عمِل.

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَضمَر محذوفًا قال: [﴿إِلَّا﴾ جزاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾]، وما في القرآن بلا شَكٍّ أبلَغُ وأشَدُّ؛ لأنه إذا قال: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلون؛ فإنه قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن الجزاءَ رُبَّما يَنقُص، وربَّما يَزيد، لكن إذا قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كأنهم يُجزَوْن بالعمَل نفسه؛ كان ذلك أبلغَ في امتِناع الزيادة أو النَّقْص، فما في القرآن أَوضَحُ، يَعني: أبلَغَ.

أمَّا وجهُ كون المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿إِلَّا﴾ جزاء]، فإنه يقول: إن الذي يَكون يومَ القِيامة ليس هو العمَلَ، ولكنه جزاء العمَل، ولكننا نَقول: إن كلام الله عَزَّوَجَلَّ أَفصَحُ وأبلَغُ، يَعنِي: كأَنَّ العمَل نَفْسَه هو الذي يُجزَوْن به، فيكون ذلك أبلَغَ في العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [في الدُّنْيا] أَفادَنا أن (كان) هنا للماضِي المُحقَّق، وقد تَقدَّم أن (كان) يُراد بها مُجرَّد اتِّصاف اسمها بخبَرِها، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، ليس المَعنَى: كان فيما مضَى، بلِ المَعنَى أنه لم يَزَل ولا يَزال كذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا يَدْعون -بَلْ يَأْمُرون- هؤلاءِ الضُّعَفاءَ ليلًا ونَهارًا؛ لقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ المَتبوعين يَتوصَّلون إلى أَتْباعهم بالمَكْر والخِداع حيث قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهُمْ يَمكُرون بهم، حيث يُوحِي بعضُهم إلى بعض زُخرَف القول غُرورًا، وإلَّا فهم يَعلَمون أنهم بمُخالَفتهم للرُّسُل على باطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الشِّرْك كُفر؛ لقولهم: ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، وليس كُلُّ كُفر شِرْكًا، فكُلُّ شِرْك كُفْرٌ، وليس كُلُّ كُفْر شِركًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ قد فرَضوا سَيْطَرتهم وسُلطانَهم على هؤلاء الأَتْباع فَرْضًا لا مَحيدَ لهم عنه؛ لقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، فهُمْ عندما يَدْعونهم لا يَقولون مثَلًا: إن الكُفْر حسَنٌ، وإن اتِّخاذ الشُّركاء حَسَن. وما أَشْبَه ذلك، بل يَقولون: اكْفُروا! لأن الأَمْر كما تَقدَّم هو طلَبُ الفِعْل على وجهِ الاستِعْلاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم النِّدِّ لله عَزَّوَجَلَّ، أَيْ: تَحريم جَعْل النِّدِّ لله؛ لأن قولَهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ يُعتبَر ذِكْرًا لأسباب العَذاب ولا شَكَّ فيه.

ولكن الشِّرْك -كما هو مَعلوم- أنواعٌ: شِرْك أكبَرُ مُخرِج عن المِلَّة، وشِرْك أَصغَرُ لا يُخرِج، وشِرْك ظاهِر بيِّن وشِرْك خَفِيٌّ لا يَبين، ثُم الخَفاء والظُّهور قد يَكون باعتِبار ظُهوره للناس، وقد يَكون باعتِبار ظُهور كونه شِرْكًا، يَعني: يَخفَى على الناس أن هذا الرجُلَ مُشرِك؛ فالرِّياء مثَلًا يَخفَى على الناس؛ لأن مَحلَّه القَلْب، وهو لا يَعلَم به إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والحلِف بغير الله ممَّنِ اعتاده هذا خَفيٌّ، لكن ليس من حيثُ ظُهوره

للناس؛ لأن الناس يَسمَعونه ولكن من حيث ظُهور حُكْمه، ولكِنْ كثير من الناس -ولا سِيَّما مَنِ اعتاد الحَلِف بغير الله- يَظُنُّون أن الحَلِف بغير الله تعالى ليس به بَأْس.

وهناك شِرْك ظاهِر أنه شِرْك، وظاهِر للناس أيضًا، كعِبادة الأصنام، فكُلُّنا يَعرِف أنها شِرْك، لكن من المُشرِكين مَن يَتعلَّل بأن هذه الأصنامَ يُريد بها أن تكون شُفَعاءَ، لا أنها هي نَفسُها تَنفَع أو تَضُرُّ.

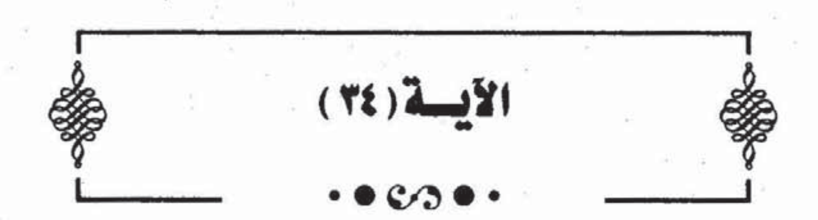
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن النَّدَم عند رُؤْية العَذاب لا يَنفَع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فلَمْ يَنتَفِعوا بإظهار النَّدامة، ولا بإِسْرارها في نُفوسهم أيضًا، أمَّا النَّدَم قبل رُؤْية العذاب فهو تَوْبة، إذا أَصلَح العمَل تاب الله عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من جُملة ما يُعذَّب به هؤلاءِ: أنَّ أيدِيَهم تُغَلُّ في أعناقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة القُرآن، حيث يَدُلُّ على المَعنَى باختِصار ووضوحٍ فهنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يَقُلِ: الذين استُضْعِفوا، أو الذين استَكْبَروا. بل قال الذين كفَروا؛ ليَعُمَّهم ويَعُمَّ غيرَهم أيضًا ممَّن كان كافِرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل، فيُجازَى الإنسان بمِثْل عمَله تمامًا، وقد بَيَّن الله تعالى في آيات أُخَرَ أن الحسَنة بعَشْرة أمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف، وأن السَّيِّئة لا يُجزَى الإنسان إلَّا مِثلها فقَطْ.



الآية (٣٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

•••

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رُؤَساؤُها المُنعَّمون] ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ المُراد بالقرية البلَد سواءٌ كان كبيرًا أم صغيرًا؛ لأنه مَأخوذ من الجَمْع، فالقَرْية سُمِّيت بقَرْية؛ لأنها تَجمَع الناس، وإن كان العُرْف عندنا الآنَ أن القَرْية هي البلَدُ الصغير، لكن هذا عُرْف حادِث، والقَرْية في اللغة تَشمَل البلد الكبير أو الصغير؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]، مع أن مكَّةَ أُمُّ القُرى، وسمَّاها الله تعالى قَرْية.

وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾، المُراد بالنَّذير النبيُّ، ﴿نَّذِيرٍ﴾ نكِرة في سِياق النَّفيِ، وهذا من باب تأكيد العُموم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، وبيَّن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإتْراف بمَعنَى: التَّنعيم، يَعنِي: إلَّا مَن نُعِّموا في الدنيا كذا وكذا، والتَّرَف سبَب للتَّلَف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤١-٤٥].

وانظُرْ إلى التَّرَف ماذا يُسبِّب؟ يُسبِّب الكِبْرِياءَ، ورَدَّ الحقِّ، وعدَمَ الإيمان بالرُّسُل.

قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: ﴿بِمَآ﴾ أي: بالذي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ الخِطاب في ﴿أُرْسِلْتُم﴾ للرُّسُل الذي عبَّر عنهم بقوله فيما سبَقَ: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِندنا حَرْفَا جرٍّ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾، ويَتعلَّق الجارُّ الأوَّلُ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه للحَصْر، كأنهم قالوا: لا نَكفُر بشيء إلَّا بما أُرسِلْتم به، وهذا من المُبالَغة في العُدوان، نَسأَل الله تعالى العافِيَةَ!.

أمَّا الثاني ﴿بِهِۦ﴾ فمُتعلِّق بـ(أُرسِل)، وقُدِّم المُتعلِّق على المُتعلَّق في ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ لسَبَبين: مَعنوِيٍّ ولَفظيٍّ: المَعنويُّ: إفادةُ الحَصْر، واللَّفْظيُّ مُراعاة فواصِل الآيات؛ لأننا نَرى أن الله عَزَّوَجَلَّ يَأتي بالأشياء التي فيها مُراعاة الفَواصل حتى، وإن لزِمَ أن يُقدِّم المُؤخَّر ويُؤخِّر المُقدمَّ، ففي سوره طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مع أن مُوسى أَفضَلُ من هارونَ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، لكن أُخِّر مُراعاةً لفَواصِل الآيات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله عَزَّوَجَلَّ بعَث في قرية نذيرًا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ وقد دَلَّ على ذلك آياتٌ مُتعدِّدة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُترَفين هم أهل البَلاء، ومِنهم يَصدُر الشَّرُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من التَّرَف، حيث كان التَّرَف سببًا للشَّرِّ والبَلاء والكُفْر، وقد كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -فيما رَواه أبو داودَ- يَنهَى عن كثرة الإِرْفاهِ، ويَأمُرنا بالاحتِفاء أحيانًا؛ فهو لا يَنهَى عن الرفاهية مُطلَقًا، ولكن عن كَثْرتها، ويَأمُر بالاحتِفاء؛ ومَعنى الاحتِفاء: أن نَمشِيَ حُفاةً أحيانًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أَعذَر إلى خَلْقه بإِرْسال الرُّسُل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهذا كقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وَقاحةُ هؤلاءِ المُترَفين من وجوهٍ:

أوَّلًا: أنهم قالوا بكُلِّ صراحةٍ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

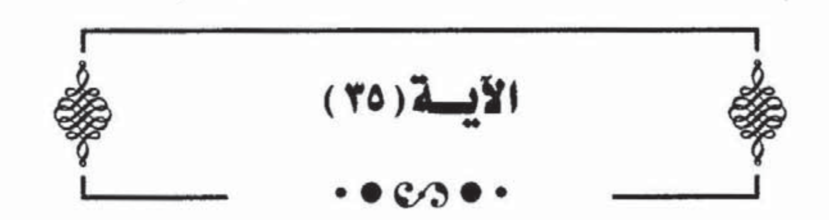
ثانيًا: أنهم أكَّدوا هذا الكُفرَ بقولهم: ﴿إِنَّا﴾، و(إِنَّ) للتَّوْكيد.

ثالثًا: أنهم قدَّموا المَفعولَ -مَفعولَ الكُفْر- وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾، كأنهم يَقولون للرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إننا لا نَكفُر بشيءٍ سِوى ما أُرسِلْتم به؛ لأن المعروف أن تقديم المَفعول يُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تكذيب هَؤلاءِ المُترَفين كان مع إقرارهم بأن هؤلاءِ رُسُلٌ، حيث قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾.

فإن قلتَ: أفلا يُمكِن أن يَكون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ يَعنِي: على زَعْمكم؟

فالجوابُ: أن الأصل في الكلام الحقيقةُ، وأن هذا إقرارٌ منهم أنهم أُرسِلوا، ولا غَرْوَ أن يَقوم الكافِر بالكُفْر المَبنيِّ على العِناد والاستِكْبار.



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

•●○●•

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعنِي: المُترَفون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [مِمَّن آمَن] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، افتَخَروا على هؤلاء؛ فقالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا وكثرة أَمْوالنا وأولادِنا -على زَعْمهم- تَدُلُّ على رِضا الله تعالى عنا إذ لو لم يَرْضَ عنَّا ما رزَقَنا الأموالَ والأولادَ.

وهذه الدَّعْوى سيُبيِّن الله تعالى بُطلانَها، لكن هم زعَمُوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُنعِم عليهم بهذه الأموالِ ولا الأَوْلاد إلا لأَنَّهُم على حقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يَحتَمِل نَفيَهم للعَذاب يَحتَمِل أَمْرين:

أحدُهما: أنهـم يَدَّعون أنهم إذا بُعِثوا لن يُعذَّبـوا وإن كانـوا يُقِرُّون بأصل العذاب.

الثاني: يَحتَمِل أن: نَفيَهم للعَذاب يُراد به نفيُ البَعْث، يَعنِي: لن نُبعَث فنُعذَّب كما زعَمْتم أيها الرُّسُل.

فهاهنا احتِمالان؛ الأوَّلُ: يَقـولـون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لن يُعذِّبنا؛ لأنه أَنعَـم علينا بالأمـوال والأولاد، والثاني: يُنكِرون البَعْـث، يَعنِي: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛

لأننا لن نُبعَث، هذا واحِد، فما نحن بمُعذَّبين لأن الله تعالى قد رضِيَ عنَّا فلا يُعذِّبنا.

والواقِع أنهم يُنكِرون البَعْث؛ لأن مَن آمَن بالبَعْث لزِم من إيمانه أن يُؤمِن بالرُّسُل ويَلتزِم بالشريعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُترَفين افتَخَروا بما أَعطاهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كثرة الأموال والأولاد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان قد يَغترُّ بالنِّعْمة فيَبقَى على مَعْصيته؛ لأنهم قالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا فقد رَضِيَ الله عَزَّوَجَلَّ عنَّا. ولكن هذا ليس دليلًا على رِضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاء الكُفَّارَ زعَموا بدَعْواهم أن الذي أَعطاهم نَعيم الدنيا سوف يُعطيهم نعيم الآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ في آخِر سورة (فُصِّلت) حين ذَكَر أن الله تعالى إذا أَعطَى الإنسان رحمة من الله تعالى ونِعمة يَقول: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، فهذا نَظير هذه الآيةِ؛ يَقولون: نحن أكثَرُ أموالًا وأَوْلادًا، وإن رجَعْنا إلى الله تعالى فإننا لن نُعذَّب، وهذا على أحد الاحتِمالَيْن، والاحتِمال الثاني أنَّ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَيْ: أننا لن نُبعَث ونُعذَّب.

• • ۞ • •



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٣٦].

•••

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمِرًا رسولَه عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَرُدَّ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتِحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه لَمن يَشاء ابتِلاءً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي: كُفَّار مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك] رَدٌّ على هَؤلاء الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يَعنِي: فنحن الذين رضِيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنَّا، أمَّا أنتم ففُقَراءُ، وفَقْركم يَدُلُّ على أن الله تعالى لن يَرضَى عنكم.

والجوابُ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، يَبسُط يَعنِي: يُوسِّع لَمن يَشاءُ، أي: مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، فهُناك كُفَّار قد ضيَّق الله تعالى عليهم الرِّزْق، وهناك مُؤمِنون قد وسَّع الله عليهم الرِّزْق، فالرِّزْق بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ تقدَّم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا قيَّد فِعْله بمَشيئته فهو مَربوط بحِكْمته، يَعنِي: مَن يَشاءُ ممَّن تَقتَضي الحِكْمة أن يُوسَّع له، ويَقْدر: يُضيِّق ممَّن تقتَضي الحِكْمة أن يُضيَّقَ عليه.

ولهذا يُروَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في الحديث القُدسيِّ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ

لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»(١)، فالغَنيُّ ربَّما يَطغَى بغِناه ويَستكثِر، والفقير ربما يَقنَط من رحمة الله ويَستَحسِر ويَستَبعِد الفَرَج، فيَكون الأوَّل فاسِدًا بطُغيانه، والثاني فاسِدًا بيَأْسه وقُنوطه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كُفَّار مَكَّةَ]، وهذا كما سبَق من قُصوره في التَّفسير، والواجِب أن نَقول: إن المُراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جميعُ الناس؛ أهلُ مكَّةَ وغيرُهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يَعلَمون أن الأَمْر بيَدِ الله تعالى من حيثُ تَوسيع الرِّزْق وتَضييقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُل: كل الناس؛ لأن المُؤمِنين يَعلَمون ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الحِكَم في بَسْط الرِّزْق وتَقْديره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِثْبات المَشيئة لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَفْعال الاختِيارية؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كَثْرة المال والولَد لا يَدُلُّ على الرِّضا، وإنما هو تابع لَمشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحِكْمة العَظيمة البالِغة في اختِلاف الناس في سَعة الرِّزْق

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وضِيـقه، ولولا ذلك ما قامَت مَصالِحُ الخَلْق، فلو كان النـاس على حدٍّ سَواء في الغِنَى فلا يَخدُم بعضهم بعضًا، ولا يَقوم بعضُهم بمَصالِح بعضٍ.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾ [الزخرف:٣٢] لماذا؟ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولَوْلا هذا الاختِلافِ مِن بَسْط الرِّزْق وسَعَتِه ما حصَلَتْ هذه الفائِدةُ العَظيمة وهو تَسخير الناس بعضِهم لبعضٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثَر النـاس جُهَّالٌ بحِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



الآية (٣٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

•●○●•

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [قُرْبى، أي: تَقريبًا].

وقوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾: (مَا) نافِية وهي حِجازية؛ لأن (أَموالَ) اسمُها، و﴿بِٱلَّتِي﴾ خبرُها.

إِذَنْ: فالمُبتَدأ والخَبَر مَوْجودان، فتكون حِجازيةً، والباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلَّتِي﴾ زائِدة لفظًا لا مَعنًى، وهي خَبَر (مَا)، أَيْ: ما أموالُكم أيُّها المُفتَخِرون بها حيثُ قُلْتم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ وأموالُكم؛ ما أموالُكم بالتي تُقرِّبُكم عِنْدنا زُلفَى.

وما الذي يُقرِّب عند الله تعالى؟

الجوابُ: الأعمالُ الصالِحة، أمَّا الأموال فإنها قد تكون ضرَرًا على الإنسان، فلَيْسَت هي التي تُقرِّب إلى الله تعالى، فمُجرَّد المال لا يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ قُربَى أَيْ: تَقريبًا]، فأَفادَنا بهذا التقريرِ رَحِمَهُ اللَّهُ أن ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ مفعـول مُطلَق لـ(تُقرِّب)؛ لأن التقريب بمَعـنَى: الزُّلْفى، فهو إِذَنْ:

مَفعول مُطلَق، ولا نَقول: إنه مَصدَر؛ لأنه مُخالِف لعامِله في الاشتِقاق فـ(تُقرِّب) مِن قرَّبَ، و(زُلْفى) مِن ازدَلَفَ بمَعنى قرُب، فالمعنى: أن هذه الأموال والأولاد لا تُقرِّبكم تقريبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحتَمَل أن المَعنى: ﴿بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ أي: تُدنِيكم منَّا، والمَعنَى من حيثُ العُموم سواءٌ بالتي تُقرِّبكم عندنا زُلْفى، لكن يَختَلِف الإعرابُ، فإنه على المَعنى الثاني تكون ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مَفعولًا به لا مَفعولًا مُطلَقًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن] إشارة إلى أَنَّ الاستِثْناء هنا مُنقَطِع؛ ووجهُه أن الكافَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ تَعود على الكافِرين؛ ومَن آمَن وعمِل صالِحًا فليس من الكافِرين.

والمُستَثْنى إذا كان من غير جِنْس المُستَثْنى منه فهو مُنقَطِع، فالمُنقَطِع هنا إذا كان الضميرُ في أموالكم يَعود على الكافِرين فالاستِثْناء مُنقَطِع قطعًا؛ لأن مَن آمَن وعمِل صالِحًا ليس من الكافِرين، وإذا جعَلْنا الخِطاب في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ عائِدًا على جميع الناس المُخاطَبين صار الاستِثْناء مُتَّصِلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَعنِي: فإن مَن آمَن وعَمِل صالِحًا تُقرِّبه أمواله وأولاده إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَعمَل فيها بطاعة الله تعالى، فيَكتَسِب المال عن طريقِ حلالٍ، ويَصرِفه أيضًا في الطُّرُق النافِعة، وأولادُه كذلك يُربِّيهم ويُؤدِّبهم حتى يَكونوا قُرَّة عَيْنٍ له في الحياة وبعد المَمات.

وقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: إذا دعا الولَد الصالِح لأبيه قرُب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وصار هذا الدُّعاءُ مُقرِّبًا له.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان يكون في القَلْب، وهي العَقيدة و﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَكون في الجَوارِح، و﴿صَٰلِحًا﴾ صِفة لَمصْدَر محذوف تَقديرُه: عملًا صالِحًا، كما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في سورة الفُرقان في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

والعمَل الصالِح: هو ما كان خالِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالعمَل الذي فيه رِياء ليس بصالِح؛ لأنه لم يَكُن خالِصًا، والعمَل الخالِص المُبتَدَع ليس بصالِح؛ لأنه ليس مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: (أُولَئِك) المُشار إليه: مَن آمَن وعمِل صالِحًا، وجاء بلفظ الجَمْع (أُولَئِك) مُراعاةً للمَعْنى، أمَّا اللَّفْظ فإنه يَقول: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فاللَّفْظ مُفرَد، ولكنه عاد إلى ﴿مَنْ﴾ باعتِبار المعنى، وقد سبَق مِرارًا وتَكرارًا أنه يَجوز في (مَن) و(مَا) وما أَشبَهَهما؛ يَجوز فيه مُراعاة المَعنى ومُراعاة اللَّفْظ، ففي مُراعاة المَعنى نَأتي بالإشارة أو بالضمير مجموعة، وفي مُراعاة اللَّفْظ نَأتِي به مُفرَدًا.

وربما نَأتي مرَّةً بمُراعاة اللَّفْظ، ومرَّة بمُراعاة المَعنى، ومرَّة بمُراعاة اللَّفْظ في سِياق واحِد؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١]، الضمائر هنا رُوعِيَ فيها: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ رُوعِيَ فيها اللفظُ، وفي قوله

تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ المَعنَى، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ اللفظُ؛ ففي سِياق واحِد رُوعِيَ اللفظُ، ثُم المعنى، ثُم اللفظُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أيِ: الجزاء المُضاعَف: الحَسَنة بعَشَرة أمثالها إلى سَبْع مئة ضِعْف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾: (مَا) يُحتَمَل أن تكون مَصدرِيةً، وأن تَكون مَوْصولةً، فإن كانت مَوصولةً فعائِدُها محذوف، والتَّقْدير: بما عمِلوه، وإن كانت مَصدرِيَّة فلا حاجةَ إلى عائِد، ويَكون التقدير: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾، أي: بعمَلهم، والباء هُنا للسببية؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنْتَ يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَتِهِ»(١)؛ وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ ولا مُنافاةَ؛ لأن الباء في قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» باء المُعاوَضة التي هي كقولك: بِعْتُ هذا الثوبَ بدِينار.

وأمَّا الباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ فهي باء السبَبية أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعَل العمَل سببَ دُخول الجَنَّة، ولم يَجعَلِ الجَنَّة عِوَضًا عن العمَل، بل العمَل سببُها.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: جزاء العمَل الحَسَنة بعَشْر أمثالِها] الحَسَنة مثَلًا بعَشْر [فأَكثَرَ ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ من الجَنَّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من الموت وغيره، وفي قِراءة (الغُرْفةِ)] قِراءة سَبْعية؛ لأن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قال: (فِي قِراءةٍ) فهي سَبْعية، وإذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قُرِئَ) فهي شاذَّة،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والقِراءة هنا: (فِي الغُرْفة) و﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾، ولكن الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع؛ لأن المُفرَد المُحلَّى بـ(أل) غيرِ العَهْدية يُفيد العُموم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]، أي: إن كل إنسان؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَعنَى: الجَمْع] أي: الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ كَثْرة الأموال والأولاد لا تَستَلْزِم القُرْب إلى الله تعالى، فإنَّ مِن الناس مَن يَكون كثيرَ المال والولَد وهو من أبعَدِ الناس عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومِن الناس مَن يَكون قليلَ المال والولَد وهو من أَقرَب الناس إلى الله تعالى، فهذا النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس هو من أكثَرِ الناس أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أَقرَبُ الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الرجُلُ الذي افتخَرَ بماله وولَده وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، إذا آتاه الله المال والولَد فإنه لا يَنفَعُه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١-٢٦]، فالأموال والأَوْلاد لا تُقرِّب إلى الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُؤمِن الذي يَعمَل الصالِحاتِ فإن أَمْواله وأولاده تُقرِّبه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَكتَسِبها من حلال، ويَصرِفها في ما يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَكون مُنتَفِعًا بها، والأولاد كذلك يَقوم عليهم بالتَّربية والتَّعليم وغير ذلك من

مَصالِحِهم، فيَنتَفِع بذلك عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَزاء على الإيمان والعمَل الصالِح مُضاعَف؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب، من الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مَنازِل الجَنَّة عالِية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ والغُرْفة: المَنزِل العالي، أمَّا الذي في الأَرْض فيُسمَّى حُجْرة، ولا يُسمَّى غُرْفة فالمَنازِل فوق غُرَف، والمَنازِل تحت حُجَر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن دخَل الجَنَّة فهو آمِن مِن كل مَخوف؛ آمِن من الموت ومن المَرَض ومن انقِطاع النَّعيم، ومِن فَساد الثِّمار ومِن كُلِّ شيءٍ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

• • ❁ • •



الآية (٣٨)

• • ◦ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ:٣٨].

• • ◦ • •

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ لَمَّا ذكَر جَزاء المُؤمِنين ذَكَر جزاء غيرهم؛ لأنَّ القُرآن مَثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني فإذا ذُكِر الثواب ذُكِر العِقاب، وإذا ذُكِر المُؤمِن ذُكِر الكافِر، وذلك لئَلَّا تَسْأَم النفس إذا بَقِيت في مَوْضوعٍ واحِد؛ ولأجل أن يَكون الإنسان عند تِلاوة القُرآن دائِرًا بين الخَوْف والرَّجاء، ومعلومٌ لنا جميعًا أن المَوْضوع إذا كان واحِدًا فإن النَّفْس تَمَلُّه وتَسْأَم منه، فإذا نُوِّع صار في ذلك تَنشيط لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْقُرْآنِ بِالْإِبْطَالِ] يَسعَوْن: السعيُ يُطلَق على مُجرَّد الحرَكة، ويُطلَق على الرَّكْض بشِدَّة، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، المُراد بذلك مُطلَق الحرَكة، وليس المُراد أن تركُض، وإذا قُلت: يَسعَى في الطواف، يَسعَى بين الصَّفا والمَرْوة، يَسعَى بين العَلَمَيْن.

فالمُراد بذلك الرَّكضُ، هنا ﴿يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُرادُ بذلك مُطلَقَ الحرَكة، ويُحتَمَل أن يُراد به الحرَكة بشِدَّة، وهذا الأخيرُ أبلَغُ؛ لأنَّ هؤلاءِ

يَسعَوْن جاهِدين بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقول المُفَسِّر: [﴿يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القُرْآنِ] ووجهُه: أنَّ الذين كفرُوا لا يُنكِرون آيات الله تعالى الكَوْنية، وإنما يُنكِرون آياتِ الله تعالى الشرعيةَ، على أنهم أحيانًا يَطلُبون آياتٍ كَوْنيةً تَعْجيزًا للرسول ﷺ كما حَكَى الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

كم آيةٍ طلَبوها من الآيات الكَوْنيَّة هنا، ومع ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يَعنِي: تَنزيهًا له أن يَبعَث رسولًا بدون آيات يُؤمِن على مِثْلها البَشر وما أنا إلَّا بَشَرٌ رَسولٌ؛ كما أن الآياتِ هنا خصَّها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآيات الشَّرْعية، وقال: إن المُراد بها القُرآن.

ويُحتَمَل أن يُراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعًا؛ لأنَّ هؤلاءِ كما يُعاجِزون في القُرآن يُعاجِزون أيضًا في الآياتِ الكَوْنية، وكأَنَّ القُرآن آيةٌ من آيات الله عَزَّوَجَلَّ لاشْتِماله على ما يَعجِز عليه البَشَر، بَل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَحدَّى البَشَر وغَيْرَهم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا مُقَدِّرين عَجْزنا وأنهم يُفَوِّتوننا، و(المُعاجِز) هو: الطالِب لإِعْجاز غيره فـ(عاجَزه) مِثل قاتَله.

والمَعنَى: أنهم يُعاجِزون الله تعالى، أي: يَطلُبون على زَعْمهم ما بِه العَجْز؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا وَأَنَّهُمْ يُفَوِّتُونَنَا] هؤلاء الذين فعَلوا ذلك يُعاجِزون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَطلُبون ما فيه عَجْزه على زَعْمهم، ويَقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، هذا تَعجيز لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم لا يُجيبُهم إلى ما أَرادوا، بَلْ ويَجعَل هذه الأُمورَ حَسبَ ما تَقضِيه الحِكْمة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سبَق أن هذه الجُملةَ هي خبَرُ الذين يَسعَوْن، فخَبَر المُبتَدأ الآنَ جُملة خبَريَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحضَرون في نَفْس العذاب، والعَذاب بمَعنَى العُقوبة والنِّكاية، وهذا خبَرٌ يُراد به التَّهديد، لا مُجرَّد أن نَعلَم بأن هؤلاء سيَحضُرون في العذاب ويُعذَّبون، بلِ المُراد التَّهديد، والتَّحذير من صَنيعهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من عِباد الله تعالى مَن يَسعَى لإِبْطال آيات الله عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ ما يَستَطيع من قُوَّةٍ، ووَجْه ذلك أن الله تعالى أَثبَتَه وأَثبتَ عذابه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وليس شيئًا مَفروضًا مُقدَّرًا، بل هو شيءٌ واقِع.

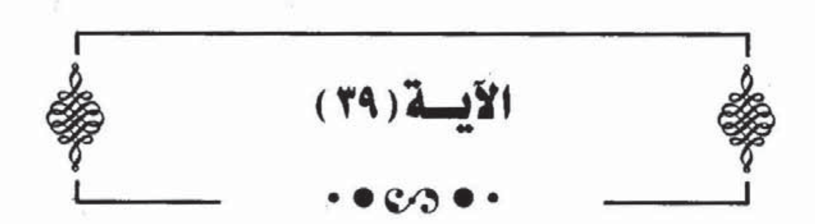
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان ما يَصِل إليه عُتُوُّ الإنسان وطُغيانه، حيث يَسعَى في آيات الله تعالى مُعاجِزًا لله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أنت حتى تُعاجِز الله تعالى وتَطلُب تَعجيزَه وتَتَحدَّاه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤلاء المُعاجِزين الذين يَسعَوْن في آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُعاجِزين سوف يَكونون يوم القِيامة في العذاب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

وَرُبَمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إنهم في العَذاب مُحضَرون حتى في الدنيا؛ ويَكون المُرادُ بالعَذاب هنا العذاب القَلْبيُّ؛ لأنَّ الكافِر مهما نُعِّم في الدنيا إنه في أَلَم وعَذاب في قَلْبه؛ لأنَّ الكافِر لا يَشبَع من الدنيا، فهو في حُزْنٍ خَوْفًا من ذَهاب المَوْجود، وفي هَمٍّ طلَبًا لوُجود المَفقود؛ لأنَّه يُريد أن تَنمُوَ له الدنيا وتَزدَهِر، ويَخشَى أيضًا من أن تَفوت بخِلاف المُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والعُقوبة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

• • ۞ • •



الآية (٣٩)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩].

• • ✿ • •

﴿ قُلْ ﴾ الخِطاب للنبيِّ ﷺ، ويَجوز أن المُراد به كل مَن يَتأتَّى به الخِطاب، مَن يَصِحُّ توْجيه الخِطاب إليه، يُخاطِب هؤلاء الذين يَسعَوْن في آيات الله تعالى مُعاجِزين، ويَطلُبون عَجْز الله تعالى في ما يَدَّعُون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ ﴾ أي: يُوسِّعه من البَسْط، وهو التَّوْسِعة؛ ولهذا يُقال: بسَطَ الكَلام، واختَصَر الكلام، وبسَط بمَعنَى: وسَّعَه وطوَّله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ بمَعنَى العَطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ امتِحانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه له بعد البَسْط، أو لمنَ يَشاءُ ابتِلاءً.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ سبَقَ لنا كثيرًا بأنَّ كل فِعْل علَّقه الله تعالى بالمَشيئة فهو مَقرون بالحِكْمة، مِثالُه قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، بمَشيئته عَزَّوَجَلَّ، فهي تابِعة لحِكْمته، فهو إذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُوسِّع الرِّزْق لأَحَدٍ وسَّعه، وإذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُضيِّقه ضَيَّقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المُراد بالعِباد هنا العُبودية العامَّة؛ لأنَّ مَن يُشاهَد أن الكافِرين والمُؤْمِنين على السَّواء، منهم مَن يَبسُط الله عَزَّوَجَلَّ له الرِّزْق،

ومِنهم مَن يُضيِّقه له، فالمُراد بالعِباد إِذَنِ العُبودِية العامَّة، وقد سبَقَ أيضًا أن العُبودِيَّة تَنقَسِم إلى: عامَّة، وخاصَّة، فالعامَّة التي تَشمَل جميع الخَلْق، والمُراد بها العُبودِيَّة الكَوْنِيَّة، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وأمَّا الخاصَّة فهي عُبودية الطاعة الشَّرْعية، وهي التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امْتِحَانًا] يَعنِي: اختِبارًا يَختَبِره هل يَشكُر أَمْ يَكفُر؛ ولهذا قال سُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠] حين رَأَى عَرْش بَلقيسَ حاضِرًا بين يَدَيْه في هذه المُدَّةِ الوجيزةِ، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، يَعنِي: ابتِلاءً واختِبارًا، وكم مِن إنسان كان في حالِ الفَقْر أَصلَحَ ممَّا كان بعد الغِنى! وكم مِن إنسان بالعَكْس إذا كان فقيرًا ومُسرِفًا على نَفْسِه فلمَّا أَغْناه الله تعالى هَداه الله عَزَّوَجَلَّ!.

وقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حَسبَ ما تَقتَضيه الحِكْمة قال تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾: ﴿لَهُۥ﴾ هل يَعودُ على المَبسوط له أو يَعود على مَن يَشاءُ؟

الجوابُ: أن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَر فيه المَعنيَيْن، و(يَقدِر) أي: يُضيِّق له بعد البَسْط؛ يَعنِي أنه عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لَمِن يَشاءُ، ثُم يُضيِّق عليهم؛ ليَبلُوَهم ويُعطِيَ النِّعَم، ثُم يُزيلها امتِحانًا واختِبارًا، يَمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ على الإنسان بالأولاد فيموتون، وبالمال فيَفنَى، وهذا تَضييق بعد البَسْط، أو أنَّ المَعنَى يَبسُط يَقدِر له، أي: لَمِن يَشاءُ لا لهذا الذي كان مَبسوطًا له الرِّزْق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لقَوْم ويَقدِره لآخرين.

وهل هذانِ المَعْنَيانِ يَتنافَيان؟

الجوابُ: لا، وإذا كانا لا يَتَنافَيان وقد سبَق أنَّ القاعِدة في التفسير أنَّ المَعنيَيْن إذا كانا لا يَتَنافَيان فإن الآية تُحمَل عليهما جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يُقال: إنَّ كل إنسان يَرزُق عائِلته؛ أي: من رِزْق الله تعالى.

﴿وَمَآ﴾ هذه شَرْطيَّةٌ، وفِعْل الشَّرْط ﴿أَنفَقْتُم﴾، وجَوابه: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، واقْتَرَن بالفاء؛ لأنها جُمْلة اسمِيَّة، ويَقتَرِن جوابُ الشَّرْط بالفاء في سَبْعة مَواضِعَ، وهي المُجموعة في قوله:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يُخلِفه أي: يَأتِي بخَلْفه، واعلَمْ أن هناك فَرْقًا بين (يَخلُف) و(يُخلِف)، فـ(يَخلُف) يُراد به الشيء الذي خلَفَ غيرَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين وجَّه الخَلف لهَرونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢]، أي: صِرْ خَلَفًا عنِّي في قَوْمي، وأمَّا (أَخلَف) الرُّباعيُّ فالمُراد: أَعطَى الخَلَف، فالمُخلِف مُعطِي الخَلف، و(الخالِف) الذي خَلَف غيرَه، الفَرْق بين الثلاثيِّ والرُّباعيِّ، الثلاثيُّ مَعناه: خَلَف غَيرَه، والرُّباعيُّ أعطَى الخَلف، ومنه الحديث حديثُ أبي سَلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اخْلُفْنِي فِي عَقِبِي»(١)، وحديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ نَفْسَ الشيءِ قالَت: «وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»(٢)، فاجتَمَع بالحديث الكلام جَميعًا، حديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١٣)، بلفظ: أخلفني في أهلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨)، من حديث أم سلمة.

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ: اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا آجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» هنا مِن الرُّباعيِّ فهو يُخلِفه، أي: يُعطِي ما يَكون خَلفًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ الإِنْفاق مَعناهُ: بَذْل المال، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قيَّده بقَوْله: [وَمَا بَقِيَ فِي الْخَيْرِ]، وهذا القَيْدُ الذي قيَّدَه به المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ دلَّتْ عليه آياتٌ مُتعدِّدة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والآياتُ في هذا كثيرة؛ لأنَّ مَن أَنفَقَ في غير الخَيْر فالخَلف غيرُ مَضمون له، لكن مَنْ أَنفق في الخَيْر فالخَلف مَضمون له، ويَشمَل هذا النَّفَقاتِ الواجبَةَ، كإنفاق الإنسان على زَوْجته وأُمِّه وأبيه وابنه وبِنْته وما أَشبَهَ ذلك، ويَشمَل أيضًا الإِنْفاق في الزكاة؛ لأنها هي أُمُّ الإِنْفاقات؛ لأنَّ الإِنْفاق في الزكاة أَحَدُ أركان الإسلام، ويَشمَل الإنفاق في الجِهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَشمَل الإِنْفاق في نُزول الخَيْر كالإحسان إلى الناس وغير ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ هل الإِخْلاف في الكمِّية أو في الكَيْفية؟ بمَعنى: هل الله عَزَّوَجَلَّ يُعطيك بدَلًا عنه بالكمِّية إذا أَنفَقْت عشَرة أَعطاك عشَرة، أو بالكَيْفية بمَعنى: أن الباقِيَ يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به البرَكة حتى يَكون مُقابِلًا لما أَنفقْت مَضمومًا إليه؟

الظاهِر أنه يَشمَل الأَمْرين؛ أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُخلِفه، يُعطيك خَلفًا عنه بالكمِّية، فإذا أَنفَقْت عشَرةً فتَح الله تعالى لك باب الرِّزْق وأَعطاك عشَرة، أو أنه يَكون خَلفًا في الكَيْفية فإن أَنفقْت عشَرة من مِئة وبَقِي تِسعون فإن هذه التِّسعِين تَقوم مَقام مِئة

أو أكثرَ للبركة التي يُحِلُّها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصحيحِ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»(١)، يَعنِي أن الصدَقة لا تَنقُص المال، ولكنها تَزيده كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ و﴿خَيْرُ﴾ أَصلُها: أَخيَرُ؛ لأنها اسْمُ تَفضيل؛ لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة استِعْمالها، و﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ المُعطِين، وكيف نَقول: «خيرُ الرازِقين» مع أن الذي يَبسُط الرِّزْق ويُعْطي الرِّزْق هو الله تعالى؟

نَقول: لأن غيرَ الله تعالى يَرزُق؛ لكنه رِزْق محَدود، يُقال: رزَقَ عائِلَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

فإِذَنِ: الرِّزق يَكون من الله تعالى ويَكون مِن غيره، لكنه مِن الله تعالى شامِل عامٌّ، ومِن غَيْره ناقِص خاصٌّ، فالإنسان يَكون كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: إنه يُقال: كل إنسان يَرزُق عائِلته. يَعنِي: يُعطيها، لكن عَطاء الإنسان عائِلَتَه أو رِزْق غير عائِلته من رِزْق الله عَزَّوَجَلَّ، لولا أن الله تعالى أَعطاك ما أَعطَيْت غيرَك، فيَعود المَعنَى إلى أن الرِّزْق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: طلَب الإعلان؛ لأنَّ الأُمور كلُّها بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن بَسْطٍ وتَضييق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إذ إنَّه ليس المُراد أن تَقولها في نَفْسك، بل تَقولها في نَفْسك ولغَيْرك أيضًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأَرْزاق بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾، ويَترتَّب على هذا فائِدة، وهي أن نَطلُب الرِّزْق من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَبسُط الرِّزْق ويَقدِر.

ويتفرع على ذلك: ألَّا نَطلُب رِزْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمَعاصيه؛ لأن طلَب رِزْق الله بمَعاصيه مُنافٍ للأَدَب، كيف تَطلُب الرِّزْق مِمَّنْ بيَده الرِّزْق بمَعصيته؛ ولهذا حذَّر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من ذلك فقال: «إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1]، يَعنِي: اطلُبوا الرِّزْق طلَبًا جميلًا، وهو ما وافَق الشَّرْع، وعلى هذا فطَلَب الرِّزْق بالغِشِّ والكَذِب والظُّلْم طلَبٌ غيرُ مَشروع، بل ويُنافِي الأَدَب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ وسُلطانه؛ لكونه يَبسُط ويَقدِر، ولا أحَدَ يُمكِن أن يَعتَرِض عليه، وحتى لو اعترَض عليه فلا يَنفَع هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ الله تعالى مُدبِّر لما يَشاءُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحثُّ على الإِنْفاق؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ووَجهُ ذلك: أن الإنسان إذا أَنفَق، فإن نَفْسه الأَمَّارة بالسُّوء تَقول له: إذا أَنفَقْتَ من مالك نقَصْتَ منه، فلا تُنفِقْ. فيَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإِنْفاق وإن قلَّ فإنه مَخلوف، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ فإنها نكِرة في سِياق الشَّرْط مُؤكَّدة بـ(مِن) الزائِدة، هذا إذا لم تكُن (مِنْ)

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بيانًا لـ(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خيْرُ الرازِقين، بكثرة العَطاء وبدَوام العَطاء، فمَن سِوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الرازِقين لا يُعطِي الكثير، وإذا أَعطَى الكثير فإنه يَمَلُّ، فلا يَستَمِرُّ في عَطائه، أمَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه خيرُ الرازِقين في عَطائه كَثْرةً واستِمْرارًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات رازِقٍ سِوى الله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن هذا يَدُلُّ على وجود مُفضَّلٍ ومُفضَّلٍ عليه مُشتَرِكَيْن في أصل المُفضَّل به، وهو الرِّزق، ولكن رِزْق غير الله تعالى من رِزْق الله تعالى؛ لأن هذا الذي أَعطاني مثَلًا من أين له العَطاءُ؟ مِن الله تعالى، فيَكون إِعطاؤُه إيايَ من رِزْق الله تعالى الذي أَعْطاه، وأيضًا فإن رِزق غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رِزْق محَدود، ليس شامِلًا لكلِّ أَحَد، وليس شامِلًا لكل زمَن.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أفعال العِباد مَخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيها ردٌّ على القدَرِيَّة، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، ونحن نَعلَم أن الرِّزق الذي يَأتينا يَكون كثيرًا من كَسْبنا، نَتَّجِر ونَحرُث ونَعمَل، ونَحصُل على الرِّزْق، فيَكون في هذا دَليلًا على أنَّ فِعْل العَبْد مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبْريَّة وهمُ الجَهْميَّة، أيضًا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ حيث أَضافَ الفِعْل إلى العَبْد، والجَبْريَّة يَقولون: إنَّ الإنسان مَسلوب القُدْرة والاختِيار، وفِعْله لا يُنسَب إليه إلَّا على سبيل المَجاز، وإلَّا فإنه لا اختِيارَ له في فِعْله.

• • ۞ • •



الآيــة (٤٠)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠].

•●●•

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾] اذْكُرْ قَدَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ (إِذْ) ظَرْف، والظَّرْف كالجارِّ والمَجرور لا بُدَّ له من مُتعلَّق، وهذا المُتعَلَّق يَكون مَذكورًا ويَكون مُقدَّرًا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣] العامِل مَذكور: ترى، وليس محذوفًا، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، العامِل هُنا مَذكور، وقد يُحذَف، وهو كثير في القُرآن.

وهنا عامِل ﴿يَوْمَ﴾ محذوف، واذْكُرْ: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ اذْكُرْ ذلك اليَوْمَ تَحذيرًا منه وتَخويفًا؛ لأنَّ هذا اليَوْمَ يوم عظيم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: يَجمَعهم، و﴿جَمِيعًا﴾ حال من الهاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ومتى يَكون ذلك؟ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] يَكون هذا يومَ القِيامة، يَحشُر الله تعالى الأوَّلين والآخِرين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المُشركين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهَمْزة للاستِفْهام و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة مَفعول مُقدَّم لِـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، أو هي مُبتَدأ والمَفعولُ ﴿إِيَّاكُمْ﴾؛ لأنَّ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ الآنَ مُفرَّغة، يَعنَي أنها لم تَأخُذ مَفعولَها، وإذا لم تَأخُذ مَفعولها صارَ ما سبَقَ هو المَفعولَ.

وهل يَجوز تَقديم مَعْمُول خبَرِ (كانَ) عليها؟

الجوابُ: نعَم يَجوز، وفي باب (كانَ) وأَخواتها، أنَّه يَجوز تَقديم خبَرِها، ويَجوز تقديم مَعمولِ خبَرِها، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:٨] قُدِّم عامِلُ الخبَر على الأَداة، ﴿إِيَّاكُمْ﴾ مَفعول لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، يَعنِي: أَهؤلاءِ كانوا يَعبُدونكم، ولكنه فصَل الضَّمير؛ لتَقدُّمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الْأُولَى يَاءً وَإِسْقَاطِهَا] عِندنا هَمْزتان، هَمْزة ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثانية، وهَمْزة ﴿إِيَّاكُمْ﴾ فيها ثلاث قِراءات: القِراءة الأُولى تَحقيق الهَمْزتين: (أهؤلاءِ إِيَّاكم)، والقِراءة الثانية يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: وإِبدال الأُولى ياءً: (أَهَؤُلايِ إِيَّاكم) بأن تَجعَل الهَمْزة ياءً، والثالِثة إِسْقاط الهَمْزة الأُولى: (أَهَؤُلا إِيَّاكم)، يَعنِي الهَمْزة الأُولى من الهَمْزتين المُتجاوِرَتَيْن، وهي هَمْزة (أُولاءِ) الثانية وهَمْزة (إِيَّاك)؛ ثلاثة قِراءات، وفي أَيِّها قَرأْتَ أَجزأَ.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ بتَحقيق الهَمْزتَيْن وإبدال الأُولى ياءً، ذكَر بعضُ المُحشِّين أن المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وَهِمَ في هذا، وأنَّ إبدال الياء إنما هو في الثانية لا في الأُولى، يَعنِي: أنَّ الأُولى ما فيها قِراءة في إبدالِها ياءً، وإنما إبدال الياء في الثانية دون الأُولى، فيكون هذا وَهْمًا من المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أو سَبْقة قلَمٍ.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: في الدُّنيا يَقول الله تعالى ذلك تَوبيخًا وتَقريعًا لهؤلاء العابِدين الذين كانوا يَعبُدون الملائكة، والملائِكةُ تَقدَم لنا كثيرًا أنها جَمْع (ملَك)، وأَصْل (ملك: مَلْأَك)، وأَصْل (المَلْأَك) (مَأْلَك)، ففيها أُصول، لكنها بالاستِعْمال وصَلَتْ إلى هذه اللُّغة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغي تَذكيرُ الناس بيَوْم المَعاد، ووجهُ الدَّلالة: أنَّ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مُتعلِّق بمَحذوف تَقديرُه: (اذْكُرْ يومَ يُحشَرون)، وهذا يَشمَل تَذكير النَّفس، بمَعنَى أنَّ نَفْسك إذا غفَلَت يَنبَغي أن تُذكِّرها يومَ الحَشْر ويومَ الموت؛ لأنَّ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [اذْكُرْ] المُقدَّر يَحتَمِل أنَّ المعنى اذكُرْ في نَفْسك هذا اليومَ، أو اذْكُرْ لغَيْرك هذا اليومَ.

وكِلاهما حقٌّ فيَنبَغي للإنسان أن يُذَكِّرَ نَفْسه مَآله، كُلَّما ركَنَت إلى الدنيا وأَرادَتِ الانغِماس فيها فلْيُذكِّرْها يوم النَّقْلة من هذه الدُّنيا، ويُذكِّرها قومًا انتَقَلوا من هذه الدُّنيا، وكانوا أَشَدَّ منه قوةً وأكثَرَ أموالًا وأولادًا، ثُم يُذكِّرها ما وراء ذلك من الحِساب والعِقاب، وهو اليوم المشهودُ الذي يُجمَع له الناس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الحَشْر عامٌّ لكل أحَد حتى من أَكَلَتْه السِّباع وأَحْرَقَتْه النِّيرانُ، يُؤخَذ من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وهو كذلك، فالَّذي أَكَلَتْه السِّباع أو أَحرَقَتْه النيرانُ لا بُدَّ أن يُحشَر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات القَوْل لله تعالى، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذا يَعنِي إثبات الكلام والقول لله عَزَّوَجَلَّ، وهو مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة ومَذهَب الأشاعِرة ومَذهَب المُعتَزِلة، ولكنهم يَختَلِفون في تفسير هذا الكلامِ.

فالكلامُ عند أهل السُّنَّة والجماعة كلام حَقيقيٌّ بحُروف وأصواتٍ مَسموعة، وهو غير مَخلوق.

والكلام عند المُعتَزِلة كلام بحروف وأصوات مَسموعة؛ لكنَّه ليس من صِفات الله تعالى، فهو مَخلوق عندهم يَقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَخلُق كلامًا فيَنسُبه إليه على سبيل التَّشريف والتَّعظيم، كنِسبة البيت إليه ونِسبة المَساجِد إليه ونِسبة الناقة إليه ونِسبة الأرواح إليه وما أَشبَهَ ذلك.

والأشاعِرة يُثبِتون لله تعالى كلامًا، لكنهم يَقولون: إنه بغير حروف وبغير أَصوات مَسموعة؛ بل هو المَعنَى القائِم بنَفْسه، وهذا الذي يُسمَع هو الذي سمِعه مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسمِعه محمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَسمَعه الناس يوم القيامة هذه أَصوات يَخلُقها الله عَزَّوَجَلَّ لتُعبِّر عمَّا في نَفْسه، وليسَتْ هي كلام الله تعالى، بل هي عِبارة عنه.

أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فيَقولون: إنَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ حَقيقيٌّ بحَرْف وصَوْت مَسموع، لكنَّ هذا الصوتَ لا يُشبِه أصواتَ المَخلوقين؛ لأنَّه من كلام الله تعالى وكلامه صِفة من صِفاته لا تُشبِه صِفاتِ المَخلوقين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَقريع أُولَئك المُشرِكين وتَوْبيخهم بسُؤال مَن يَدَّعونهم آلهةً حتى يُظهِروا البَراءة منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟

سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فسُؤال المَعبودين عن عِبادة العابِدين يُراد به التَّقريع والتَّوْبيخ لأُولَئك العابِدين، وأن هؤلاءِ المَعبودين تَبَرَّؤوا منهم وقالوا: سُبحانك أنت وليُّنا من دُونهم، وهذا من أشَدِّ ما يَكون من التَّخجيل والتَّوبيخ والتَّنديم، لأنه يُظهِر كذِب هَؤلاء العابِدين وافتِراءَهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات المَلائِكة وأنَّ مِن الناس مَن عبَدهم من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ الضميرُ يَعود إلى المَلائِكة ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ [تَنزِيهًا لَكَ عَنِ الشَّرِيكِ] يَعنِي: إننا نُنَزِّهُك عن أن نَكون شُرَكاءَ لك نحن ولا غَيرُنا وتَنزيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكون عن شَيْئين: أحدُهما النَّقص، والثاني: مُشابَهة المَخلوقين.

وإن كان مُشابَهة المَخلوقين من النَّقص، لكن هذا من باب التَّفصيل في القول، يُنزَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن النَّقص؛ فمَثَلًا لا يُوصَف الله تعالى بالعَمَى والصَّمَم والعَجْز والضَّعْف وما أَشبَهَ ذلك مُشابَهة المَخلوقين فيما لهم من صِفات الكمال، فلا يُقال: عِلْمه كعِلْم المَخلوقين، أو وَجهُه كوَجْه المَخلوقين، أو يَدُه كيد المَخلوقين، وما أَشبَه ذلك، فهو مُنزَّهٌ عن هذين الأَمْرين.

وهنا يُنزَّهُ عن أن يَكون له شريك؛ لأنَّه لو كان له شَريك لكانَ ناقِصًا؛ إِذْ إِنَّ الشريك مُعين لِمَن شارَكه، أو مالِكٌ لِما يَملِكه، فالله تعالى مُنزَّهٌ عن هذا.

وتَقولُ الملائِكةُ: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهًا لك عن الشريك، وأفادَنا المُفَسِّر بقوله: تَنزيهًا. أن (سُبْحَانَ) مَنصوبة على أنها اسمُ مَصدَر، فتكون مَفعولًا مُطلَقًا، وهي مُلازِمة للنَّصب على المَفعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِمة أيضًا للإِضافة، فلا تَقع

إلَّا مُضافةً وإلَّا مَنصوبةً على المَفعولية المُطلَقة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا مُوالاةَ بَينَنا وبينَهم من جِهتنا، يَعنِي: أن هذه الجُملةَ خَبَرية ثُبوتية ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ مَعناها جُملة سَلْبية، أي: لا نَتَوَلَّاهم، بل ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، فلا مُوالاةَ بينَنا وبينهم، وإذا انتَفَت المُولاةُ ثبَت ضِدُّها، وهي المُعاداة، يَعنِي: فهؤلاء أَعداؤُنا، وأنت وليُّنا من دونهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال، ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ الشياطين، أي: يُطيعوهم في عِبادتهم إيَّانا ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ مُصدِّقون في ما يَقولون]

قوله: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال]؛ لأنَّ (بَلْ) تَأتي للإِضْراب الانتِقالي، وللإِضْراب الإِبْطالي، فإن كان المَقصود بها إِبْطالَ ما سبَقَ وإثباتَ ما لَحِق فالإِضْراب إِبْطالي، وإذا كان المَقصودُ بها الانتِقالَ من مَعنًى إلى آخَرَ فوقَه أو دونَه يُسمَّى إضرابًا انتِقاليًّا.

وهنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: يَقول: إنَّ هذا الإِضْرابَ انتِقاليٌّ؛ يَعنِي: وأنَّهم لم يُبطِلوا ما سبَق، فهم باقون على قَوْلهم: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، ولا مُولاةَ بيننا وبينَهم، ولا نُوالِيهم ولا يُوالوننا، بل نَزيد على ذلك: كانوا يَعبُدون الجِنَّ، والمُراد بالجِنِّ هُنا الشياطين؛ لأنَّ الجِنَّ همُ الشَّياطينُ في الواقِع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠]، فهم يَعبُدون الجِنَّ.

فَإِنْ قِيلَ: إذا كانوا يَعبُدون المَلائِكة، كما هو ظاهِر السِّياق فكيف عِبادتهم للجِنِّ؟

فالجوابُ: هنا عِبادتهم للجِنِّ عِبادة طاعة، أي: أنهم يُطيعونهم في الإشراك فالجِنُّ تَأمُرهم أن يَجعَلوا المَلائِكةَ شُرَكاءَ مع الله تعالى في العِبادة فيُطيعونهم، ومَن أَطاع غيرَ الله تعالى في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخذه إلهًا، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، وقد رُوِيَ أنهم كانوا إذا أَحَلُّوا ما حرَّم الله أَحَلُّوه، وإذا حرَّموا ما أَحَلَّ الله حرَّموه، فجعَلوهم إلَهَةً مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التحليل والتحريم والطاعة، فيَكون مَعنَى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يُطيعونهم في عِبادة الملائِكة، ومَن أَطاع غيرَه في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخذه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: مُصدِّقون فيما يَقولون لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ ولم يَقُلْ: كلهم. مع أن الجميع يَعبُدون الملائِكة طاعَةً للجِنِّ.

فلماذا عَبَّروا بقولهم: أكثَرهم. ولم يَقولوا: كلُّهم؟

جوابُ ذلك أن يُقال: إنَّ هؤلاءِ المُشرِكين يَنقَسِمون إلى قِسْمين: قِسْم عامَّةٌ أَتباعٌ، لا يَعرِفون شيئًا، وجَدوا آباءَهم على دِين فمَشَوْا عليه، والقِسْم الآخَر مُجتَهِدون يَعرِفون الأَمْر ولكنهم يُؤمِنون بهؤلاء الجِنِّ ويُصدِّقونهم، ويَكفُرون بالرُّسُل، وهؤلاء همُ الأَكثَرُ، ومع ذلك فإن الأَتباع -وهم القِسْم الأوَّل- إذا تَبيَّن لهم الحقُّ وأَصَرُّوا على اتِّباع هؤلاء وقالوا كما قالَتِ الأُمَم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فإنهم مُستَحِقُّون للعذاب؛ لأنهم كفَروا على بَصيرة.

من فوائد الآية الكريمة:

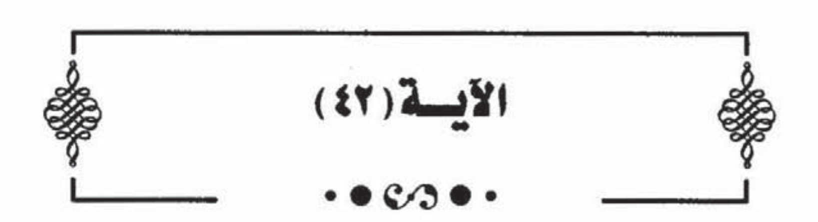
الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ ما عِند المَلائِكة عليهم الصلاة والسلام من تَعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيث قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهًا عن أن يَكون لك شريك، لا مِنَّا ولا من غَيرِنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمَلائِكة، حيث قالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ والجِنُّ عالَمٌ غَيْبِيٌّ مَخلوق من نار وفيهم المُؤمِن والكافِر والمُطيع والعاصِي، كما في سُورة الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب الكُفْر بعِبادة الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، وأمَّا الإيمان بوُجودهم فهو واجِب؛ لكن الإيمان بأن لهم حقا في العبودية هذا منكر، وهو المراد بقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، ومن هنا نعرف أن ما جاء في كتاب في كتاب التوحيد -واستشكله بعضهم-؛ أنَّ المُصدِّق بالسِّحْر لا يَدخُل الجَنَّة مع أن السِّحْر حقيقة، والتَّصديق به أَمْر واقِعيٌّ، لكن المُراد التَّصديق به يَعنِي مُمارَسته والإيمان به أي: بما يَنتُج عنه بحيث يُمارِسه الإنسان بنَفْسه، وأمَّا التصديق بأن السِّحْر له آثار فهذا أَمْر لا يُمكِن إنْكارُه.

• ● ۞ ● •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢].

•●○●•

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: (أل) هنا للعَهْد الذِّكْري، والمَذكور هو قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: فاليَوْم الذي نَحشُرهم فيه لا يَملُك بعضُكم لبَعْض نَفْعًا ولا ضَرًّا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ نُصِبَت على الظَّرْفية، والعامِل فيها قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يَعنِي: فلا يَملِك اليومَ بَعضُكم لبَعْض، أي: بعض المَعبُودين للعابِدين [﴿نَّفْعًا﴾ شفاعةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ تعذيبًا].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الذي انتَفَى نَفْعُه المعبودُ؛ لأنَّ العابِد يَرجو من وَراء المَعبود النَّفْعَ أو الضرَر.

فنَقول: لا يَملِك العابِد للمَعبود ضَرًّا ولا نَفْعًا، كما أنه لا يَملِك المَعبود للعابد ضَرًّا ولا نَفْعًا.

فَإِنْ قِيلَ: ما الحِكْمة في أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وجعَله مُبهَمًا ليَشمَل العابِد والمعبود والتابع والمَتبوع؛ فكلُّ أحَدٍ يوم القِيامة لا يَملِك لأَحَدٍ نَفْعًا ولا ضَرًّا، وقول المُفسِّر رَحِمَهُاللَّهُ: [شَفَاعَةً] مع أن كلِمة (نَفْع) أعَمُّ من

الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيَّدها بالشفاعة؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فادَّعَوْا أنَّ عِبادتهم إيَّاهم من أجل أَنْ تَشفَع لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وتُقرِّبهم إليه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يَعنِي: نَفْعًا في عِبادتكم إيَّاهم بالشفاعة، والأَصَحُّ: وبغيرها.

﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بعدَم عِبادتكم إيَّاهم، أي: أنهم إذا لم تَعبُدوهم فإنهم لن يَضُرُّوكم، وكما أنهم لا يَملِكون في ذلك اليومِ لا نَفْعًا ولا ضَرًّا، فكذلك لا يَملِكون في الدُّنْيا نَفعًا ولا ضَرًّا.

فإن قلت: إنَّه قد يَعبُد الإنسان غَيرَ الله تعالى، فيَدعوه لكَشْف ضُرٍّ فينكَشِف ذلك الضُّرُّ، فما الجوابُ عن هذه الآيةِ وغيرِها؟

فالجوابُ: إن هذا الذي حصَل لم يَحصُل بالدعاء أو بالعِبادة ولكن حصَل عنده، فليس ذلك سببًا.

فإذا قُلْتَ: قولكَ: إنه حصَل عنده. هذه دَعوى تَحتاج إلى بُرهان، وإلَّا لكان الواجِبُ أن يُحال الأمر على الشيء أو على السبب الظاهِر، وهو دُعاء هذه الأصنامِ. فهذ الاعتِراض يَعنِي: أنك قد تَقول: إن هذا الشيءَ حصَل عند الدُّعاء لا بالدُّعاء. فيُقال لك: هذه دَعوَى مِنك، ما دامَ دعا هذا الصَّنَمَ أن يَشفِيَه فشُفِيَ، فالأصل إحالة الحُكْم على السبَب الظاهِر، وهو هذا الدعاءُ فدَعوَى أنه حصَل بغيرِ هذا السبَبِ الظاهِر تَحتاج إلى دَليل!

فالجوابُ: أن لَدينا دليلًا على ذلك وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

فهاتان الآيتان وما أَشبَهَهُما كلُّها تَدُلُّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَع لا بجَلْب نَفْع ولا بدَفْع ضَرَر، فإن وُجِد شيءٌ حصَل بعد الدُّعاء فقد حصَل عنده لا به.

فإن قُلْتَ: كيف يَكون هذا الشيءُ؟ وما الحِكْمة من أن الله عَزَّوَجَلَّ يَجعَل حدوث هذا النَّفْعِ أو اندِفاع هذا الضرَرِ عند دُعاء هذه الأَصنامِ؟

نَقول: فِتْنةً وامتِحانًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَمتَحِن العبد بالشيء المُحرَّم يُصِرُّ عليه، أو يَبتليه بالشيء المُحرَّم يَمتَنِع منه، والله على كل شيءٍ قديرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ﴾ مَعطوف على قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يَعنِي: واليَوْم نَقول للذين ظلَموا.

الظُّلْم في اللغة: النَّقْص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تَنقُص.

وأمَّا في الاصطِلاح أو في الشَّرْع: فهو نَقْص ذَوِي الحَقِّ حَقَّهم؛ إمَّا بالمُماطَلة بالواجِب، وإمَّا بانتِهاك المُحرَّم، نَقْص ذَوِي الحقِّ حَقَّه، إمَّا بالمُماطَلة في الواجِب مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»[1]، وإمَّا بالاعتِداء على حقِّه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم (٢٢٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا] وهذا تفسير بالمَعنى لا بالمُراد؛ لأن الظُّلْم من حيث المَعنى أَعَمُّ من الكُفْر، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنه يُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].

فالظُّلْم قد يُراد به بالكُفْر، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الظُّلْم بالكُفْر هنا، بدليل السِّياق: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هذا ممَّا يَدُلُّ على أن المُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر؛ لأنَّ الذي يُكذِّب بالنار حُكْمه كافِر؛ لتكذيبه خبَرَ الله تعالى ورسوله ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذُوقُوا﴾ فِعْل الأَمْر، لكنه يُراد به الإهانة؛ يَعنِي: يُقال لهم إهانةً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: أنَّ النار ستُصيبكم حتى تَذوقوها كما تَذوقون الطعام.

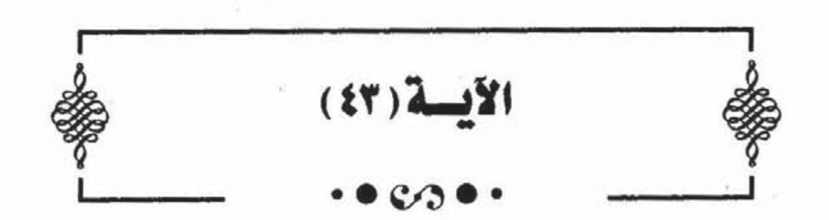
وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كانوا يُكذِّبون بالنار لأنهم يُنكِرون البَعْث، والنار إنما تكون بعد البَعْث، وهم يُكذِّبون بذلك، ومن بابِ أَوْلى أن يُكذِّبوا بما يَكون في القَبْر من العَذاب، فهم يُكذِّبون تكذيبًا كامِلًا ويَقولون: إن الرُّوح إذا خرَجَت من الجَسَد لن تَعود إليه، وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة؛ قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

فعلى هاتين الآيتين يَكون الوَصْف بالتَّكذيب، مرَّةً بالنار ومرَّة بعَذابها، فهُمْ أحيانًا يُنكِرون النار وأحيانًا يُكذِّبون التعذيب بالنار، ويَقولون: كيف نُعذَّب بالنار؟

وكيف نَبقَى أحقابًا ونحن في النار، والإنسان إذا دخل في النار احتَرَق وانتَهَى؟! فيُكذِّبون بالعَذاب، وأحيانًا يُكذِّبون بالنار نفسها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الجارُّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ولكنه قُدِّم للفَواصِل من جِهة، وللحَصْر من جهة أخرى، ولكنَّنا إذا قُلْنا: إنه للحَصْر. يَرِد علينا إِشْكال وهو أنهم كذَّبوا بالنار وبغيرها، فيُقال: لمَّا كان العذاب بالنار ذُكِّروا بتكذيبهم بها خاصَّة؛ لأنهم عُذِّبوا بها فكأنه قِيل لهم: عُذِّبتم بشيء أنتُمْ كُنْتم تُكذِّبون به، وإلا فلَهُم تَكذيبٌ آخَرُ.

• • ❁ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ:٤٣].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [الْقُرْآنِ] ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿قَالُوا۟﴾ هذه الجُملةَ الشَّرْطيةَ وهي ﴿وَإِذَا﴾، وفِعْل الشَّرْط ﴿تُتْلَىٰ﴾ جوابُه ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾.

وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾: ﴿مَا﴾ نافِية، وهنا لم تَعمَل لانتِقاض النَّفيِ، وقد قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته:

إِعْمَالُ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ   مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

فإذا انتُقِضَ النَّفيُ فلا عمَلَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الإظهار في مَوضِع الإِضْمار له فائِدة دائِمة مُستَمِرَّة وهي التَّنبيهُ، وفائدةٌ خاصَّة في كل سِياق بحَسَبه، فهنا يُقصَد بها التَّعميم، يَعنِي: للذين ظلَموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبَب الحُكْم وهو قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا۟﴾ للذين ظلَموا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، والتَّعميم

(١) الألفية (ص:٢٠).

والإشارة إلى عِلَّة الحُكْم، وهو الظُّلْم للذين قالوا: نَقول لهم: ما استَفَدْنا أن سبَب قول الله تعالى لهم وتَوْبيخهم إيَّاهُم هو الظُّلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال من آياتِنا؛ لأنه وَصْفٌ بعد مَعرِفة، والوَصْف بعد المَعرِفة إذا كان نكِرة يَكون حالًا، وكذلك إذا كان جُمْلة، فالأَوْصاف بعد المَعارِف إذا كانَتْ نكِرة أو جُمْلة تكون حالًا، والأوصاف بعد المَعارِف إذا كانت مَعرِفة تكون نَعْتًا، فالحال والنَّعْت كلاهما وَصْف، ولكن إن وافَق مَتبوعَه في التعريف والتَّنكير فهو نَعْت، وإلَّا فإن كان المَتبوع مَعرِفة والثاني نكِرة أو جُملة فهو حال، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ هو جوابُ الشَّرْط.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: إذا تَقرَأ عليهم آياتِنا ولم يُبيِّن القارِئَ فيَشمَل أَنْ يكون القارِئُ النبيَّ ﷺ أو غيرَه، إذا تُتلَى عليهم آياتُ الله تعالى ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهِراتٍ فما ظُهورها هنا؟ هل ظُهورها بمَعنَى أنها واضِحة أنها كلام الله تعالى؛ لعَجْزهم عنها، أو بَيِّناتٍ فيما تَدُلُّ عليه من مَعاني سامِية لا يُمكِن أن يَأتِيَ بمِثْلها البَشَر، أو الأمران؟

الجوابُ: يَشمَل هذا وهذا، فهي بيِّنة في ذاتها واضِحة أنها ليست من كلام البَشَر، وهي بيِّنة في مَوْضوعها وما تَدُلُّ عليه من أَنَّها ليست من أحكام البَشَر؛ لأنها لا تَتناقَض ولا يُكذِّب بَعضُها بعضًا، وهذا يَدُلُّ على أنها من عِند الله تعالى.

ولو كانت هذه الآياتُ خَفيَّةً لكان لهم شيء من العُذْر في رَدِّها، ولكنها آيات بيِّناتٌ، لا عُذْرَ لهم في رَدِّها.

ومع هذا يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿مَا هَٰذَآ﴾

أي: الذي جاء بها وادَّعى أنها من عِند الله إلَّا رجُلٌ يُريد أن يَصُدَّكم، وانظُرْ كيف تَحمِل هذه الجُملةُ من الاحتِقار والإنْكار ما هو معلوم، فقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أَتَوْا به بصيغة الحاضِر وإن كان غائِبًا للاحتِقار، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذا للإنْكار؛ لأنهم أَتَوْا به بصيغة النَّكِرة، كأنهم لا يَعرِفونه كأنه رَجُل أَجنبيٌّ منهم، قالوا: ما هذا إلَّا رجُلٌ، ولم يَقولوا: ما ذلك الرجُلُ إلَّا رجُل. بَلْ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ احتِقارًا وإنكارًا.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يَعني: لا يُريد أن يَهدِيَكم سبيل الرَّشاد، ولكن يُريد ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾ أن يَصرِفكم ويَمنَعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: الأَصْنام من الأشجار والأحجار وغيرها، هذا هو غَرَض هذا الرجُلِ الذي جاء بهذه الآياتِ التي تُلِيَت عليهم، وليس غرَضُه الصلاحَ ولا الإصلاحَ. هكذا ردُّوا الحقَّ بهذه الدَّعْوةِ الباطِلةِ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ولم يَقولوا: وعمَّا كُنْتم تَعبُدون؛ لإثارة الحَمِيَّة في نُفوسهم؛ لأنَّ الإنسان يَصعُب عليه أن يَدَع ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مثل هؤلاء الجَهلةِ، ولو قالوا: عمَّا كُنْتم تَعبُدون. لكان يُمكِن أن يُقالَ: إنهم عَبَدوا على غير أَساس. لكن لَمَّا قال تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العِبادةَ لهذه الأصنامِ أَمْرٌ مُستَقِرٌّ كان عليه الآباء، ولا يَنبَغي لكم أن تَترُكوا مِلَّة آبائِكم.

ولهذا يَقولون كما حَكَى الله عنهم في آياتٍ أُخرى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] آيتان.

وقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من الأصنام، والمُراد بالآباء هنا ما يَشمَل آباءَ الصُّلْب، وهو الأبُ الأَدْنى والآباء الأَعلَيْن، وهمُ الأَجْداد وإن عَلَوْ.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ هل أُمَّهاتهم كذلك؟

الجوابُ: نعَمْ، لكنَّ الإنسان تَأْخُذه الحَميَّة لأبيه أكثَرَ ممَّا تَأْخُذه لأُمِّه؛ لأنَّه مِن المعلوم أن الأبَ رَجُل والرجُل أَعقَلُ من المرأة، فإذا كانت آباؤُكم يَعبُدون هذه الأصنامَ ويُصِرُّون على عِبادتها -وهم العُقلاءُ- فإنه لا يَنبَغي لكم أن تَتَّبِعوا هذا الرجُلَ؛ الذي كان يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم.

وقالوا في القُرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذِب ﴿مُّفْتَرًى﴾ على الله تعالى. فطَعَنوا في الرسول ﷺ بسُوء قَصْده، وأنه لا يَقصِد الإصلاحَ، وإنما يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم، وطعَنُوا في القُرآن وفي الوَحْيِ الذي جاء به هذا الرسولُ ﷺ، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

ومعلوم أنَّ هذه الصِّيغةَ صِيغةُ حَصْر، فعلى زَعْمهم ليس في القُرآن شيءٌ صِدْق، كلُّ القُرآن جملةً وتَفصيلًا ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: كذِب، هو بنَفْسه كذِب، وعلى على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هناك كذِب مُطلَق يُكذِّبه الإنسان ولا يَنسُبه إلى أحَد، وهنا كذِب يَفتَرِيه الإنسان على غيرِه، فالقُرآن يَقولون: إنَّه كذِبٌ وإنه مُفتَرًى على الله عَزَّوَجَلَّ. ولا ريبَ أنَّ هذه دَعوَى باطِلة فالقُرآن كما وصَفَه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وكذلك القُرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ، بدليل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَحدَّى هؤلاءِ أن يَأتوا بمِثْله فلم يَأتوا، فهو دليلٌ على أنَّه مِنْ عند الله وكُلُّ أَخباره صِدْقٌ وحقٌّ، خِلاف ما طعَن به هؤلاء.

وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ فطَعَنوا في الرسول وطَعَنوا في المُرسَل به، والطَّعْن فيهما طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ، كيف؟

الجوابُ: لأنَّ تَمكين الله تعالى لهذا الرسولِ، وتَأييده له، وإنزال الآيات عليه

وهو كاذِبٌ سَفهٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُؤيِّد رسوله بما يُنزِل عليه، ويَشهَد له بأنه حقٌّ، والرسول ﷺ يَدْعو الناس علنًا وسِرًّا، فلو كان كاذِبًا على الله عَزَّوَجَلَّ والله عَزَّوَجَلَّ يُؤيِّده ويُمكِّنه لكان تمكينُ الله عَزَّوَجَلَّ له في غاية ما يَكون من السَّفَه، وهذا طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذه أيضًا دَعوَى ثالِثةٌ كاذبةٌ، لكنه أَتى بالإظهار في مَوضِع الإضمار ﴿وَقَالَ﴾ ولم يَقُل: وقالوا، بل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، ويُفيد أنَّ هؤلاءِ الذين قالوا هذا القولَ كُفَّار؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفْر مُسنِدًا إليهم هذا القولَ، فيَكون ذلك سببًا لكُفْرهم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ في تَفسيرها [مَا] أي: أنَّ (إِنْ) نافِية، وهل يُشترَط لكونها نافِيةً أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)؟

الجوابُ: لا، ولكن إذا أَتَتْ بعدها (إلَّا) فهي نافية، كُلَّما أَتَت (إلَّا) بعدَ (إِنْ) فإنَّ (إِنْ) نافِية، ولا نَقول: إنها لا تَكون نافِيةً إلَّا إذا وقَعَتْ بعدها (إلَّا)؛ لأنها قد تَأتي نافيةً، وليس بعدها (إلَّا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي: ما عِندكم من سُلطانٍ بهذا، ومع ذلك فإن الجُملة هذه ليس فيها (إلا).

والخُلاصةُ: إذا أَتَت (إلَّا) بعد (إِنْ) كانت (إِنْ) نافِية، ولا يَلزَم أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)، بل قد تكون نافِية بدون (إلَّا).

ولنا أن نَستَطْرِد حتى نَذكُر مَعانيَ (إنْ)، فتَأتي نافِيةً كما هنا، وتَأتي شَرْطيةً كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩]، وتَأتي زائدة كقول الشاعِر(١):

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ ... وَلا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَـزَفُ

وتَأتي مُخفَّفة مِنَ الثَّقيلة، مثل:

.... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ(٢)

هذه مُخفَّفة من الثَّقيلة؛ إذًا فتُستَعمَل في اللُّغة العَربية على أربعة أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْر هو في اللُّغة: كل شيء خَفِيٍّ، وسُمِّي سِحْرًا؛ لمُطابَقته السَّحَر وهو آخِر الليل؛ لأنَّ آخِر الليل تَقَع فيه الأشياء خَفيَّةً؛ لكون الناس مُستَتِرين في بُيوتهم، فالسِّحْر في اللغة الشيءُ الخَفيُّ الذي يَخفى أَمْرُه وسبَبُه؛ ولهذا أَوَّل ما ظَهَرت الساعاتُ هذه قيل: إنها سِحْر!. وإذا جاءت أشياءُ غَريبةٌ على الناس خارِقة للعادة قالوا: هذا سِحْر. فهم يَقولون: إنَّ الذي جاء به مُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا سِحْر، فعَصا مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على رَأْيهم سِحْر، وإحياء عِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الموتى بإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سِحْر، وهذا الكلامُ الذي جاء به مُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سِحْر، «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(٣)، فقالوا: هذا كَلامٌ فَصيحٌ سحَرَ عُقول الناس.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

(٢) هو عجز بيت للطرماح بن حكيم الطائي. انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩)، ديوان الطرماح (ص:٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ هذا من باب التَّمويه، يَعنِي: أنه سِحْر بيِّن لا تَنبَغي المُجادَلة فيه؛ لبَيانه وظُهوره، وهذا كما تُؤكِّد الشيء فتَقول: هذا أَمْر بَيِّن واضِح. وإن كان ليس بَيِّنًا واضِحًا، فإن هذا الذي جاءَتْ به الرُّسُل من الآيات ليس بَيِّنًا أنه سِحْر، بلِ البَيِّن أنه حَقٌّ وآياتٌ حقيقية، لكن المُكذِّبين -والعِياذُ بالله تعالى- يُجادِلون في الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾: قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: بمَعنَى [بَيِّنٌ]؛ لأنَّ (أَبانَ) يَأتِي لازِمًا ومُتعَدِّيًا، فتَقول: أَبانَ الفَجْرُ. بمَعنَى: ظهَر الفَجرُ، وتَقول: بانَ الفَجرُ، فهُنا كلِمة ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: بيِّن، هذا هو الأقرَبُ، أمَّا ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: أَبانَ، أي: أَوضَحَ وأَظهَرَ، ففي مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]؛ لأنَّ القُرآن مُبين للحَقِّ، فتكون ﴿مُّبِينٌ﴾ هناك من (أَبانَ) المُتعدِّي، و(مُبينٌ) هنا من (أَبانَ) اللَّازِم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الوَحْيَ آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْهُ كونه آيةً من عِدَّة وُجوهٍ:

أوَّلًا: أنه أَعجَزَ البشَر وغير البَشَر، وهذا مَبنيٌّ على أنه من عند الله تعالى.

ثانيًا: أنَّ أَحكامَه عادِلة مُصلِحة للقُلوب، والأَبدان، والأَفراد، والجَماعات، في كل زمانٍ وفي كلِّ مَكانٍ، وهذا لا يُمكِن أن يُوجَد في قَوانينِ البَشَر مَهْما عظُمَت، فإنما تَكون صالِحة في نِطاق محَدود، وتَجِدُها كذلك مع كونها صالحِة في نَطاق محَدود، تَجد فيها أُمورًا ضارَّة قد تُعادِل المَصالِح التي فيها، بخِلاف آيات الله تعالى.

ثالثًا: ما يَشتَمِل عليه الوحيُ، أو القُرآنُ بالذات، من الأَخْبار الصادِقة، التي ليس فيها ما يُخالِف الواقِع بوجهٍ من الوُجوه، سواءٌ كانت تِلك الأَخبارُ ماضِيةً أو حاضِرةً أو مُستَقبَلة، هذه وجوهُ كَونِه من آيات الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ بيِّناتٌ، ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِل على بعض أهل العِلْم من أحكام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فليس مَصدَرُه أن الوحيَ خَفِيٌّ، ولكنَّ مَصدَرُه قُصور الناظِر في الوَحيِ، أو تَقصيره، قُصوره بحيث لا يَكون عنده عِلْم، أو لا يَكون عنده فَهْم، أو تَقصيره بحيث لا يَطلُب العِلْم، ولا يَطلُب الفَهْم، وإلَّا فإن آياتِ الله تعالى بيِّناتٌ، ولا يُمكِن أن تَحدُث حادِثة إلى يوم القِيامة إلَّا وفي كتاب الله تعالى بيانُها، ولكن ليس كل أحَدٍ يَستَطيع أن يَتبيَّنها من القُرآن.

فتَجِد الآية الواحِدة يَتلوها جماعة، ويَتفكَّرون فيها، يَستَنْبِط أحَدُهم منها مَسائِلَ عديدةً، والآخَرُ لا يَستَنبِطُ منها إلَّا مَسألةً أو مَسألَتين، وهذا أمرٌ ظاهِر، وكثيرًا ما تُشكِل عليه المَسألةُ، ونُراجِع كتُب العُلَماء والفُقهاء رَحِمَهُمُٱللَّهُ وغيرهم ثُم عند التَّأمُّل في الكِتاب والسُّنَّة نَجِد أنها قريبة مَوْجودة؛ إمَّا داخِلة في عُموم اللَّفْظ، أو إشارة، أو إيماء، أو ما أَشبَهَ ذلك.

وبَيان الآيات إمَّا أن يَكون بذاتها هي بيِّنة واضِحة، وإمَّا أن يَكون عن طريق السُّنَّة، تُبيِّن المُجمَل، وتُفسِّر المُشكِل، وتُقيِّد المُطلَق، وتُخصِّص العامَّ، وتَنسَخ المُحكَم -وهذا محَلُّ خِلافٍ بين العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ، والصحيحُ أنها تَنسَخ ذلك؛ لأنَّ الكلَّ من عند الله تعالى-.

إذَنْ: عرَفْنا مَعنَى (بيِّنات)، سَواءٌ كان بذاتِه أو ببَيان السُّنَّة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فالرسول ﷺ بيَّن

القُرآن بلَفْظه ومَعناه، سَواء بيَّنه بقوله أو بفِعْله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتوِّ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيثُ كانوا مع هذه الآياتِ البيِّنات يَدَّعون هذه الدَّعوةَ الباطِلة، وهي أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُريد إلَّا أن يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُد آباؤُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا شُبهةَ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، وإنما هي اعتِداء بالدَّعاوَى الباطِلة؛ لأنَّ غاية ما عِندهم أن يَقولوا: هذا ما كان عليه آباؤُنا. وهذا ليس بحُجَّة، فإن الحقَّ ما وافَق الشَّرْع، سَواءٌ كان عليه الآباءُ أم لم يَكُن.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: غِلَظ هؤلاءِ المُكذِّبين بصَوْغ الأساليب أو العِبارات الدَّالَّة على الحَطِّ من قَدْر النبيِّ ﷺ؛ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين كانوا على ضَلالٍ هُمْ وآباؤُهم، حيث كانوا يَعبُدون ما لا يَنفَعُهم ولا يَضُرُّهم؛ لأنهم يَعبُدون الأَشْجار والأَحْجار، ويَدَّعون أنها تَنفَع أو تَضُرُّ إمَّا بذاتها وإمَّا بشَفاعَتها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنهم ادَّعَوْا أن النبيَّ ﷺ كذَب على الله عَزَّوَجَلَّ في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الدَّعوَى هم بأَنفُسهم يُكذِّبونها؛ لأنهم كانوا يُسمُّون الرسول ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليه (الأَمينَ)، ويَرَوْن أنه أعظَمُ الناس أمانةً وصِدْقًا، فما الَّذي قلَبَه عن ذلك الوَصْفِ الذي أنتُمْ تُقِرُّون به، حتى قُلْتم: إنه مُفتَرٍ على الله عَزَّوَجَلَّ؟!.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ألَّا نَستَغْرِب مَن يُجادِل بالباطِل ويَدَّعي الأقاوِيلَ الكاذِبة، فهناك أُناسٌ الآنَ إذا رفَضوا شيئًا من الأشياء صاروا يَقولون ويَتَقَوَّلون على هذا

الذي قاله ما لم يَقُلْه، فيَقولون: إنه كاذِبٌ، إنه مُتَناقِض، إنه فعَلَ كذا، إنه فعَلَ كذا. وهو بَرِيء من ذلك، فلهؤلاء السلَفُ من أُولئِك الكُفَّار.

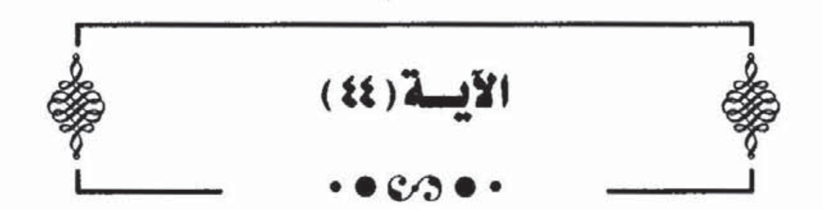
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنْ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الآيات من أَفصَحُ الكلام وأَبلَغُه وأَبيَنُه؛ لقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهُمْ لم يَصِفوه بالسِّحْر إلَّا لأنَّه يَأخُذ بالقُلوب، ويَجُرُّ الناس إليه جرًّا، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَنْ نَسَب الكذِبَ إلى رسول الله ﷺ بما أَوْحى الله تعالى إليه فهو كافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ ادَّعَوْا أنَّ الوحيَ سِحْرٌ بعد أن وصَل إليهم وعرَفوه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعرَفوا أنه حَقٌّ، حتى إنَّ زُعماءَهم كانوا يَتَسلَّلون لِواذًا في الليل إلى رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ليَسمَعوا القُرآن؛ لأنَّه آخِذٌ بمَجامِع قُلوبهم، وصاروا يُحِبُّون أن يَستَمِعوا إليه، لكن الحَمِيَّة -والعِياذُ بالله تعالى- والعَصبية مَنَعَتْهم أن يَهتَدوا بهذا القُرآنِ.

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيـة (٤٤)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ:٤٤].

• • ◦ • •

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فمِن أينَ كَذَّبوك؟!] قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ اختلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في مَعناها فقال بعضُهم: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ يُناقِض ما قُلتَ، فإذا لم يَكُن عندهم عِلْم من كُتُب يَدرُسونها، ولا عِلْم من نُذُر أَتَتْهم يُخالِفُ ما أنت عليه، فكَيْف يُكذِّبونك؟! وعليه: فيَكون المُرادُ بهذه الآيةِ أنَّ تكذيبهم إيَّاكَ صادِر عن جَهْل؛ لأنَّه تعالى يَقول: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ﴾ ولم يَقُلْ: آتَيْناهُم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَا﴾ تَدُلُّ على أنَّ ما قالوه في وَصْفك حَقٌّ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ يُناقِض ما جِئْت به، حتى يَقولوا: إنك كاذِب وساحِر. فيَكون المُرادَ بالآية أنَّ هؤلاء الذين كذَّبوك لم يَستَنِدوا في تَكذيبك على عِلْم، لا مِن كُتُب، ولا من وَحْي؛ لأن الكُتُب يَدرُسونها، ويَفهَمون ما فيها، ويَعلَمون أن ما جِئْت بها مُناقِض لها، ولا من نَذير أَنذَرَهم وحذَّرَهم ممَّا جِئْت به، وقال: إنه سيَأتي كاذِب مُفترٍ فلا تُطيعوه، ونحن لو جاءَنا نَبيٌّ وقال: إنه نَبيٌّ من عند الله تعالى. نُكذِّبه؟ نعم؛ لأننا قد أُنذِرْنا من هؤلاءِ كما أَخبَرَنا النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

لكن لَمَّا جاء النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هل هؤلاءِ المُكذِّبون له عَلِموا به وحُذِّروا منه؟ الجوابُ: لا.

وهل هناك كُتُب دَرَسها هؤلاءِ تُبيِّن أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على باطِل؟ الجوابُ: لا.

هذا وَجهٌ، وهذا هو الذي مَشَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولهذا قال: [فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوكَ].

والقول الثاني: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوم أُمِّيِّين، لا يَقرَؤُون، ولم يُبعَث إليهم نبيٌّ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الجمعة:٢]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة:٣]، أي: أنَّ هؤلاءِ كان الأَليقُ بهم أن يَفرَحوا برِسالتك، وأن يَقبَلوا ما جِئْتَ به؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُبٍ يَدرُسونها كما عند اليَهود والنَّصارى، ولم يُبعَث إليهم نَبيٌّ قَبْلَك، فكانوا في أَشَدِّ الحاجة إليك، ومَن كان مُحتاجًا إلى الشيء كان به أَفرَحَ، ولخَبَره أَشَدَّ تَصديقًا.

فيكون المُرادُ بهذه الجُملةِ تَوبيخَ هؤلاءِ على تَكذيبهم النبيَّ ﷺ، وأنه كان الأليقُ بهم أَنْ يَفرَحوا بذلك وأن يُصدِّقوا؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُب تُدْرَس، فليس له عندهم أَثارةٌ من عِلْمٍ، ولم يُبعَث إليهم نَذير من قَبْلكَ، فكانوا في أشدِّ الحاجة إلى تَصديقك، وقَبول ما جِئْت به، فتَتَضمَّن هذه الآيةُ تَوبيخَ هَؤلاءِ على تكذيبهم النبيَّ ﷺ.

وأيُّهما أَوْلى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾، أو ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؟ وهل يُمكِن أن تُحمَل على المَعنيَيْن؟

فالجوابُ: نَنظُر في حال هؤلاءِ، إذا كانت تَصدُق على حال هؤلاءِ على الوَجْهين حمَلْناها، وقُلْنا: هؤلاءِ ما درَسوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِب مُحمَّد عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا أَنذَرهم أحَدٌ منه، وكذلك هم لم يَكونوا عالِمين بالكُتُب السابِقة، ولم يُرسَل إليهم رَسولٌ.

إِذَنْ: حالهم قابِلة لهذين الوَجْهَيْن، يَعنِي: أن تَنزيلَها على الوجهين لا يَتنافَى مع حال هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، فالوَجْهان كِلاهُما يَصدُق عليهم، وإذا كان الوَجْهانِ كِلاهما يَصدُق عليهم، فلا مانِعَ من أن نَقول: إنَّ الآيةَ يُراد بها هذا وهذا؛ لأنَّ حال الذين كذَّبوا الرسول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قابِلةٌ للوَجْهين جميعًا.

من فوائد الآية الكريمة:

على أن المَعنَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُعطِ قُرَيْشًا، بَلْ والعرَب جميعًا لم يُعطِهم كتُبًا، ولم يُرسِل إليهم رَسولًا:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العُظْمى على العرَب بما بعَث إليهم، وهو مُحمَّدٌ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ووَجهُ ذلك: أنهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً، ليس عندهم كُتُبٌ تُدرَس، ولم يَأتِهم نَذيرٌ يُخبِرهم ويُعلِّمهم، فهُمْ أَشَدُّ الناسِ حاجةً إلى الرسول، وإذا اشتَدَّتِ الحاجة ثُم جاء ما يُزيل لك هذه الحاجةَ كان هذا أَعظَمَ منه، ففي الآية إِذَنْ: بَيان عظيم مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على العرَب، حيث بعَث فيهم هذا الرسولَ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العرَب كانوا جاهِلين من أَجهَل الناس قبلَ بَعْثة الرسول ﷺ، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

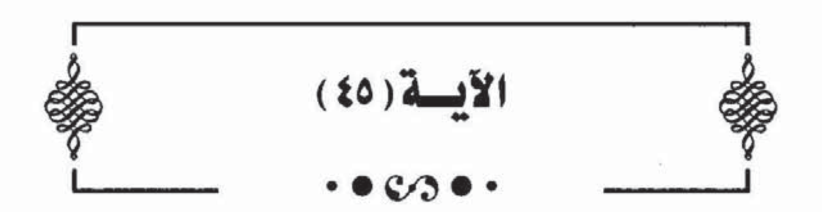
أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ليس في العرَب رَسولٌ إلَّا مُحمَّدٌ ﷺ، وهو كذلك، وما ذُكِر بعض المُؤرِّخين من أنه وُجِد في الجاهِلية رُسُل، منهم خالِدُ بن سِنانٍ فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، وأَخبرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه ليس بينه وبين عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسولٌ، وعلى هذا فإنه لم يُبعَثْ فيهم -أيْ: في العرب- رسولٌ إلَّا مُحمَّدٌ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ حقيقة الرِّسالة هي الإنذارُ، وكذلك البِشارة للمُخالِفين بالعُقوبة، والبِشارة هي للمُوفَّقين بالثواب والجزاء.

وفيها أيضًا -على المَعنَى الثاني-: أن هَؤلاءِ الذين كذَّبوا الرسول ﷺ ليس لدَيْهم مُستَنَد يَستَندون إليه في تَكذيبهم؛ لأنَّهم لم يَقرَؤُوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِبه، ولم يُبعَث إليهم رَسولٌ تَقتَضي رِسالته أنَّ مُحمَّدًا ﷺ كاذِب.

• • ۞ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥].

•••

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي: هَؤلاءِ ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: عُشرَهُ من القُوَّة، وطول العُمر، وكَثْرة المال، وهذا فيه تَسلِيَة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيه تَهديد للمُكذِّبين، ففيه مَعنَيان: التسليةُ والتَّهديدُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ وأَصحابِ الأَيْكةِ وكثير، وهَؤلاءِ المُكذِّبون السابِقون أَشَدُّ قوَّةً من هؤلاء وأكثَرُ أموالًا وأولادًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة:٦٩]، فالآياتُ في هذا تَدُلُّ على أنَّ الذين كذَّبوا الرُّسُل السابِقين كانوا أَعظَمَ من الذين كذَّبوا الرسول ﷺ في قوَّة الأَجْسام، وكَثْرة الأموال، وكَثْرة البَنين.

وهل أَغنَى ذلك عنهم شيئًا؟ لا لم يُغنِ عنهم شيئًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ [إِلَيْهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاكِ]، يَعنِي: أن هَؤلاءِ السَّابِقين كذَّبوا رُسُل الله تعالى فماذا حصَل؟

الجوابُ: حصَل عليهم إنكار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعذيب والإِهْلاك، لم يُقِرَّهم

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على تكذيبهم، بل أنكَر عليهم إنكارًا بالفِعْل، أَهلَكهم وأَبادَهم، وعلى هذا فيَكون الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتَّعْظيم والتَّفْخيم، أي: فما أَعظَمَ إِنْكارِي عليهم! لأَنَّه إنكارٌ أدَّى بهم إلى الهلاكِ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [أَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّحذيرُ لِمُكذِّب الرسولِ ﷺ؛ وجهُه: أنَّ الله تعالى أَخبَرَ أنه كذَّب السابِقون مع أنهم أَشَدُّ قوَّةً وأكثَرُ أموالًا وأولادًا من هؤلاء المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن كذَّب الرُّسُل فقد حَقَّت عليه كلِمةُ العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شرَفُ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّ الله تعالى أَضاف رِسالَتَهم إليه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ ومن المعلوم أنَّ مَرتَبة الرِّسالة أَعلَى مَراتِب البَشَر، فإن مَراتِب البَشَر أَرْبعة: النُّبوَّة المُتضَمِّنة للرِّسالة، والصِّدِّيقيَّة، والشُّهَداء، والصالِحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

فأَعلى المَراتِب النُّبوَّة، ثُم الصِّدِّيقيَّة، ثُم الشَّهادة، ثُم الصَّلاح.

خِلافًا للزَّنادِقة الذين يَقولون: إن الأَوْلياء أَفضَلُ من الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَفضَلُ من الرُّسُل.

ويَقول قائِلُهم:

مَقَــامُ النُّبُــوَّةِ فِي بَــرْزَخٍ فُوَيْــقَ الرَّسُــولِ وَدُونَ الْــوَلِي[(١)]

يَزعُمون -قَبَّحهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّ الأَوْلياء أفضَلُ من الرُّسُل -والعِياذُ بالله عَزَّوَجَلَّ- والأَنبِياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو كذلك عِنـدهم، لأن أَوْلياءَهم الطاغوتُ، والطاغوتُ يُمِلِي عليهم أنه أفضَلُ من الرُّسُل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث جعَل العُقوبة من جِنْس العمَل، فلَمَّا كان عمَلُ هَؤلاء عظيمًا وهو تكذيب رُسُل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان جَزاؤُهم عَظيمًا، يُتعَجَّب مِنه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: ما أَعظَمَه وما أَشَدَّهُ!.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإِنْكار يَكون بالفِعْل كما يَكون بالقَوْل، ووجهُ ذلك: أنَّ إنكار الله تعالى عليهم ليس بالقَوْل فقَطْ، بَلْ بالفِعْل والعُقوبة، فهذا إنكارٌ بالفِعْل، وهذا مَوْجود أيضًا في أعمالنا نحن، فعندما يُخالِفُك صَبِيُّك في أَمْر من الأمور أحيانًا تُوبِّخه، تَقول: لماذا تَفعَل هذا؟! أَلَمْ آمُرْكَ أن تَتْرُكه؟! وأَحيانًا إذا جِئْت ووَجَدْته قد فعَلها تَضرِبه، هذا الإِنكارُ يَكون بالفِعْل، فإنكارُ الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَوْل، ويَكون بالفِعْل، فعُقوبة المُجرِمين هي إنكارٌ بالفِعْل، وفي هذه الآيةِ وغيرِها من الآيات التي تُضيف الفِعْل إلى الفاعِل رَدٌّ على مَن؟ مِثْل ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾، ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وما أَشبَهَ ذلك؟ رَدٌّ على الجَبْرِيَّة الذين يَقولون: إنَّ فِعْل العَبْد مُجبَرٌ عليه، ليس له فيه اختِيار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: استِعْمال قياس الأَوْلى، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يَعنِي:

(١) قاله ابن عربي، انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢١).

إذا أَخذَ الله تعالى هؤلاءِ الأَقوياءَ الأَشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأَوْلادًا إذا أَخذهم الله تعالى بجُرْمهم هؤلاء الذين دُونهم من بابِ أَوْلى.

ولا شَكَّ أنَّ القِياس دليلٌ صحيحٌ، ثبَتَ اعتِبارُه بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ولكن القِياس نوعان: صحيحٌ وفاسِدٌ، فالفاسِدُ دلَّ الكِتابُ والسُّنَّة والعَقْل على عدَم اعتِباره، والصحيحُ دلَّ الكِتاب والسُّنَّة والعَقْل على اعتِباره.

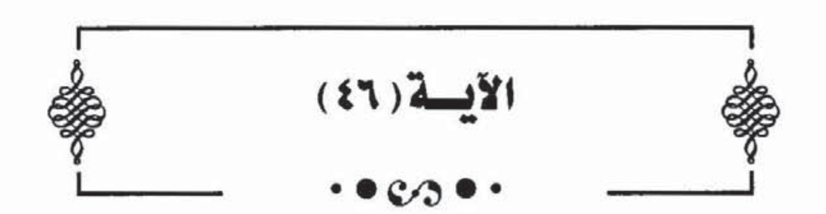
مثال الفاسِد: قولُ إبليسَ مُستَعْمِلًا قياسَ الأَوْلى لَمَّا أَمَرَه الله تعالى أن يَسجُد لآدَمَ قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦]، فكيف يَكون الأخيرُ عَبْدًا لَمِن دُونَه؟!.

ومثال قِياس المِثْليَّة: قولُهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، هذا قياس فاسِدٌ لأنَّه قِياسُ ما حرَّم الله تعالى على ما أَحلَّه الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن القِياس قد ثبَتَ اعتِباره بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ومَن أنكَرَه فقد أَنكَرَ ما يَدُلُّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، والذي يُنكَر منه هو القِياس الفاسِدُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ تَكذيب الرُّسُل هو تكذيبٌ لله تعالى، وهو الظاهِر؛ لأنَّه قال عَزَّوَجَلَّ أوَّلًا: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ولم يَذكُر المُكذَّب، ثُم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ فدَلَّ ذلك على أن تَكذيب الرُّسُل تَكذيبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وهو كذلك عند التَّأَمُّل؛ لأنَّ الرسول إذا جاءَك وقال: إنه رسول الله تعالى. وأَيَّده الله تعالى بالآيات، ثُم كذَّبْتَه، فقد كذَّبْتَ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الآياتِ التي يُعطيها الله تعالى الرسولَ ما هي إلَّا براهِينُ تَدُلُّ على صِدْقه، فكأنَّ المُكذِّب يَقول: إنَّ هذه الآياتِ كَذِبٌ؛ لأنه يُكذِّب الرسول الذي أَيَّدَتْه.

• • ❁ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

•••

انظُرْ إلى إنصاف الله عَزَّوَجَلَّ في مُخاطَبةِ الخَلْق!.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحَمَّدُ مُوجِّهًا الخِطاب إلى هؤلاءِ المُكذِّبين: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ الجُملةُ هذه فيها حَصْر وتَقديرُها: ما أَعِظُكم إلَّا بواحِدة، يَعنِي: ما أَدعوكم دُعاءَ واعِظٍ ناصِح لكم إلَّا إلى واحدة فقط، فـ(أَعِظُكم) هنا مُضمَّنة معنى (أَنصَحُكم)، يَعنِي: أنا أَدعُوكم ناصِحًا لكم وواعِظًا إلى هذه الخَصْلةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: هي [أَنْ تَقُومُوا لله] وعلى هذا فيَكون (أن تَقوموا) في مَوْضِع جَرٍّ عَطْفَ بيانٍ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ يَعنِي: أنه بيَّن هذه الواحِدةَ بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ إلى آخِره، و(أَن تَقوموا) هنا المُراد بها: أن تَثبُتوا على الشيء، وليس المُرادُ القِيامَ ضِدَّ القُعود، فهو كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧]، ليس المُراد أن تقوموا لليَتامى؛ يَعنِي: أن تَقِف له وُقوفًا، وهكذا ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المُرادُ أن تَقِفوا قِيامًا، بل أن تَثبتوا وتَنظُروا في الأَمْر.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [لِأَجْلِهِ] فاللَّام هنا للإِخْلاص، أي: أن تَقوموا مُخلِصين لله عَزَّوَجَلَّ، لا مُقلِّدين لآبائِكم ولا مُتعَصِّبين لآرائِكم، جَرِّدوا نِيَّاتِكم من كل شيء، إلَّا لله تعالى أن تَقوموا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْده؛ لا مُراعاةً لي، ولا مُراعاةً لآبائِكم، ولا لِحَمِيَّتكم، ولكن ﴿لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ]، وهل المُراد حَقيقةُ التَّثنِية؟ يَعنِي: أن يَقوموا على اثنَيْن اثنَيْن، أو المُرادُ مُجرَّد الزيادة على الواحِد؟ يَعنِي: أنه مَثنَى لا يُرادُ به حقيقة الاثنَيْن؟ بل المُرادُ أن تَقوموا لله تعالى مُجتَمِعين سَواءٌ كُنْتم اثنَيْن أم ثلاثةً أم أربعةً أم خمسةً أم عشرةً، هذا هو الظاهِر.

وقال بعضُ المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: المُرادُ بالمَثنَى هنا حَقيقةُ الاثنَيْن. وعلَّلوا ذلك بأن الناس إذا كثُروا اضْطَرَبَت آراؤُهم، وكَثُر الشِّجار بينهم، وفات المَقصودُ؛ لأنك الآنَ لو وضَعْت رأيًا بين عشَرةٍ كم يَأتِيك من رَأْيٍ؟

الجوابُ: عشَرة آراءٍ، وبين اثنَيْن؟ يَأتيك رَأْيـان، قالوا: فالاثنان أَقرَبُ إلى الحَصْر وأَقرَب إلى تَصوُّر المسألة ممَّا إذا كانوا أكثَرَ من اثنَيْن، ولكن قد يُقال: إن هذا حَقيقة.

لكن أحيانًا يَكون الثلاثة والأربعة أَسَدَّ رأيًا من الاثنَيْن فقَطْ، فتُحمَل الآية على أنَّ المُرادَ بالمَثنَى مُطلَق الجَمْع، سواءٌ كانوا اثنَيْن أو أكثَرَ، والمَثنَى قد يُراد به مُطلَق الجَمْع، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣-٤]، أي: كرَّةً بعد كرَّة، وليس المُرادُ حقيقةَ الاثنَيْن، وكقول الإنسان وهو يُلبِّي بالحجِّ أو العُمرة يَقول: لبَّيْك. يَعني: إجابةً لك بعد إجابةٍ.

وقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ المُرادُ بالقِيام: الثَّباتُ على هذا الأَمْرِ، تَقوموا ثابِتِين،

ثُم تَتَفَكَّروا في شأن هذا الرسولِ الذي جاءَكم من عند الله تعالى، وقال: إنه رَسولُ الله تعالى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ﴾ هذا القولُ هل هو مِنْ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ليُبطِل قولـهم؟ أو أنه ما يَتفكَّرون فيه، يَعنِي -كما قال الشارِح-: [فتَعْلَموا ما بصاحِبِكم من جِنَّة] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَشَى على أن: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو مَفعـولٌ لما يَقتَضِيه التَّفـكُّر، والقولُ الثاني: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي: في شَأْنكم، وفي حالِكم، ثم استَأْنَف فقال تعال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وهذا من كلام الله تعالى، وليس مَفعولًا لما يَقتَضيه التَّفكُّر وهو العِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِصَاحِبِكُمْ﴾ المُرادُ به مُحَمَّدٌ رسول الله ﷺ، لكنه عبَّر عنه بالصاحِب المُضـاف إليهـم زيادةً في التَّشنـيع عليهم والتَّوبيخ، كأنَّه يَقـول: هذا صاحِبكم الذي تَعرِفونه، ليس رجُلًا مُنكَرًا عليكم، بل هو صاحِبكم الذين تَعرِفون عَقْله وصِدْقه وأَمانَته، فكيف تَقولون: إنَّه ساحِر، وإنَّه مجنون، وإنه شاعِر، وإنه كاهِن، وما أَشبَهَ ذلك؟! ففيه إضافةٌ إليهم زيادةَ التَّشنيع عليهم، هذه واحِدة.

فيه أيضًا الإشارة إلى أنه كان يَنبَغي أن يَكونوا أَوَّلَ مَن يُصدِّق به، وأَوَّلَ مَن يُناصِره؛ لأنه صاحِبهم، وصاحِب الإنسانِ مُستَحِقٌّ للنَّصْر مِنه والمُساعَدة والمُعاوَنة، فكان في الإضافة هنا فائِدتانِ:

الفائِدةُ الأُولى: زيادةُ التَّشنيع عليهم في أنهم يَصِفون صاحِبهم الذي يَعرِفونه بهذا الوصفِ.

الفائدة الثانية: أنَّه كان أَوْلى بهم وهو صاحِبهم أن يَكونوا أَوَّلَ الناس تَصديقًا به، وأَشَدَّ الناس مَعونةً له.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ﴾ الجارُّ والمَجرور خبَرٌ مُقدَّم، و﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر قُرِنَت به (مِن) الزائِدةُ من حيث الإعراب المُفيدةُ لمَعنًى، فمِن حيثُ المعنى الفائِدةُ منها هي المُبالَغة، أو التَّأكيدُ في النَّفيِ؛ لأنَّ (مِنْ) إذا دخَلَت على المَنفِيِّ أَفادَت العُموم، وصارت نَصًّا فيه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جُنُونٍ] فالجِنَّة هنا بمَعنَى: الجُنون، ويُمكِن أن يَكون المُرادُ به الجِنَّ الذي إذا خالَط الإنسان جُنَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾: ﴿إِنْ﴾ سبَقَ لنا أنها تَأتِي في اللُّغة على أَربَعة أَوْجُهٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ بمَعنى [مَا] وهي نافِية، ﴿هُوَ﴾ مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي هو صاحِبكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ﴾ أي: قَبْلَ عذابٍ شديدٍ في الآخِرة إن عَصَيْتموه، يَعنِي: ما مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلَّا رجُلٌ من أَعقل الناس، ومن أَحَنِّ الناس على قومه؛ لأنه نَذيرٌ لكم، يُنذِركم من العَذاب الشديد القَريب لهم، عندما قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وبين يَدَيْ الشيءِ هو أن يَكون قريبًا منه، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه حالُه رجُل عاقِل ناصِح لقَوْمه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الذي يُنذِرُك من العذاب يُعتبَر مُحسِنًا إليك.

ولو أن رجُلًا جاء يَصيح: أيُّها الناسُ جاءَكمُ العَدوُّ، أيُّها الناس جاءَتْكم النارُ السعيرُ، أيُّها الناسُ جاءَكُمُ الماءُ الفَيَضانُ. نَصِفُ هذا الرجُلَ بأنه ناصِح وعاقِل، وحانٍ عليكم، يُحِبُّ لكمُ السلامة من الشُّرور.

فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالنِّسْبة لنا ما هو إلَّا نذيرٌ يُنذِرنا من العذاب الشديد القريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والشديد بمَعنى: القَويّ.

وهل المُراد عذابُ الآخِرة أو يَشمَل عذاب الآخِرة والدُّنيا؟

الصحيحُ: أنه يَشمل عذاب الآخِرة والدُّنيا؛ ولذلك عُذِّبَ المُكذِّبُون للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدُّنيا قبلَ الآخِرة.

فزُعماءُ قُرَيْشٍ وصَناديدُهم قُتِلوا في بَدْرٍ، وأُلْقُوا جِيَفًا مُنتِنة في قَليبٍ من قُرَى بَدْر، ومَن بَقِيَ منهم كان آخِرُ أَمْرهم أن دُخِلَت عليهم البَلَد من أَقطارها، وأُذِلُّوا حتى كان الواحِدُ لا يَأمَن إلَّا بتَأمين؛ «مَن دخَل دارَه وأَغلَق عَلَيْه بابَه فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَل المَسجِد فهو آمنٌ، ومَن دخَل دارَ أَبي سُفْيانَ فهُوَ آمِنٌ»[1]، ومَنْ لم يَكُنْ في هذا فلَيْسَ بآمِنٍ، وهذا من أَكبَرِ الذُّلِّ، أن تُستَحَلَّ بلَدُك ولا تَأمَن فيها إلَّا بتَأمين، هذا لا شَكَّ أنه ذُلٌّ وعارٌ.

وآخِرُ الأمر أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الذي مَنَّ عليهم وقال ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2]، وهذا بلا شَكٍّ أنه عَذاب في الدُّنيا، لكن إذا أَسلَموا كان مِثلُ هذا العَذابِ كافِيًا، ومَن أَبَى وكَفَر كان له العَذابُ الشديد في الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: دَعوةُ الإنسان المُعانِد للتَّأمُّل في الأَمْر والنَّظَر فيه، حتى لا يَتعَجَّل بالرَّدِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنبَغي لِمَن طلَب الحقَّ أن يَكون مُخلِصًا لله تعالى، بَعيدًا عن الهَوَى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

(١) أخرجه ابن راهويه في المسند (١/ ١٩٩ رقم ٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ التَّعاوُن في طلَب الوُصول إلى الحقِّ، مِن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسان قد لا يَصِل إلى الحقِّ إلَّا بمُساعَدة غيرِه؛ لقوله تعالى: ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فإنه إذا أَمكَن أن يَصِل إلى الحقِّ بنَفْسه فذاك، وإلَّا فاستَعان بغَيْرِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّفكير كما يَكون في الآيات الكَوْنية يَكون كذلك في الآيات الشرعية؛ لأنَّه هنا طُلِب منهم التَّفكُّر فيما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي الرسول نَفْسه أيضًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتِفاء الجُنون عن رسول الله ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ عُتُوِّ قريشٍ الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنه صاحِبُهم الذي يَعرِفونه، وكان الأَوْلى بهم أن يُصدِّقوه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أننا إذا أَرَدْنا استِكْشاف حال الشَّخْص فإننا نَسأَل مُصاحِبَه الذي يُصاحِبه ويُلازِمه؛ لأنَّه أَعلَم الناس به، وقد كان بعضُ السَّلَف رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذا أَراد أن يَسأَل عن حال شخص يَسأَل المَسؤُول ويَقولُ: هل سافَرْت معه؟ فإن قال: لا. تَرَك تَعديله له، وإن قال: نعَمْ. قَبِلَ تَعديلَه إيَّاه؛ لأن السفَر يُظهِر حقيقة الرجال، حتى قِيل: إنَّه إنما كان سفَرًا لا لأن الإنسان يُسفِر ويَبتَعِد عن البلَد، ويَخرُج إلى الفَضاء، ولكن لأنَّه يُسفِرُ عن أخلاق الرِّجال، ولا شَكَّ أن السفَر من أكبَرِ ما يَدُلُّ على خِصال الرَّجُل؛ لأنه في البلَد الناسُ كلهم له شَأْن يُغنِيه عن الآخَر، لكن في السفَر مَحَكٌّ للأَخْلاق الفاضِلة ومن عدَمها.

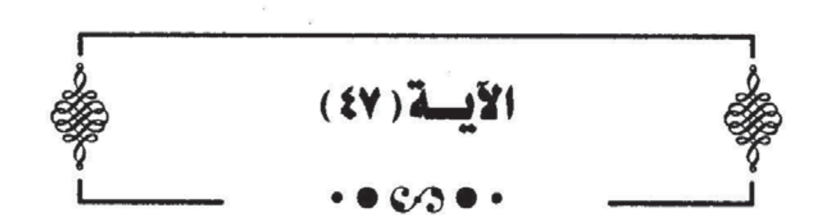
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنذِرٌ للناس من عذابٍ قريبٍ إذا خالَفوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: استِعْمال الأُسلوب المُناسِب للحال، وهذا مَعروف في عِلْم البلاغة: أن يَستَعمِل الإنسان ما يُوافِق مُقتَضى الحال، فهُنا ذَكَر الإنذار دون البِشارة؛ لأن المَقام مَقام تَخويف وإنذار؛ لأنه يُخاطِب المُكذِّبين، لكن عند وَصْف الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الوَصْف المُطلَق يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، فبَدَأ بالبِشارة قبل الإِنْذار، وهذا من حيث حال النبيِّ ﷺ المُطلَقة، أمَّا في المَقامات التي تَقتَضي ذِكْر الإنذار دون غيرِه فيَستَعمِل فيها الإنذارَ دون غيرِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الجَزاء وعُقوبة المُخالِفين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: استِعْمال الأَوْصاف التي تَستَلزِم المُوافَقة والمُتابَعة، من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ فأنت عندما تُخاطِب إنسانًا لا تَأْتِي له بالأَلْفاظ التي تُبعِده، بل الذي يَنبَغي أن تَأتِيَ له بالألفاظ التي تُدنِيه وتُقرِّبه؛ وتُؤَلِّف قلبه.

• • ❁ • •



الآية (٤٧)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ:٤٧].

•••

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [لَهُمْ] ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾: ﴿قُلْ﴾ الخِطاب معلومٌ أنه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه هو النَّذير لهؤلاءِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا﴾ يُحتَمَل أن تكون شَرْطية، يَعنِي: أيُّ أَجْرٍ أَسأَله منكم فهو لكم، ويُحتَمَل أن تكون اسمًا مَوْصولًا، كأَنْ يَقول: الذي سأَلْتُكم من الأجر فهو لكم. ويَكون اقتِران الفاء بالخَبَر؛ لأنَّ اسمَ الموصول يُشبِه الشَّرْط في العموم، فأُعطِيَ حُكْمه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم﴾ على الإنذار والتَّبليغ ﴿مِّنْ﴾ بيان لـ﴿مَا﴾، وليسَتْ زائِدةً؛ لأن ﴿مَا﴾ غيرُ نافِية.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ الأَجْر، هو ما يُعطَى في مُقابَلة عمَل أو استِيفاء نَفْع، في مُقابَلة عمَل كما لو استَأْجَرْت رجُلًا ليَعمَل لي عمَلًا، واستِيفاء نَفْع كما لو استَأْجَرْت منك بيتًا، فالأَجْر هو ما يُعطَى على عمَل أو استِيفاء مَنفَعة؛ لأن هذا العمَلَ الذي قُمْت به إن كُنْت سأَلْت عليه أجرًا وقُلت: تُعطوني مالًا أو أَعطوني كذا فهو لكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على فَرْض أن يَكون ذلك

مَوْجودًا، وإلَّا فإنه غير موجود، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، فالرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما سأَلَ من أَجْر، بل قال لهم: إن كُنْتُ سألْتكم أَجْرًا فهو لكم، لا تُعطُوني إيَّاه، قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: (إِنْ) بمَعنَى (مَا)، ومِن علامة (إن) النافية أن يَقَع بعدها (إِلَّا)، وذلك ليس بشَرْط.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي: ثَوابي على تَبليغي وعلى إِنْذاري، إلَّا على الله عَزَّوَجَلَّ وحده، ونِعْمَ المُثيبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن أَجْري على الله تعالى؛ فإنه سيَجـلِب الثَّواب العظيم؛ لأن عَطاء أَكرَم الأكرَمين سيَكون أعظَمَ العَطاء؛ ولهذا يَجزِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحسَنَة بعَشْر أمثالها إلى سَبْعِ مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

ثُم الداعِي إلى الله عَزَّوَجَلَّ يُؤجَر على دَعْوته سواءٌ قُبِلَت أم رُفِضت، ويُؤجَر أيضًا على ما يَناله عليه من أذًى، سَواءٌ كان الأذى قَوْليًّا أو فِعْليًّا، وسَواءٌ كان يَعود الأذى إلى رَدِّ ما جاء به، أو يَعود الأذى إلى اتِّهام هذا الإنسانِ بما يَشدَخ كرامَته.

وكلُّ هذا قد وقَعَ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أُوذِيَ على دَعْوته وأُوذِيَ في ما يَخدِش كرامته ونزاهته، فأصحابُ الإِفْك لَمَّا رمَوْا عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ما رَمَوْا عائشة لأنها عائِشةُ، رمَوْها لأنها زوجُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوذِيَ في عِرْضه وأُوذِيَ في بدَنه، وأُوذِيَ في مَهمَّته التي جاء من أَجْلها، فأَجرُه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واعلَمْ أنك كلَّما أُوذِيتَ في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أَجْرٍ لك من جِهة، وزيادةُ قوَّةٍ لدَعْوتك من جِهة أُخرى؛ لأن الإنسان إذا أُوذِيَ على شيء لا بُدَّ أن يَجِد مَن يَتعاطَف معه كما تَقتَضِيه سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ، حتى الذين يَتكلَّمون بالباطِل إذا أُوذوا على باطِلهم وجَدوا مَن يَتَعاطَف معهم، فكيف مَن يَتكلَّم بالحقِّ.

ولهذا أنا أَدعو نَفْسي وإيَّاكم أن يَكون عِلْمنا مُنْسابًا إلى غيرنا، بمعنى أن نَنشُر العِلْم وأن نَدعوَ الناس إليه، صحيح أن حُضورنا إلى مَجلِس العِلْم وتَعلُّمَنا لا شَكَّ أن فيه فائِدةً عظيمةً، وأنه مَجلِس من مَجالِس الذِّكْر، لكن يَنبَغي أن نَنشُر هذا العِلْمَ، وأنَّ نَدعوَ الناس إليه بقَدْر المُستَطاع.

وأمَّا أن نَبقَى كنُسَخ من كُتُب، الفائِدة لا تَعدو صُدورَنا، فهذا لا شَكَّ أنه ضعيف، ولا يَليق بطالِب العِلْم، وعلينا أن نَعرِف ما جرَى لأئِمَّة المسلمين وعُلَماء المسلمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ من الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولَسْت بذلك أُريد أن تُكرِّسوا جُهودكم كُلَّها للدعوة، لأن الدعوة بلا عِلْم ضررُها أكثَرُ من نَفْعها، كما يُوجِد من بعض الإِخْوة الحَريصين على الخير تَجِدهم يُضيِّعون أوقاتَهم في الزيارات إلى فُلان وإلى فُلان، وفي الخُروج، حتى إن العِلْم عندهم ليس بشيء، بل تَجِدهم يَكرَهون العِلْم والتَّعمُّق فيه، ويُريدون أن تَكون دَعوَتُهم دعوةً سَطْحيَّة مُهلهَلة، أيُّ إنسان يَأتيهم يَقِفون!.

وأنا أُريد منكم أن تَكونوا عُلَماءَ ربَّانين، دُعاةً إلى الخير مهما استطَعْتم، ويَكون أَجْركم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الإنسان مَسؤُول عن عِلْمه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أَعطاك العِلْم إلَّا بميثاقٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، يَعنِي: مُطَّلِع عليه، ومنه حالي معكم، فهو مُطَّلِع عليه، مُطَّلِع على أني بلَّغْتُكم وأَنذَرْتُكم، ومُطَّلِعٌ على أنَّكم كذَّبْتُموني وخالَفْتُموني، فأَجْري على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعُقوبتكم على الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢١-٢٦].

وهل الله عَزَّوَجَلَّ شهيد على ما في نَفْس الإنسان؟

الجوابُ: نعَمْ، شهيدٌ حتى على ما لا يَطَّلِع عليه أحَدٌ، فالله تعالى شهيد عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النبيَّ ﷺ لم يَطلُب من أحَد أَجْرًا على تَبليغ الرِّسالة وإنذار الناس، من قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنزُّل مع الخَصْم، أي: على فَرْض أني سأَلْت فهو لكم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريم أَخْـذ الأَجْر على إبلاغ العِلْـم الشَّرْعيِّ؛ ووجهُه: أنه مُخالِف لهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن تَبليغ الشرع واجِبٌ على الإنسان، والواجِب لا يَجوز أن يَتَّخِذ الإنسان عليه أَجْرًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تَعليم القُرآن؟

فالجوابُ: أن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختَلَفوا في ذلك على قولين لاختِلاف ظواهِر النُّصوص؛ فمِنهـم مَن قال: إنه جائِز؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»(١)؛ ولأنَّ هذا الرجُلَ لا يَأخُذ أَجْرًا على قِراءة القُرآن، ولو أَخَـذ أَجْرًا على قِراءة القُـرآن قُلْنا: هذا حرام. لكنه أَخَذ أَجْرًا على التعليـم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّعَب وتَلقين هذا الرجُلِ؛ ولذلك لو كانت المسألة واجِبةً عليه؛ بمَعنَى: لو كان يَجِب عليه أن يُعلِّم هذا الرجُلَ لكان أَخْذُ الأَجْر عليه حرامًا.

الوجه الثالث: أن النبيَّ ﷺ جعَلَه عِوَضًا في النِّكاح فقال: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وعِوَض النِّكاح أَجْر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤]، فلمَّا جعَله النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِوَضًا في النِّكاح دلَّ ذلك على جواز أَخْذ العِوَض على تعليمه؛ ولأنَّ النبيَّ ﷺ أجاز أَخْذ قَطيع الغنَم في قِصَّة الجماعة الذين قرَؤُوا على سيِّد القوم الذي لُدِغ، وأَخَذوا عليه قطيعًا من الغَنَم فأَجازَهم النبيُّ ﷺ بذلك، لا لأنهم قرَؤُوا القُرآن، ولكن لأنهم عالَجوا هذا اللَّديغَ.

وهذا هو الصحيح، أي: أنَّه يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تعليم القرآن، لكن إن كان تعليمُ القُرآن واجِبًا، كما في صَدْر الإسلام فإن أَخْذ الأُجرة عليه حرام.

وهل يَجوز -على القول بأن أَخْذ الأُجْرة حرام- أَخْذ رَزْق من بيت المال لُمعلِّم القُرآن؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ هذا ليس بأُجْرة؛ ولذلك جاز للمُؤذِّن والإمامِ أن يَأْخُذ من بيت المال ما يَستَعين به على أَذانه وعلى إمامته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إخلاصُ النبـيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تَبليغه ودَعْـوته؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه واضِحٌ أنه إنما يُريد الأَجْر من الله تعالى، وهذا هو الإخلاصُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن، رقم (٥٠٢٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، رقم (١٤٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

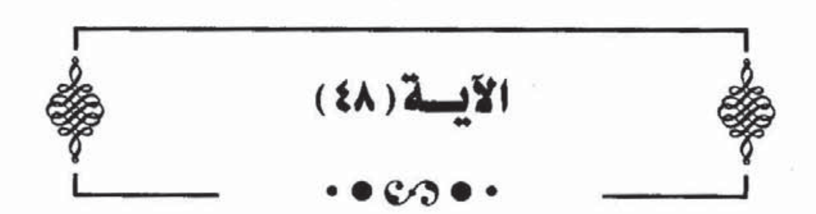
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: طُموحُ الرسول ﷺ وعُلُوُّ هِمَّته، حيث اختار الأَجْر الأَوْفى على الأَجْر الأَدْنى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تهديد الخَصْم بما تَقتَضيه أسماءُ الله تعالى وصفاتُه؛ لقوله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإن في ذلك تَهديدًا لهم، يَعنِي: فسيَشهَد على تكذيبكم وعلى تَبليغه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الاستِشْهاد بإقرار الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الإنسانَ على صِدْق ما قال، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ويُؤيِّد ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ: شهادة الله تعالى لرسوله بأن ما جاءَه حَقٌّ تَشمَل الشهادة القَوْلية والشهادة الفِعْلية، وهي إقرارُه على ما دعا إليه الناسَ، وعلى استِباحة أموالهم ودِمائِهم وأهلِهم إذا لم يَستَجيبوا له.

• • ۞ • •



الآية (٤٨)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ:٤٨].

•••

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يُلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ هذه جُمْلة خبَرِيَّة مُؤكَّدة بـ(إِنَّ) واسم (إِنَّ) ﴿رَبِّي﴾ وخَبَرُها جُملةُ ﴿يَقْذِفُ﴾، و﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ خبرٌ ثانٍ؛ يَعني: هو أيضًا علَّام الغُيوب.

وقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ﴾ القَذْف هو الرَّميُ بقُوَّة.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالقَوْل الحقِّ، وهو الوحيُ الذي أَنزله الله تعالى على أنبيائِه، وظاهِرُ كلام المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ القَذْف هنا لازِم لا يَتعدَّى الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنَّ المُراد به الوحيُ المُنزَّل على الرُّسُل، ولكنَّ قولَ المُفسِّر فيه نظَرٌ، والصوابُ: أنَّ هذه الآية تُفسِّرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، وأنَّ مَعنَى الآية ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ على الباطِل، وهو إشارة إلى أن حَقَّه سوف يَمحو باطِلَه ويُزهِقه ويُهلِكه، بدليل قوله فيما بعدُ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿عَلَّامُ﴾ بصيغة المُبالَغة؛ لأنَّ الغُيوب كثيرة، فناسَب أن يُضاف

إليها العِلْم على سبيل المُبالَغة، كما أن فيه مُبالغةً أيضًا من حيث الكيفية، لا من حيث الكِمِّية فقطْ، فإنَّ عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للغُيوب ليس عِلْمًا سطحِيًّا، بل هو عِلْمٌ عميق يَصِل إلى أخفَى شيء من الغُيوب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعُ غَيبٍ، وهو ما غاب عن الإنسان، سَواءٌ كان في الحاضِر أو الماضي أو المُستقْبَل، أمَّا المُستَقبَل فظاهِر، فإنه لا أحَدَ يُمكِنه أن يَعلَم الغيب في المُستَقبَل، بل مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستَقبَل فهو كافِر؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. فيَكون مُدَّعِي الغيب في المُستَقبَل مُكذِّبًا للقُرآن، وتَكذيب القُرآن كُفْرٌ.

أمَّا الحاضِر والماضي فهو في الحقيقة غَيْبٌ نِسْبِيٌّ بحيث يَكون غَيْبًا عَنِّي وليس بغَيْب عمَّن شاهِده، فلو أن حادِثةً وقعَتْ في بلدٍ ما وأنا لست في هذا البَلدِ فهي بالنِّسبة إليَّ غَيْب وبالنِّسبة لَمن شاهَدها ليست بغَيْب.

فَإِذَن: المُستَقْبَل غيبٌ مُطلَقٌ، والحاضِر والماضي غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَظهَر لَمن رآه ولا يَظهَر لَمن لم يَرَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

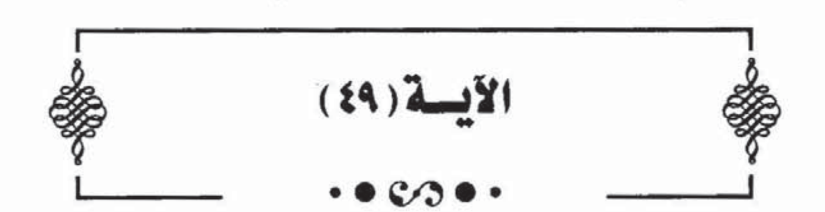
الْفَائِدَة الأُولَى: فضيلة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذلك بإضافة رُبوبية الله تعالى إليه، وهذه الرُّبوبيةُ خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيث يَرمِي بالحَقِّ على الباطِل على وجه القولة؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَرمِي به بقُوَّة وشِدَّة، على الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلُوُّ عِلْمِ الله تعالى فيما شُوهِد وما غاب؛ فما غاب لقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وأمَّا ما شُوهِد فهو من بابِ أَوْلى، يَعنِي: إذا كان يَعلَم الغَيْبَ فالمَشهود من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أن ما جاء به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٤٩)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْإِسْلَامُ]، والإسلام لا شَكَّ أنَّه دِين الحقِّ؛ وأنه سيَعلو على جميع الأديان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمَّمَ، وقال: جاءَ الحقُّ. أي: كلُّ ما أَخبرَ به الرسول ﷺ وما جاء به مِن أحكامٍ فهو حَقٌّ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ] هذه الجُملةُ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أو (ما يُبدِئُ فُلانٌ وما يُعيدُ) أُسلوب من أساليب العرَب، كِناية عن هَلاك هذا الشيءِ، وعدَم وُجوده؛ لأنَّ الذي لا يُبدِئ يَعنِي: لا يَأتي بالشيء ابتِداءً، ولا يُعيد ما صنَعَه أوَّلًا هذا غيرُ مَوْجود في الواقِع، ما له حِراك، فهو مَوجودٌ كالهالِك.

والمَعنَى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ما يَتبيَّن ابتِداءً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ ما يَتبيَّن إعادةً، فهو إذَنْ هالِك لا أثَرَ له، لا ابتِداءً، ولا إعادةً، فإذا كان الحقُّ قد جاء، والباطِل ما يُبدِئ ولا يُعيد، فمَعناها أن الدَّوْلة ستكون للحَقِّ لما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإن كذَّبوه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إن كان في الأَخْبار فهو الكذِب، وإن كان في الأَحْكام

فهو الجَوْر والظُّلْم، وكلُّ ما خالَفَ حُكْم الله تعالى فهو جَوْر وظُلْم، وإن زعَم أهله أنهم عادِلون فيه فهُمْ كاذِبون.

فالقَوانينُ الوَضْعية المُخالِفة لشريعة الله تعالى نَقول: إنها باطِل. ونَقول: إنها ظُلْم وجَوْر.

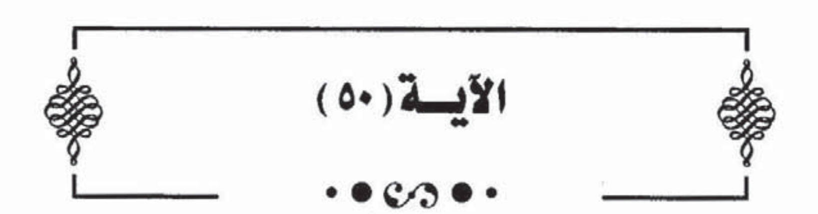
وأمَّا ما وافَقَ الشَّرْع فإنه وإن سُمِّيَ قانونًا أو نِظامًا فهو شَرْع، يَعنِي: لو أن أحَدًا صنَع مَوادَّ مُعينة في الحُكْم، لكنها مَأخوذة من الكِتاب والسُّنَّة لا نَقول: إن هذه قوانينُ وَضْعيَّة أو نُظُم وَضْعيَّة. بل نَقول: هي أَحكام شَرْعية، لكنها رُتِّبت على موادَّ، كما إنَّ الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ رتَّبوا الفِقْه على أبواب، فالخِلاف في كيفية العَرْض وإلَّا فهو حَقٌّ.

أمَّا أن نُقنِّن الشريعة بأن نُدخِل عليها أحكامًا تُخالِف أَحكامَها فهذا كُفْر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، فأمَّا تَقنينها بمَعنَى: تَبويبها وجَعْلها مَوادَّ مُعينة فهذا لا بَأسَ به، بشَرْط أَلَّا يَكون الحُكْم لازِمًا بهذه المَوادِّ، لأنَّ إلزامَ القُضاة مثَلًا أو الحُكَّام بأن يَحكُموا بهذه المَوادِّ مَعناه أنهم يُلزَمون بأن يَحكُموا بما يَعتَقِدون أنَّ الحقَّ في خِلافه؛ لأنَّ الناس يَختَلِفون في مِثْل هذه، فقد تَرَى اللِّجَان مثلًا أنَّ الحُكْم في هذا هو كذا وكذا، ويَرَى القاضِي أن الحُكْم خلاف ذلك، فوَضْعها على أنها مُوضِّحة أو كاشِفة أو دالَّة، هذا لا بأسَ به بلا شِكٍّ، ولكن وَضْعها على أنها مُلزِمة هذا لا يَجوز لأنَّ الناس يَختَلِفون في الاجتهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

تَهديد هؤلاءِ المُكذِّبين بأنَّ باطِلهم سوف يُقضَى عليه بطريق الإسلام الحقِّ، سيُقضِي على باطِلهم، ويُؤيِّده قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]، والحقُّ ما بُعث بِه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن شَريعة الإسلامِ، وقـولُه: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ يَعنِـي: أن الباطل سَيَضْمَحِلُّ، فـلا يبقى له ظهور لا ابتداء ولا إعادة؛ والباطِل: كلُّ ما خالَف الحقَّ فهو باطِل.

• • ۞ • •



الآية (٥٠)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠].

• • • •

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عَنِ الحَقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أَيْ: إِثْمُ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿قَرِيبٌ﴾].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان أَهدَى الناس.

وهذا كقول الرجُل المُؤمِن من آل فِرعونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] مع أن المُؤمِن هذا يُؤمِن بأنه صادِق، لكن هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم؛ لإلزامه بقول الحَقِّ.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، ومَعلومٌ أن الإنسان لا يُريد أن يَتَمادَى في إضلال نَفْسه، ومِثْلُ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا ضَلَّ لا يَكون ضلالُه عليه وحدَهُ، بل عَليه وعلى مَنِ اتَّبَعه؛ ولهذا كان ضَلال العالِم أو زَلَّة العالِم من أَعظَم ما يُفسِد الناس، فزَلَّة العالِم ليسَتْ بهيِّنةٍ؛ لأنه قُدوة وتَتْبعه أُمَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وليس عليكم بذلك من شيء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ لم يَقُل: فإن ذلك من نَفْسي، بل وكَلَه أو أضافه إلى ما جاء به الوحيُ النازِلُ من عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ والباء للسَّببية و﴿مَا﴾ إمَّا أن تكون مَصدَرية، وإمَّا أن تَكون مَوْصولةً إن كانت مَوْصولة فإن عائِدها مَحذوف، تَقديرُه: فبما يُوحيه إليَّ ربِّي، وإن كانت مَصدَريَّة فلا تَحتاج إلى عائِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الوَحيُ في اللُّغة: هو الإعلام بخَفاءٍ وسُرعة، سواءٌ كان ذلك إعلامًا بالهَمْس أو الإشارة بالعَيْن أو الإشارة باليَدِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] وما يَتكلَّم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]، إِذَنْ أَوْحَى إليه بمَعْنى: أَشار إليه.

أمَّا في الشَّرْع: فهو إعلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَحدًا من خَلْقه بشَرْعٍ يُؤمَر بتَبليغه أو لا يُؤمَر، فإن أُمِر بتَبليغه فهو رَسول، وإن لم يُؤمَر فهو نبيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فالإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة ﴿رَبِّىٓ﴾؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبُّه وربُّ غيرِه، لكنَّ الإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة، تُفيد العِناية واللُّطف، لأنَّ من أكبَرِ نِعَم الله على العَبْد أن يُوحَى إليه بالرِّسالة حتى يَنال المَرتَبة العُليا من بني آدَمَ.

كذلك من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد أن يُلهِمه هذه الرِّسالةَ للتَّعلُّم؛ ولهذا كان العُلَماء هُمْ ورَثةَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فهي من أَفضَل النِّعَم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فأَضاف الرُّبوبيـة إلى نَفْسـه؛ لأنَّ هذه الربوبيـةَ خاصَّة،

تَقتَضي العِناية والتَّأييد والرحمة واللُّطف.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِلدُّعَاءِ]، والصواب: أنَّ الآية هنا عامَّةٌ، فهو سميعٌ لكُلِّ شيء، وليس للدُّعاء فقَطْ، بل سميعٌ لما أقول لكم، وسَميع لما تَقولون لي، وسَميع لدُعائي أيضًا بمَعنى: مُجيب.

وقد سَبَق لنا أنَّ السَّمْع المُضاف إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينقَسِم إلى قِسْمين: سَمْعٌ بمَعنَى: إدراك المَسموع، وسَمْعٌ بمَعنَى: إجابةِ المَسموع، أو إجابة السائِل.

والسَّمْع الذي بمَعنَى: إجابة المَسموع تارةً يُراد به التهديدُ، وتارةً يُراد به التأييدُ، وتارةً يُراد به بيانُ الإِحاطة، أي: إحاطة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكلِّ مَسموع، فهذه ثلاثة أشياءَ:

تارة يُراد به التهديدُ؛ مثاله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

وتارةً يُراد به التَّأييدُ؛ مِثاله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وتارةً يُراد به بَيان الإحاطة؛ مِثال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وأمَّا السَّمْع الذي بمَعنَى الإجابة فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقول المُصلِّي: سَمِعَ الله لمَنْ حَمِدَهُ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَرِيبٌ﴾ اسْمُ فاعِل أو صِفةٌ مُشبَّهة، والضميرُ المُستَتِر فيها يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ فِعْلٍ أو وَصْف يَكون عائِدًا إلى الله تعالى فالمُراد به

ذات الله تعالى، هذه القاعِدة ذكَرها ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في مُختَصَر (الصواعِق)- يَقول: كلُّ فِعْلٍ أو وَصْفٍ تَحمَّل ضَميرًا يَعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ فالمُراد به ذاتُ الله تعالى[1]. لكن يَجِب أن يَكون في ذِهْنك تَنزُّه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به، فيَكون القُرْب هنا قُرْبَ رحمته، أو قُرْب عِلْمه، أو قُرْب سَمْعه أو بَصَره، أو قُرْب ذاته.

قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ هو أي: ذاتُه؛ ولهذا صرَّح ابن القَيِّم[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه قريب بذاته، لكن يَجِب أن تَعلَم أنه مع قُرْبه بذاته فهو مُستَوٍ على عَرْشه، حتى قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[3]، يَقوله وهُمْ راكِبون على رَواحِلهم، ولكن مع هذا يَجِب أن نُنَزِّهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا لا يَليق به، بحيث نَتوهَّم أنه معَنا في المكان، هذا لا يُمكِن، بل هو قريبٌ بذاته مع عُلوِّه.

وقد ذكر هذا شَيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العَقيدة الواسِطية)[4] قال: «هو عَليٌّ في دُنُوِّه، قريب في عُلُوِّه»، ولا تَظُنَّ أن الجَمْع بين القُرْب والعُلُوِّ فوقَ السمَوات مُتَناقِض:

أوَّلًا: لأنَّ الله تعالى جَمَع بينهما لنفسه، ودَلَّ عليهما كِتاب الله تعالى، وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَدُلَّ على المُتناقِض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) مختصر الصواعق (ص:٤٤٥).

(٢) مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤/ ٤٦)، من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) العقيدة الواسطية (ص:٨٥)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٤٣).

ثانيًا: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس كمِثْله شيءٌ، يَعنِي: لو فُرِض أن بَيْن القُرْب والعُلُوِّ تَناقُضًا في حقِّ المَخلوق فإن ذلك لا يَلزَم في حَقِّ الخالِق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمِثْله شيء.

ولهذا نَقول: إنَّ الله تعالى يَنزِل إلى السماء الدُّنيا كلَّ ليلة، وهو مع ذلك مُستَوٍ على عَرْشه، لا تَقل: هذا مُحال، تَقول: هذا مُحال بالنِّسبة للمَخلوق. أمَّا بالنِّسبة للخالِق فيَجِب أن نُؤمِن بما أُخبِرنا به عن صِفاته وهو الاستِواء على العَرْش ونُزوله إلى السماء الدُّنيا، ونَقول: إنَّ هذا مُمكِن في حقِّ الخالِق.

ثالثًا: ممَّا نَجمَع فيه بين القُرْب والعُلُوِّ أنه قد يَكون الشيءُ عاليًا وهو قريب -حتى من المَخلوقات- مِثل القَمَر، فهو عالٍ لكنه قريب كأنه معَك، كأنه في المكان الذي أَنت فيه وَضوؤُه واصِلٌ إلى الأرض وهو في السماء، قال الشاعِر[1]:

دَانٍ عَلَى أَيْدِي الْعُفَاةِ وَشَاسِعٍ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ ... لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

المهمُّ: أن إذا أَضاف الشيء إلى نَفْسه سَواءٌ كان فِعْلًا أو وَصْفًا فإنه لا يَجوز لنا العُدول عن تَحويل هذا الشيءِ المُضاف إلى الله إلى شيءٍ آخَرَ؛ لأننا إذا سلَكْنا ذلك احتَجَّ علينا أهلُ التأويل من المُعتَزِلة والأشاعِرة وقالوا: كيف تُؤوِّلون هذه الآيَةَ وتُنكِرون علينا التَّأويل في آياتٍ أُخرى أو في نُصوصٍ أُخرى؟! فإذا قُلتَ لهم: إنَّ هذا يَمنَعه العَقْل. قالوا: ونحن نَرَى أن ظواهِر الآيات أو الأحاديث يَمنَعها العَقْلُ!.

---

(١) البيتان للبحتري؛ ديوانه (٢/ ٢٤٨-٢٤٩).

لكن إذا أُبقِيَتِ النُّصوص على ما هي عليه على ظاهِرِ دَلالتها مع تَنزيه الله تعالى عمَّا لا يَليق به سَلِمتَ في دِينك، وسلِمتَ أمام الله عَزَّوَجَلَّ حين يَسألُك يوم القيامة: كيف تَصرَّفت في كلامي؟ وكيف أَخرَجْته عن ظاهِره؟ وسلَمْت أيضًا من مُعارَضة أهل التَّأوِيل.

وقد سبَق لنا في (تلخيص الحَمَويَّة)[1] أنَّ الفَلاسِفة الذين يُنكِرون المَعاد، بل ويُنكِرون كلَّ شيءٍ، احتَجُّوا على المُعتَزِلة وأهل التَّعطيل، وقالوا: كيف تُجوِّزون التأويل في آيات الصِّفات وأَحاديثها ولا تُجوِّزون التَّأويلَ في نُصوص المعاد، إذا أَوَّلْتُم في هذا فأَوِّلوا في هذا، وإلَّا فقَدْ ظهَر تَناقُضُكم؛ وسبَق لنا إجابةُ المُعتَزِلة للفلاسِفة، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إننا قد علِمنا بالاضْطِرار أنَّ الرُّسُل جاءَت لإثبات المَعاد، وعلِمْنا أن الشُّبْهة المانِعة منه فاسِدة، ووجَب القول بثُبوته.

وهذه من أهم المَسائِل لطالِب العِلْم في عِلْم التوحيد.

وذكَرْنا أن هذه الحُجَّةَ التي دافَع بها المُعتَزِلة اعتِراضَ الفلاسِفة احتَجَّ بها أهلُ السُّنَّة على المُعتَزِلة، وقالوا: قد علِمْنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الصِّفات لله تعالى، وعلِمْنا فَساد الشُّبْهة المانِعة منه فوجَبَ القول بثُبوته، وأنَّ طَرْد القاعِدة في هذا وهذا هو الذي فيه السَّلامة، أمَّا أن نَتَناقَض ونُؤَوِّل في شيء ونُبقِي النُّصوص على ظاهِرها في شيء فإنَّ هذا وهمٌ وضَعْفٌ في الطريقة.

فالمُهِمُّ: أنَّ (القريب) هنا لا نَقول: قَريب في عِلْمه، أو قَريب في رَحْمته، أو قريب في سَمْعه، أو ما أَشبَه ذلك، فنَخُصُّصها بشيءٍ؛ لأنك إذا قُلْت: قريب في رَحْمته أو سَمْعه أو بصَره أو عِلْمه أو ما أَشبَهَ ذلك خصَّصْته، فإذا قلتَ: قريب بذاته. شمِل

(١) انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص: ٨٤ وما بعدها).

كلَّ ما تقتَضيه هذه الذاتُ من الصِّفات، فكان أعَمَّ.

وقد صرَّح شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح حديث النُّزول)(١) بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ بنَفْسه، وتلميذُه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنه قريب بذاته(٢). ولكن مع ذلك يَجِب علينا أنَّ نَعلَم عِلْم اليَقين بأنه قريبٌ، ولكنه في السماء على عَرْشه، وهذا لا تَناقُضَ فيه، وقد سبَق الجواب على ما يُوهِم أنَّه مُتَناقِض، وأنَّ الجواب عليه من ثلاثة أَوْجُهٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحدٍّ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّه لو كان ضالًّا لظَهَر أَثَرُ ضَلاله على نفسه، ولأَهلَكَه الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يُمكِّنه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، فلو كان ضالًّا فما جاء به لكان ضلالُه على نَفْسه، ولتبيَّن أَمْرُه.

ولعلَّكم بلَغكم ما أَنزَل الله تعالى بالمُكذِّبين الذين ادَّعَوُا الرسالة فأَهلَكهم الله تعالى، مِثل مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب والأَسودِ العَنْسي وغيرِهم، كلُّهم أَظهَر الله تعالى ضلالَهم وكذِبهم، وممَّا ذُكِر من آيات مُسَيلِمةَ يُقال: إن مُسَيْلِمَةَ ادَّعى أنه رَسولٌ، وأن بِئْرًا من آبار قومه غارَ ماؤُها، ولم يَبقَ إلَّا قليلٌ، فجاؤُوا إليه يَشكون هذا الأَمْرَ، فأَراد أن يَقتَدِيَ بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأَخذ منها ماءً وأَدخَلَه في فَمِه ثُم مَجَّه في الماء، فجعَل يَنتَظِر فَيضانَ الماء حتى يَصِل إلى ظاهِر القَليب، لكنَّ الماء الذي

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٠).

(٢) انظر: مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

تبَقَّى فيها غارَ جِدًّا[١]، فهذه آيةُ كَذِبه! وجِيء إليه بصَبِيٍّ أَصلَعَ، يَعنِي: ما عليه شَعْر إلَّا شعرًا قليلًا، فجاؤُوا إليه؛ ليَمسَح رأسَه فيَظهَر له شَعْر كثير، فلَمَّا مسَح رَأْسه تَساقَط الشعر الموجود[٢]، فكأَنَّ هذا آيةٌ على كذِبه!.

فالله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته لا يُمكِن أبدًا أن يُمكِّن لكاذِب مَهما كان، حتى الكاذِب بعد الرسول ﷺ لو كذَبَ فيما يَدعو الناسَ إليه، وكان يَدعو الناسَ إلى الحقِّ رِياءً وسُمْعة فلا بُدَّ أن يُظهِر الله تعالى أَمْره إلى الناس، قال الشاعِر[٣]:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: سيَتبَيَّن أمري وضلالي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاعتِراف لله عَزَّوَجَلَّ بالجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَنسُب الخَطَأَ إلى نفسه، ويَنسُب الصواب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه بنِعْمته، ونحن إذا أَصَبْنا هل نَقول: فبما يُوحِي إلينا ربُّنا؟ أو فبِما أَوحاه ربُّنا إلى نبيِّه؟

الجوابُ: إذا أَصَبْنا فإن الواجِب أن نُضيف النِّعْمة إلى مُسْديها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ لا نَفتَخِر ونَجعَلها من ذات أَنفُسِنا، أمَّا الضلال فإنَّه على أَنفُسنا؛ لأننا نحن سببُه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٥).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:١٧٨)، وشرح المعلقات السبع للزوزني (ص:١٥١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ النبيَّ ﷺ رسولٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّظَر في الوحيِ القُرآنِ والسُّنَّةِ سببٌ في الهِداية؛ لأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ سببيَّة، وإذا كان ذلك سببًا للهِداية كان من العَقْل والبصيرة أن نَنظُر في وَحْيِ الله تعالى وشَرْعه، وألَّا نَطلُب الصواب من غيرِهما، لا نَطلُب الصواب ممَّا قال فُلان وقال فُلان، ولكن ممَّا قال الله تعالى ورسوله ﷺ؛ ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في نُونيته(١):

الْعِلْـمُ قَـالَ الله قَـالَ رَسُـولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُـو الْعِرْفَـانِ
مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَيْنَ الرَّسُـولِ وَبَيْنَ رَأْيِ فُـلَانِ

وقال في مَوضِعٍ آخَرَ(٢):

الْعِلْـمُ مَعْرِفَـةُ الـهُدَى بِدَلِيلِـهِ ... مَـا ذَاكَ وَالتَّقْلِيـدُ يَسْـتَوِيَانِ

المُهِمُّ: أن الهِداية لها سبَب وهي النَّظَر فيما أَوْحاه الله تعالى إلى نَبيِّه ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ وأنها مُؤثِّرة بإذن الله تعالى، ففي ذلك الرَّدُّ على الأشاعِرة الذين يَقولون: إنَّ الأسباب لا تُؤثِّر بنفسها، حتى إنهم يَقولون: إن الورَقَ إذا احترَق بالنار فإنه لم يَحترِق بالنار، لكنه احترَق عند النارِ، لا بِها! وإذا ضَرَبت الزُّجاجة بالحجَرَ فانكَسَرت قالوا: لم تَنكَسِر بالحَجَر، لكن انكَسَرت عنده!.

---

(١) النونية (ص:٢٢٦).
(٢) النونية (ص:٩٩).

وسبب قولِهم هذا أنَّهم قالوا: لأنك لو أَثبَتَّ أنَّ للسبَب أثَرًا ذاتِيًّا لأَشْرَكْت بالله العظيم؛ لأَنَّه لا شيءَ يُؤثِّر بنَفْسه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن أَثبَتَّ أنَّ الحَصاة تَكسِر الزُّجاجة، هي نَفْسُها تَكسِر الزجاجة فهذا شِركٌ بالله تعالى، مَعناه: أنك جعَلْت هذه تُؤثِّر، ولو أن رجُلًا أُتِيَ بلَحْم فجعَل يَحُزُّ بالسِّكِّين ويَقطَع يقول: فقَطْعه بالسِّكين عند السِّكين لا بها. انظُروا كيف أن العُقولَ تَصِل إلى هذا الحَدِّ؟! ولو أن الزُّجاجة ضع عِندها الحَصاةُ، بل ضعها فوقَها فلا تَنكَسِر، ولو أَقبَل الحَجَر على الزُّجاج إقبالًا ولم يَمَسَّها لكنه حَفَّ من حولِه عِندَه ما يَنكَسِر، وكيف يَنقَطِع عنها فنَقول: إنَّ الأسبابَ مُؤثِّرة بنَفْسها، لكن مَن خَلَقَ فيها التأثيرَ؟!

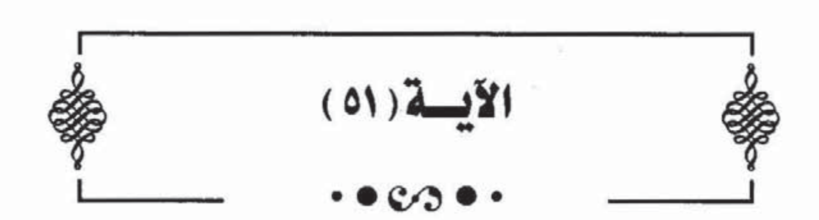
الجوابُ: الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيء قدير، لو أنك قُلْتَ لصبِيٍّ: أَدخِل الورَقةَ في النـار. واحتَرَقَت، إنَّ النار ما أَحْرَقَتْـها، ولا تَسبَّبت في إِحْراقها، وإنها عند النارِ، لا بالنار. ما هذا الكلامُ، هذا كلامُ سَخَف.

فنَقول: إثبات الأَسباب دلَّ عليه السَّمْع والعَقْل، ولكنَّها تُؤثِّر؛ لأنَّ الله تعالى خَلَق فيها التأثير، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النار مُحرِقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لها حين أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسلامًا.

إِذَنْ: هذا السببُ المُؤثِّر زال تَأثيرُه بأَمْر الله تعالى: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فكانَتْ بَرْدًا وسلامًا، فالماء جَوهَر سَيَّال، فكان بإِذْن الله تعالى كالجِبال حين ضَرَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاه البَحْر فانفَلَق، فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقُرْبِه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات هَذَيْن الاسْمَيْن أيضًا: السميع والقريب.



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ:٥١].

•••

﴿ وَلَوْ ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط فيها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجوابُ الشَّرْط محذوف تَقديرُه: لرَأَيْتَ أَمْرًا عظيمًا، وحُذِفَ للتَّفخيم والتعظيم؛ لأجل أن يَذهَب الذِّهْن في تَقديره كُلَّ مَذهَب؛ أو لأنَّك مهما قَدَّرْت فالأمر أَعظَمُ ممَّا قَدَّرْت.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَا مُحَمَّدُ] هذا لا شكَّ أنَّه مُحتَمِل، أي: أن الخِطاب للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفيه احتِمال أنَّ لمن يَصِح توجُّه الخِطاب إليه؛ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره، وهذا أحسنُ؛ لأنَّه أَعَمُّ ومتى وُجِدَ الأعَمُّ والأَخصُّ فإن الأَوْلى الأَخْذُ بالأَعَمِّ؛ لدُخول الأخَصِّ فيه، ولا عَكسَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ هذا يوم القيامة إذا نُفِخ في الصُّور، قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٨٧]، وقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥١-٥٢]، يَعنِي: لو رأَيت حين فَزِعوا لرَأَيْت أمرًا عظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ الفَرْق بين (إِذْ) و(إِذَا): أن (إِذْ) لما مَضَى، و(إِذَا) للمُستَقبَل، و(إِذْ) تَأتِي أيضًا تعليلِيَّةً، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ

إذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَزِعُوا۟﴾ فِعْل ماضٍ مُقتَرِن بواو الجماعةِ، وعَبَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالماضِي عن المُستقبَل، ومن التَّعبير بالماضِي عن المُستقبَل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١]، وهذه صريحة؛ لأنه لو كان قد وقَعَ ما قال فلا تَستَعْجِلوه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا﴾ هذِه (لا) نافِيةٌ للجِنْس و﴿فَوْتَ﴾ اسمُها، وخبَرُها مَحذوف، وقد قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته[1]:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الْخَبَرْ ... إِذَا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

وشاع في ذا البابِ إِسْقاط الخَبَرِ يَعنِي: كثُرَ إذا المُراد مع سُقوطه ظهَر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا فَوْتَ لهم، وهذا يَعنِي أن حَذْف الخبَر في مِثْل هذا التركيبِ أبلَغ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يَعنِي: ما في أبدًا فواتٌ، لو قُلْت: فلا فوتَ لهم. لكان أرَقَّ، أمَّا: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فهي أشَدُّ وَقْعًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لَهُمْ مِنَّا، أَيْ: لَا يَفُوتُونَنَا] ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ مَعطوفة على ﴿فَزِعُوا۟﴾ يَعنِي: أنهم يَفزَعون ويُؤخَذون من مكان قريب، يُؤخَذون بالعَذاب من مكان قريب، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي [القُبُور] وهذا احتِمالٌ بلا شَكٍّ أنها القُبور؛ لأنهم يَخرُجون من حين ما يَخرُجون يَجِدون

(١) الألفية (ص:٢٣).

-والعِياذُ بالله تعالى- أمرًا عظيمًا؛ ولهذا يَقولون إذا خرَجوا من قُبورهم: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

فهُمْ يُؤخَذون من قَريب من حِين ما يَخرُجون من القُبور يُكشَف لهم عن أَمْر أَعظَمَ ممَّا كانوا يُشاهِدونه في القُبور، وإلَّا فإنهم يُعذَّبون في قُبورهم، على القول الراجِح، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: الْقُبُور].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إشارةٌ إلى عظيـم ما سيَقَع بهؤلاء عند الموت أو يوم القِيـامة، مَأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ حيث حذَف جَوابَ الشرط؛ لأنَّ ذلك أَعظَمُ في التَّهويل والتفخيم، حتى يَذهَب الذِّهْن كلَّ مَذهَب في تَقدير ما يُمكِن أن يَكون جوابًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكذِّبين لله عَزَّوَجَلَّ ولرُسُله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يَفُوتون الله تعالى، ولا يُعجِزونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان ما يَقَع بهؤلاء عند مُعايَنة العَذاب من الفزَع الشديد الذي لا يَنفَعُهم، ولا يَستَفيدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنهم يُؤخَذون بالعذاب من مَكان قريب، لا من مكان بَعيد؛ لأنَّ مَن قَدَر على الهرَب رُبَّما لا نَصِل إليه لأَخْذه بالعُقوبة إلَّا من مكان بعيد، ولو أن لِصًّا ضَبَطْناه بجَرِيمته فهرَب، فإذا هرَب فإنه لن يُؤخَذ بالعُقوبة إلَّا من مَكان بعيد، أمَّا هؤلاء فيُؤخَذون من مَكان قريب؛ لأنهم لا فوتَ لهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الجَزاء على الأعمال، وهذا هو الحِكْمة من الأَمْر والنَّهْيِ، فإن الأمر والنَّهْيَ لو لم يَتَرتَّب عليه الثواب والعِقاب لكان عَبَثًا يُنَزَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، لا يُؤمَر ولا يُنهَى؟ الجوابُ: لا.

• • ۞ • •



الآية (٥٢)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [سبأ:٥٢].

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: عِنْد فزَعِهم وعند أَخْذهم من هذا المكان القريب؛ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بما كُنَّا كافِرين به في الأَوَّل. فيَشمَل الإيمان بمُحمَّد ﷺ، والإيمانَ بمُوسى وعِيسَى وإبراهيمَ وغيرهم مِن الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هذا إذا كان الكلام عامًّا في جميع الكُفَّار، فإن كان خاصًّا بكُفَّار قُرَيْشٍ فالمُرادُ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمُحمَّد ﷺ الذي قالوا عنه: إنه كذَّاب. وبالقُرآن الذي قالوا عنه: إنه سِحْر.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بِوَاوٍ وَالْهَمْزَةُ بَدَلَهَا ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ و(التَّنَاؤُش)] والهَمْزة بدَلٌ من الواو، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ مَعناه: أَخْذ الشيءِ من بعيد، يُقال: تَناوَشْت الشيء؛ يَعنِي أَخَذْته بأطراف أَصابِعي على بُعْد؛ أي: أنهم لن يَتمكَّنوا من تحقيق ما أَرادُوه من الإيمان، ولا من بُعْد؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّىٰ﴾ هنا استِفْهام بمَعنَى الاستِبْعاد؛ يَعنِي أنه يَبعُد لهم التَّناوُش من المكان البعيد؛ لأن الذي يَتناوَل الشيء إذا كان عن قُرْب يُقال: تَناوَله وأَدرَكَه. وأَمَّا إذا كان عن بُعْد فيُقال: تَناوَشَه.

ومع ذلك فإنـه لا يَتمكَّن منه، فهـؤلاء يَبعُد عنهم كل البُعْـد أن يَنالوا ما يُريدونه من هذا الإيمانِ؛ لأن هذا الإيمانَ ضَروريٌّ، يَعنِي: أنهم اضْطُرُّوا إليه، حين رَأَوُا العذابَ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بل كانوا يَقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لآمَنوا. ولكن الله تعالى كذَّبهم بقوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. فهُمْ بإيمانهم هذا إنما يُريدون الخَلاص من العَذاب، ولكن العَذاب بَعْد وقوعه لا خَلاصَ منه.

وهذا له شَواهِدُ في القرآن كثيرةٌ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

وقوله تعالى: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أَيْ: تَناوُل الإِيمانِ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عَنْ مَحَلِّهِ، إِذْ هُـمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَحَلُّهُ فِي الدُّنْيَا]، وهذا بعيـد؛ لأنَّ ما مضى من الزمَـن لن يَرجِع حتى الأيامُ الماضية في الدُّنيا لا يُمكِن أن تَرجِع، فيَوْم الأَحَد اليومَ ليس هو يومَ الأَحَد الماضي، وإن وافَقه في الاسْمِ، لكنه غيره، فالشيءُ الماضِي بعيد، والشيء المُستَقبَل قريب، والماضي بَعيد وإنَّ قَرُب، والمُستَقبَل قريب وإن بعُد؛ لأنَّ كل آتٍ قريب.

إِذَنْ نَقول: إن هؤلاءِ حكَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم أنهم يَقولون حين يَفزَعون ويُؤخَذون بالعذاب يَقولون: (آمنَّا)، ولكن هذا الإيمانَ لا يَنفَعُهم؛ لأنهم يَتناوَلونه من مَكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بمَعنَى: تَنـاوُل الشيء من بُعْد، وفي اللغة العامِّيـة يَقول: تَناوَشْت الشيءَ. يَعنِي: تَناوَلْته من بُعْد، وأيضًا ما تَمكَّنت منه التَّمكُّن التامَّ، وكذلك إذا صار بينهم ضَرْب يَقول: تَناوَش مُناوَشةً. أي: من بعيد من دون تَمكُّن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ هـؤلاءِ المُكذِّبين إذا عايَنوا العذابَ آمَنـوا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

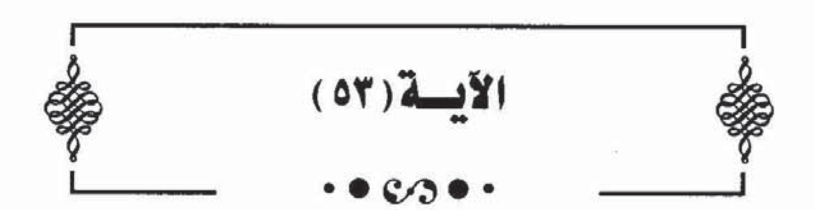
ويُؤيِّد ذلك آياتٌ كثيرةٌ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان بعد مُعايَنة العذاب لا يُفيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾، وإنما كان غيرَ مُفيد؛ لأنَّ الإيمان بالمُشاهَد لا قِيمةَ له، فالشيء المُشاهَد لا بُدَّ أن يُؤمِن به كلُّ إنسان، لكن المِحْنة والابتِلاء إنما تكون في الإيمان بالغَيْب؛ قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

أمَّا إنسان تَقول له مثلًا: هذه حَقيبةٌ، وهذه كَرَّاسة، وهذا مُكبِّر صَوْتٍ، وهذا مُسجِّل. وهي أمامَه فلا يُمكِن أن يُنكِرها، فإن أَنكَر فهو مُكابِر، لكن شيء غائِـب تُخبِره به ربَّما يُنكِره، وهؤلاء إذا آمَنوا بعد مُشاهَدة العذاب فإن إيمانهم لا يَنفَعهم، وإن إيمانهـم حينئذٍ إيمانُ مُشاهَدة، لا إيمانٌ بالغَيْـب، والإيمان بالمُشـاهَدة ليس فيه مَدْح ولا ثَناءٌ، ولا يَستَحِقُّ صاحِبه الجزاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُعْد الإيمان عمَّن لم يُؤمِن إلَّا إذا شاهَد العذاب، والمُراد بـ(بُعْد الإيمان) يَعنِي: بُعْد قَبول الإيمان، يَعنِي: الله عَزَّوَجَلَّ ما نفَى أن يَنفَعَهم فقَطْ، بل قال: إنَّ هذا أَمْرٌ بعيد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

• ● ۞ ● •



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

• • ◦ • •

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يُحتَمَل أن تكون هذه الجُملةُ استِئْنافيَّةً، ويُحتَمَل أن تكون حاليَّةً من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ يَعنِي: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ والحال أنَّهم قد ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يرمَون] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالنَّبيِّ ﷺ أو بالقُرآن، وهم أيضًا: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: [يرمَون] والقَذْف -كما سبق- هو الرميُ بشِدَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِب عنهم يَدَّعونه وهم فيه كاذِبون، مثل أن يُنكِروا البَعْث ويَقولوا: كيف يُبعَث الناسُ وقد كانوا عِظامًا رَميمًا؟ قال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يقولون: إنَّ محمَّدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شاعِر، وكاهِن ومجنون، وما أَشبَه ذلك، فهم يَتكلَّمون بكلام لا حَقيقةَ له، ليس بواقِع مَلموس مَشهود، بل هو أَمْرٌ غائِب عنهم، وهم لا يَعلَمونه، والغَيْبُ هنا شَبيهٌ بقولنا: يَتكلَّمون بالظَّنِّ، ويَقولون الظنَّ، وما أَشبَه ذلك.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: بِمَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ غَيْبَةً بَعِيدَةً؛ حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: سَاحِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَفِي الْقُرْآنِ: سِحْرٌ، وَشِعْرٌ، وَكَهَانَةٌ]، وكذلك قالوا في البَعْث: إنه مُستَحيل، مَن يُحيي العِظامَ وهي رميم؟! فحال هؤلاء إذَنِ الكُفْر والكَلام بالغَيْب من مَكانٍ بعيدٍ، يَعني: أنهم يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِبٍ عنهم، والغائِب بَعيدٌ عن الإنسان، وكيف يَتكلَّمون به وهم لا يَعلَمون.

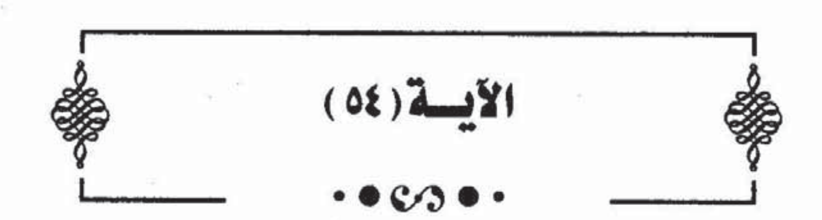
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإشارةُ إلى أن إيمانهم الحاضِر لا يَنفَعهم؛ لأنهم كفَروا من قَبلُ، فحين كان الإيمان نافِعًا كانوا كُفَّارًا، وحين كان الإيمان غيرَ نافِع كانوا مُؤمِنين؛ ولهذا إذا طلَعَتِ الشمسُ من مَغرِبها آمَنَ الناس كلُّهم، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ الذين يَتكَلَّمون في حقِّ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو ما جاء به من الوَحيِ بالسَّبِّ والعَيْب إنما يَتكَلَّمون رَجْمًا بالغيب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ لم يُحاوِلوا القُرْب والنَّظَر فيما جاء به الرسول ﷺ، بل كانوا كالذي يَرمِي بالحِجارة من بُعدٍ، ولا يُريد أن يَقترِب؛ ليَتبيَّن الأَمْر، وهذا سُوء أدَبٍ منهم؛ لأنَّ العَقْل يَقتَضي أن يَدنوا من الشيء؛ ليَتعرَّفوا إليه، حتى لا يَقذِفونه من بعيد، لكن هم كانوا يَقذِفون بالغيب من مكان بعيدٍ، وهذا يُبْعِد أن يَكون الإيمان مَقبولًا منهم.

• • ❁ • •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤].

•●∞●•

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِيلَ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، ونائِب الفاعِل هو الظَّرْف، ويَنوب الظَّرْف مَناب الفاعِل كما ذكَره ابنُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في أَلْفيَّته(١):

وَلَا يَنُوبُ بَعْضُ هَذِي، إِنْ وُجِدْ		فِي اللَّفْظِ مَفْعُـولٌ بِـهِ، وَقَـدْ يَـرِدْ

وهذا النائِبُ هو الظَّرْف؛ لأنَّ المَفعول به لم يُوجَدْ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فما الذي يَشتَهُونه؟ الذي يَشتَهونه هو النَّجاة من العذاب الذي حلَّ بهم، ولكن هذه النَّجاةَ إنما تكون لو قُبِل الإيمان منهم، والإيمان منهم غير مَقبولٍ في هذه الحالِ؛ فلهذا لم يَتمكَّنوا ممَّا يُريدون.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: [﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ، أَيْ: قَبُولِهِ]، ولكن هم في الحقيقة يَشتَهون شيئًا قبل قَبول الإيمان، وهو النَّجاة من العذاب، وهذا فَرْع عن قَبول الإيمان، وقَبول الإيمان غير مُمكِنٍ؛ لأنه فات محَلُّه.

---
(١) الألفية (ص:٢٦).

إِذَنْ: حِيل بينهم وبين ما يَشتَهون، ولذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ فالذي حال بينهم وما بين ما يَشتَهون هو تَأَخُّر الإيمان والتَّوْبة، ولو أن ذلك حصَل في الدُّنيا قبل أن يُعايِنوا العذاب لكان مُمكِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ بِأَشْبَاهِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أي: قَبْلِهِمْ].

وقوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ كما حيل بين أَشباهِهم في الكُفْر ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أي: من قَبْلِ هؤلاء، مثل قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعادٍ، وصالِحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيرهم، وهذا يُؤيِّد ما ذكَره بعض المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنَّ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾ يَعني: عند الموت؛ لأَنَّه قال: ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾، وهذا فِعْلٌ ماضٍ يَدُلُّ على أن هذا أَمْر قد مضَى على مَن سبَق، ولو كان يوم القِيامة لم يَكُن قد مضَى من قَبْلُ.

أَمَّا على رَأْيِ المُفَسِّر ومَن تابَعه من المُفسِّرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: بأن الفزَع هذا هو فزَع يوم القيامة، ويَدُلُّ عليه الآية التي استَشْهَدْنا بها من قبلُ؛ فيَقول: «كما فُعِل» أي: كما قُدِّر أن يُفعَل بأشياعِهم من قَبلُ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ إعرابُها: ظرفٌ مَبنيٌّ على الضمِّ في محَلِّ جرٍّ، ويَقولون: مِن قبلُ، ومِن بَعدُ، وما أَشبَهَهما لها أربعُ حالاتٍ:

١- إمَّا أن تكون مُضافةً.

٢- مَقطوعةً عن الإضافة لَفظًا ومَعنًى.

٣- مَقطوعة عن الإضافة لَفظًا تقديرًا لا مَعنًى.

٤- مَقطوعة عن الإضافة لَفظًا، ولكنها معنًى مُضافةً.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا فُعِلَ﴾، و(ما) مَصْدرية يَعنِي: كالمفعول بأَشياعهم من قَبلُ، (ما) مَصدَرية، أي: كفِعْلنا، أو كالمَفعول بأَشياعهم ﴿مِن قَبْلُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ الجُمْلة هذه تَعليل لما قَبلَها فصِلَتُها بما قَبلَها أنها تَعليل، أي: إنَّ هؤلاء الذين لم يَنجُوا من النار أو من العذاب كانوا في الدنيا في شكٍّ، والشكُّ هو: التَّردُّد بين الإثبات والنَّفيِ، والإيمان يَجِب أن يَكون جازِمًا لا شكَّ فيه؛ ولهذا من شَكَّ فيما يَجِب الإيمان به لم يَكُن مُؤمِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: مُوقِعٍ فِي الرِّيبَةِ لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ الْآنَ، وَلَمْ يَعْتَدُّوا بِدَلَائِلِهِ فِي الدُّنْيَا]، يَعنِي: أنهم في الدُّنيا غفَلوا عن دَلائِل الإيمان، ولم يَتفكَّروا بها، بل أَنكَروها إمَّا مُكابَرةً، وإمَّا شَكًّا وتَردُّدًا، فلم يَنفَعْهم.

والحاصِلُ: أنَّ هذه الآياتِ كلَّها فيها إنذارُ هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وتَذكيرُهم بهذه الأحوالِ التي ستكون وارِدةً عليهم عند الموت وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكُفَّار إذا عايَنوا العذاب يَشتَهون، بل يَتمَنَّوْن أن يُرَدُّوا إلى الدنيا، يَقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، ولكن هذا الذي يَشتَهونه ويَتَمَنَّونه لا يَنفَعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، والنُّكْتة في عدَم بَيان الفاعِل -فلم يَقُل: وحال الله تعالى بينهم. ولا قال: وحال الكُفْر-.

النُّكْتة في هذا لأَجل أن يَكون الحائِل صالِحًا لأَنْ تُقدِّره لكُلِّ ما يُناسِب

الحال، فإن شِئْت فقُلْ: حال بينـهم وما بين ما يَشتَهون كُفْرهم في الدنيا. وإن شِئْت فقُلْ: حال بينهم وبين ما يَشتَهون تَقديمُ شَهَواتهم في الدُّنيا منَعَهم شَهَواتهم في الآخِرة.

وهذا نَظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠] بدَلًا عمَّا أَذْهَبْتُموه من الطَّيِّبات في الدنيا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استِعْمال القِياس، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى الاعتِبار بمَن مَضَى وسبَق، سواءٌ كانوا من أهل الخَيْر أو من أهل الشرِّ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقرِن أحيـانًا الحُكْم بعِلَّتـه؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

وقَرْن الحُكْم بعِلَّة له فَوائِدُ منها:

أ- بَيان الحِكْمة، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَحكُم بشيء -سواءٌ كان كَوْنيًّا أو قدَريًّا- إلَّا لحِكْمة القِياس.

ب- ومنها: إذا ذُكِرت العِلَّة وأُلحِق بهذا الشيءِ ما يَجتَمِع معه في العِلَّة.

ج- ومنها: بيانُ سُمُوِّ الشريعة لاطْمِئْنان النفس إلى الحُكْم والرِّضا به.

وإن كان الواجِبُ على المُسلِم أن يَرضَى بحُكْم الله تعالى مُطلَقًا، لكن لا شَكَّ أنَّ مُشاهَدة الإنسان لحِكْمة الحُكْم أَبلَغُ في الطُّمَأنينة من عدَم ذلك؛ ولهذا قال الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هـذا الشَّكَّ الحاصِلَ لهـؤلاء أَوْقَعهم في رِيبة، والرِّيبة يَعنِي: ليسَتْ مُجرَّد الشَّكِّ، بل قال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الرَّيْب شَكٌّ مع قلَق واضطِرابٍ، يَعنِي: أن الشاكَّ عنده تَردُّد في الأمور، لكن ما عنده تَشويشُ فِكْر، لكن المُرْتاب يَكون عنده شيء من التَّشويش الفِكْرِيِّ، والقلَق النَّفْسيِّ، وعدَم الاتِّجاه السليم؛ ولهذا قال: إنهم كانوا في شكٍّ مُريبٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الشكَّ مُنافٍ للإيمان فيما يَجِب الإيمانُ به، فلو أنَّ أحَدًا شكَّ في يوم القِيامة -في البَعْث- ما نفَى وجزَم بالنَّفْي، ولا أَقرَّ وجزَم بالإقرارِ.

نَقول: إنَّ هذا في حُكْم المُنكِر تمامًا، فهو كافِر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن أيَّ قَوْم إذا رأَوُا العَذاب فإنه لا يَنفَع إيمانُهم، وأمَّا قوم يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد استَثْناهم الله عَزَّ وَجَلَّ فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]، والحِكْمة من ذلك -والله تعالى أعلَمُ- أن نَبيَّهم ذهَب عنهم قبلَ أن يُؤمَر، فكأنَّ الدعوة لم تَتِمَّ على الوجه الأكمَلِ الذي يَنفِي عنهمُ العُذْر.

• • ❁ • •